

كتاب اليوم
قطاع الثقافة

هذه الدنيا



أحمد بهاء الدين

اهداءات ٢٠٠٤

أسرة المخرج / إبراهيم الصحن

القاهرة



قطاع الثقافة

كتاب اليوم

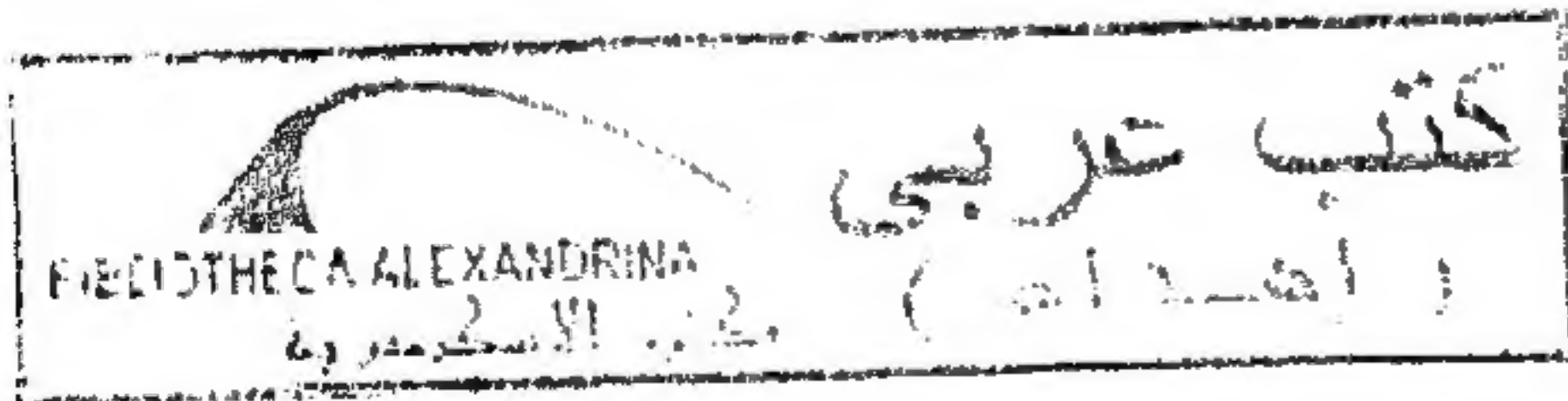
يصدر
أول كل شهر

رئيس مجلس الإدارة:

إبراهيم سمدة

رئيس التحرير:

نبيل أباطة



□ عدد فبراير ١٩٩٧ □

أسعار كتاب اليوم في الخارج

الجمهورية العظمى ٢ دينار	البحرين ١,٢٥ دينار
المغرب ٢٠ درهما	سلطنة عمان ١,٢٥ ريال
لبنان ٤٠٠٠ ليرة	غزة ٢ دولار
الأردن ٢٠٠٠ فلس	ج. اليمينية ١٥٠ ريالاً
العراق ٧٠٠٠ فلس	الصومال، نيجيريا ٨٠ بنى
الكويت ١,٢٥ دينار	السفـال ٦٠ فرنك
السعودية ١٢ ريالاً	الإمارات ١٢ دراهم
السودان ٣٢٠٠ قرش	قطر ١٢ ريالاً
تونس ٢ دينار	انجلترا ٢ جك
الجزائر ١٧٥٠ سنتيما	فرنسا ١٠ فرنك
موريتانيا ١٢٥ ل.س	المانيا ١٠ مارك
الحبشة ٦٠٠ سنت	إيطاليا ٢٠٠٠ ليرة
البحرين ١,٢٥ دينار	هولندا ٥ فلورين
سلطنة عمان ١,٢٥ ريال	باكستان ٣٥ ليرة
غزة ٢ دولار	سويسرا ٤ فرنك
ج. اليمينية ١٥٠ ريالاً	اليونان ١٠٠ دراخمة
الصومال، نيجيريا ٨٠ بنى	النمسا ٤٠ شلن
السفـال ٦٠ فرنك	الدنمارك ١٥ كرون
الإمارات ١٢ دراهم	السويد ١٥ كرون
قطر ١٢ ريالاً	الهند ٢٥٠ روبية
انجلترا ٢ جك	كندا - أمريكا ٣٠٠ سنت
فرنسا ١٠ فرنك	البرازيل ٤٠٠ كروزيرو
المانيا ١٠ مارك	نيويورك - واشنطن ٣٥٠ سنتا
إيطاليا ٢٠٠٠ ليرة	لوس انجلوس ٤٠٠ سنت
هولندا ٥ فلورين	استراليا ٤٠٠ سنت
باكستان ٣٥ ليرة	
سويسرا ٤ فرنك	
اليونان ١٠٠ دراخمة	
النمسا ٤٠ شلن	
الدنمارك ١٥ كرون	
السويد ١٥ كرون	
الهند ٢٥٠ روبية	
كندا - أمريكا ٣٠٠ سنت	
البرازيل ٤٠٠ كروزيرو	
نيويورك - واشنطن ٣٥٠ سنتا	
لوس انجلوس ٤٠٠ سنت	
استراليا ٤٠٠ سنت	

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية
قيمة الاشتراك السنوى ٤٨ جنيها مصريا

البريد الجوى

- دول اتحاد البريد العربى ٢٥ دولارا
- اتحاد البريد الافريقى ٣٠ دولارا
- أوروبا وأمريكا ٣٥ دولارا
- أمريكا الجنوبية واليابان وأستراليا ٤٥ دولارا
- أمريكا أو ما يعادله
- ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
- ترسل القيمة إلى الاشتراكات
- ٣ (أ) ش الصحافة
- القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)
- فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠
- تليكس دولى : ٣٠٣٢١٠
- تليكس محلى : ٢٨٢

كتاب اليوم

قطاع الثقافة

هذه الدنيا



أحمد بهاء الدين



الغلاف والإخراج الفني :

مجدي حجازي

تقديم

هذه الدنيا

حاضرا أو غائبا ، يبقى أحمد بهاء الدين أكبر من أى
تقديم..

فليس فى مصر أو العالم العربى من لا يعرف الأستاذ
أحمد بهاء الدين كاتباً من أصحاب الرسائل .. واحداً من
ألمع وأشهر كتاب الصحافة العربية والمصرية فى النصف
الثانى من هذا القرن.

كان أحمد بهاء الدين طرازاً فريداً من الكتاب ، فى حياته
وسلوكة وأدائه.. فهو لم يعتمد فى نجاحه وصعوده ووصوله
إلى تلك المكانة العالية على حزب أو حاكم أو صاحب نفوذ أو
جهة لها سلطان ، وإنما اعتمد على نفسه وجهده ومواهبه
وقدراته.

وطوال رحلته التى امتدت إلى ما يزيد على أربعين سنة ،
بقى أحمد بهاء الدين صادقاً وأميناً مع نفسه ومع الناس.

فهو لم يتلون ، ولم يتزلف ، ولم يعرف المهادنة ، أو الاستسلام ، أو التنازل عن أفكاره ومبادئه ورسالته من أجل منصب أو تكون له حظوة أو تقرب من سلطان .. ولم يسقط أمام اغراءات عالم الصحافة الزاخر بالاغراءات من كل نوع .. اغراءات الشهرة ، واغراءات المال ، واغراءات العلاقات والمصالح والمجاملات .. وإنما بقي كأصحاب الرسالات ، شريفاً ، عفيفاً ، شامخاً ، مترفعاً عن الصغائر ، موضع احترام الجميع ، من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ، ولو اختلفوا معه في الرأي.

بقي أحمد بهاء الدين على العهد به ، رغم كل ما تعرض له من محن ومواقف صعبة ، فارساً نبيلاً تتجسد فيه كل خبرة وشجاعة وبصيرة وتراث وحضارة وطنه وأمته : مصر العروبة ..

بدأ أحمد بهاء الدين رحلته مع القلم سنة ١٩٤٦ ، ولم يتوقف عن الكتابة إلا يوم ٢٤ من فبراير ١٩٩٠ ، عندما وقعت الواقعة ، وداهمه نزيف المخ ولم يعد باستطاعته أن يمسك بالقلم أو يتذكر شيئاً.

وهكذا بدأ الغياب ..

غياب الذاكرة القوية الجبارة القادرة على جمع المعرفة ، والقادرة على التحليل ..

غياب الذكاء الخارق ، وغياب موهبته .. موهبة التعبير العالية ، وغياب صاحب المصداقية التي لقيت التقدير

والاحترام من كافة مدارس الفكر والثقافة .

لقد آن للفارس النبيل أن يترجل ..

وعاش السنوات السبع الأخيرة من حياته في فراش
المرض ، صامتا ، بعيدا عن الحياة والناس .. وبعدها كان
الرحيل ..

□□ تولى أحمد بهاء الدين رئاسة تحرير سبع جرائد
ومجلات مصرية من بينها أكبر جريدتين وهما الأخبار
والأهرام ..

□□ في حديثه عن أحمد بهاء الدين قال مصطفى أمين:
انه كان معجبا بما يكتبه أحمد بهاء الدين في بداية حياته في
روزاليوسف ، ولهذا اختاره رئيسا لتحرير الأخبار وهي
أول مرة يتم تعيين رئيس تحرير يختلف رأيه عن رأى
صاحب الجريدة .. وقال مصطفى أمين انه لم يحذف حرفا
واحدا مما كان يكتبه أحمد بهاء الدين في أخبار اليوم .

في ١١ من سبتمبر ١٩٥٩ انضم أحمد بهاء الدين إلى دار
أخبار اليوم وأصبح أحد رؤساء تحرير جريدة الأخبار .

□□ وفي الشهر التالي من انضمامه إلى كتيبة أخبار
اليوم .. في شهر أكتوبر ١٩٥٩ بدأ أحمد بهاء الدين يكتب
صفحته الأسبوعية في أخبار اليوم تحت العنوان الشهير
«هذه الدنيا» ..

واستمر يكتب عن «هذه الدنيا» وما جرى فيها من سنة

١٩٥٩ إلى سنة ١٩٦٤ .. أى قرابة السنوات الخمس.

وكان الذى جرى فى «هذه الدنيا» خلال تلك السنوات كثيرا جدا ، وخطيرا جدا..

□□ كانت الدنيا غير الدنيا التى نعرفها الآن ..

ولم تكن تلك السنوات الخمس عادية وإنما كانت سنوات الأحداث الكبرى فى تاريخ العالم ، وتاريخ مصر والأمة العربية.

□□ كل ما جرى فى «هذه الدنيا» فى تلك السنوات الخمس الصعبة ، قدمه لنا أحمد بهاء الدين بفكره الموسوعى، وتحليلاته العميقة ، ورؤيته المستقبلية الشاملة.. ورسم لنا صورته بكل ألوانها والظلال.

□□ لم تكن السياسة فقط هى شاغل أحمد بهاء الدين فى «هذه الدنيا» وإنما كانت هناك الثقافة والفن والتاريخ والاجتماع والعلاقات الانسانية.

وكان حريصا على أن يقدم هذا المزيج أسبوعيا ، إلا إذا كان هناك موضوع واحد يفرض نفسه..

وهذا الكتاب يقدم لنا شهادة أحمد بهاء الدين عن الذى جرى وكان فى «هذه الدنيا» فى تلك الأيام.. وهى شهادة للأجيال لتعرف أحداث الماضى التى صاغت الحاضر..

هل هناك مكان للحب .. في حياتنا الجديدة؟..

إننا ننطلق في الطريق إلى بناء مجتمع اشتراكي.. ونحن نريد أن نشحذ كل همة من أجل زيادة الانتاج ومضاعفة الدخل. وقد نحتاج إلى التقشف في هذا الفرع من فروع الحياة أو ذاك.

فهل هناك مكان للحب.. في حياتنا الجديدة؟..

هل مطالبة المجتمع بأن يحول فوضى حياته إلى خطة مرسومة..

معناها تحويل الإنسان إلى مسمار في آلة، أو إلى كيان ميكانيكي أصم؟ هل معناها تجريد الفرد من إنسانيته.. التي تجعله يقع في الحب، ويبحث عن المتعة، ويرتكب الحماقات، ويستلقي على ظهره في ليلة جميلة.. لا يفعل شيئاً سوى أن يتأمل النجوم؟..
اننا محتاجون إلى كل دقيقة من وقت كل مواطن ومواطنة.. لأننا نريد أن نبني في سنوات ما بناه غيرنا في عشرات من السنين.. فهل معنى ذلك أن نلغى الدقائق التي تنفقها الفتاة أمام مرآتها، أو التي ينفقها الفتى في ترتيب رحلة أو سهرة مريحة؟
إننا نريد أن نحمي مجتمعنا من الانحراف

هل

هناك

مكان

للحب ..؟

أخبار اليوم .. في

٦٠ / ٦ / ١١

والضعف.. فهل الحب انحراف؟ وهل الوقوع في هوى الطبيعة الجميلة ضعف..؟ ليس هذا صحيحا..! بل إن الذين يقولون هذا الكلام.. اما أنهم خصوم للمجتمع الجديد، يريدون تشويه صورته مقدما.. واما أنهم ناس لا يهمهم إلا أن يكونوا أكثر المتكلمين حماسة وتطرفا.. ولو على حساب المجتمع الجديد نفسه..!

ومن الممكن أن نقول ببساطة: إن المجتمع الذى يعمل وينتج، هو المجتمع الذى يعرف كيف يستمتع بحياته..! وإن الكثيرين منا يقعون تحت وهم الصور الناقصة التى تنقل إليهم عن الخارج..! فالناس يقرأون ويشاهدون الأفلام عن لندن وباريس ونيويورك وغيرها. فيظنون أن لندن ليست سوى حدائق هايدبارك حيث يباح الهوى.. ونيويورك ليست سوى شارع برودواى حيث أكبر مسارح اللهو.. وباريس ليست سوى مونمارتر حيث يسهر الفنانون بلا عمل حتى الصباح..! ولكن هذه ليست إنجلترا وفرنسا وأمريكا.. ان أهم ما فى هذه البلاد هو الجهد العنيف.. هو المناطق الصناعية الهائلة.. هو قاعات العلم ومعامل البحث وأفران الحديد المنصهر..! والذين تراهم فى الشوارع والحدائق والمسارح يلهون ويمرحون، هم أنفسهم الذين تراهم فى المعامل والمصانع والمدرجات يبحثون ويعملون ويتصببون عرقا.. إن ازدهار اللهو جاء نتيجة لازدهار العمل وليس العكس..!

وبالعكس.. يقرأ الناس عن موسكو مثلا فيحسبون أنها مجرد معسكرات هائلة للعمل الشاق العنيف.. وإن الناس هناك لا يبتسمون.. وهذا أيضا غير صحيح ففى هذه البلاد التى قفز فيها الانتاج.. قفز أيضا عدد المسارح الهائلة.. وانتشرت الحدائق المضيئة طوال الليل والغاصة بأنواع التسلية والألعاب.. وبدأت الشوارع والحدائق تزدهم بالشباب الذين ينفقون، لأنهم يؤدون عملهم ويكسبون.

الحب .. والنظام الاجتماعى!

ولكن .. تعالوا نفكر فى الموضوع من زاوية أخرى.. إن الحب يتأثر إلى حد بعيد بنظام المجتمع، وبدرجة نموه الاجتماعى والاقتصادى.

ولو حاولنا أن نتتبع تطور الحياة في أسرة واحدة، خلال عدة أجيال، لوجدنا الدليل على ذلك..

في البدء، كان المجتمع - بوجه عام - اقطاعيا. وسيادة النظام الاقطاعي معناها أن تقاليد المجتمع وأخلاقه وعاداته كلها تنتسب إلى هذا النظام، في ظل هذا النظام نجد الأب يتمتع بسلطة مطلقة على زوجته وعلى أولاده وأحفاده.. سلطة أشبه بحق الملكية الخاصة، بل إنها بالفعل ملكية خاصة، فالزوجة مملوكة لزوجها، اشتراها من أبيها بمهر ضخم، اشتراها دون اختيارها. وهي تعلم جيدا أن مهمتها هي أن تخدمه وتطيعه وتخلص له ولا تناقش رغباته.. في حين أنه هو ليس مطالبا بالوفاء أو الإخلاص لها.. وكذلك الابن أو البنت بالنسبة له.. الابن اذا عمل فهو يعطى إirاده لأبيه... وإذا تزوج فأبوه هو الذي يختار له زوجته.. وهو على الأغلب.. يقيم بأسرته الجديدة مع أبيه. أما البنت فوضعها معروف، مثل وضع أمها تماما!..

وفي صفقات الزواج تلعب قيمة المهر وثمان الشبكة وكمية العقارات التي يملكها الزوج الدور الأكبر في الاختيار. فالمال في حد ذاته له قيمة خاصة مستقلة عن قيمة الرجل..

ولكن هذا الوضع تغير إلى حد بعيد.. وما زال يتغير باستمرار.. اكتسبت المرأة حق التعليم والعمل، وبهذا كسبت حق الاختيار وحق المساواة. وليس ضروريا أن تعمل كل النساء ليتمتعن بهذا الحق. ولكن ظهور هذا الحق يترك أثره بالنسبة لجميع النساء. وكذلك بالنسبة للأبناء والبنات. لقد زاد حقهم في الاختيار والاستقلال والانفصال. أصبح الشاب أو الشابة يختار مستقبله ويختار شريك حياته ويستقل بمعيشته، وفي الزواج تراجع أهمية الشبكة والمهر، وتراجعت دلالتهما على نوع «العريس»! فقد بدأ الاحساس ينمو بأن القيمة الأساسية هي قيمة العمل. والعمل صفة لاصقة بالشخص لا تنفصل عنه، وهي المعيار الذي يقاس به. ولذلك أصبح «العريس» الناجح أو المتعلم أو الذي «له مستقبل» أهم من عريس خامل استطاع أبوه أن يدفع له مبلغا ضخما في المهر والشبكة، أو من عريس خامل يملك بضعة فدادين، في نموذج هذه الأسرة.. نجد أن التطور

الاجتماعى، الذى يستند إلى تطور مادی واقتصادى، قد غير معالم الحب القديم تماما. لم يعد الحب هو الخضوع، ولكنه أصبح المساواة والاحترام. لم يعد الحب يطالب المرأة دون الرجل بالوفاء، بل أصبح يطالب الاثنين على السواء بهذا الوفاء.. لم يعد الحب قرارا يصدره الأب لابنته بأن تعيش لهذا الرجل أو ذاك.. ولكنه قرار تصدره الفتاة بنفسها، لأنها هى التى سترتبط به.

وليس هذا سوى مثل بسيط جدا، يصور لنا مدى الاندماج التام بين نوع العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، وبين الحب.

ولنقارن مثلا بين فتاة لم تتعلم ولم تعمل وأبوها يعولها بصعوبة.. وبين نفس الفتاة لو أنها تعلمت، وأصبحت تعمل..! انها فى الحالة الثانية تستطيع أن تخرج.. أن تذهب إلى السينما. أن تبحث عن ثوب تشتريه وعن ذوق يناسبها.. أن تختار شريك حياتها أو توافق على اختياره لها.. أن تكون لها صديقات..! والفرق هو التغير المادى والاجتماعى الذى حدث لها نتيجة ثقافتها وعملها..!

كذلك البيئة الاجتماعية كلها .. !

مجتمع بلا حب !

إن الكاتب «كريستوفر كودويل» الكاتب الذى حارب الفاشية فى أسبانيا حتى سقط قتيلا وهو فى ريعان الشباب - هذا الكاتب كان له كلمة جميلة تقول: «إن المجتمع عبارة عن انتاج اقتصادى ممزوج بالحب! وكما أن الحب هو الذى يجعل الحياة تمضى، فإن الطريقة التى تمضى بها الحياة تؤثر فى صورة الحب..»!

والحب ليس حب الرجل والمرأة فقط. انه حب الآباء والأبناء.. حب الأزواج والزوجات.. حب الطلبة والأساتذة.. حب الرؤساء والمرءوسين.. حب الزملاء والرفاق.. وهو يتمثل فى صور أخرى كثيرة.. كحب الإنسان لوطنه. أو حب الناس جميعا ومشاركتهم لأى إنسان يمر بمحنة.. كل هذه ألوان من هذا الحب الذى يحرك الحياة.. وكلها ألوان من الحب تؤثر فى قرارات كل فرد وفى مواقفه ومشاعره.. وكلها ألوان مرتبطة ببعضها البعض.. فالشباب الذى يعجز عن حب فتاة وزوجة يعجز أغلب الأمر فى

النهاية عن أن يحب أى شىء آخر فى المجتمع. كذلك فإن الرجل الحاقد الكاره للحياة والناس والمجتمع، يستحيل عليه فى الواقع أن يحب فتاة واحدة حبا حقيقيا سليما صادقا..!

وأغلب أنواع الانحراف ترجع فى الواقع إلى نقص فى الحب.. وأى شاب ينحرف يرجع انحرافه دائما إلى نقص فى حب أهله أو أساتذته أو زملائه.. أو إلى شعوره بأن «المجتمع» بوجه عام، ككيان واحد، لا يحبه..! وكما انتشر الانحراف، كان هذا دليلا على اختفاء الحب من الحياة.

مجتمع الحب .. ومجتمع الاشتهااء !

والتخلف الاقتصادى من أكبر العوامل التى تطرد الحب من المجتمع..! إن التخلف الاقتصادى، وعدم مجاراة المجتمع لمطالب الناس المتزايدة ولوعهم الذى ينمو ، والفروق الهائلة بين الطبقات.. كل هذا يؤدى فى النهاية إلى ضيق الأرزاق، وضيق الصدور، وارتفاع موج العداوة على موج المحبة.. فى هذا الجو ستجد الابن ساخطا على أبيه. لأنه لا يفهمه ولا يعطيه ما يريد. وستجد الأستاذ ساخطا مهملا لتلاميذه لأن المجتمع لا يكافئه على جهده ولا يوفر له حياة معقولة مقابل هذا الجهد.. وستجد الشاب الناشئ ممزقا بين أحلام حياة رغدة وبين واقع حياة ضيقة مغبونة. انه على الأقل ييأس من أن يتزوج ويؤسس لنفسه بيتا.. فييأس بالتالى من العلاقات المشروعة. ويلجأ إلى الانحراف.. وهكذا..

وعندما يتقهقر الحب.. يحل محله شعور مزدوج من الحرمان والاشتهااء.. كل واحد يحس بالحرمان والاشتهااء معا.. اشتهااء الجنس أو اشتهااء المال، أو اشتهااء المركز والنفوذ..

والاشتهااء غير الحب. إن الاشتهااء هو اقتناص لذة عابرة أما الحب فهو إحساس بناء. تمتزج فيه العاطفة بالمسئولية، إن المجتمع فى هذه الحالة لا يتقدم ولا يتطور بنظام.. إنما تتقرر فيه أشياء كثيرة بناء على الحظ والفرصة.. وكل واحد عليه أن يمسك بفرصته الخاصة ولو على حساب الآخرين، وإلا اقتنصها الآخرون على حسابه..! الحل العام لمشكلة المجتمع غير موجود فلا مفر من الحلول الخاصة بكل فرد! وهى عادة حلول وقتية فردية ضيقة.. هى التربة الخصبة للانحراف.. وهى التربة الخصبة لكل

ما يغذى الانحراف.. مثل أدب الانحلال وأفلام الانحلال وفكر الانحلال.. وكل ما يهيئ للفرد في الخيال حياة لن يحققها في الواقع.. وكل ما يبرر للفرد انحرافه الخاص إذ يقول له: إن الجميع هكذا!! والدنيا كلها هكذا!! وأعود مرة أخرى إلى كلمة جميلة قالها «كودويل»: «إن تحويل الحب إلى شذوذ وانحراف.. هو خيانة لقدرة الانسان على الحب...!».

كيف تعيش الأغلبية؟

وبعد.. فهل هناك علاقة مباشرة بين هذه الرحلة الطويلة، وبين مجتمعنا الجديد...؟
نعم..

إن نقطة الارتكاز في أى كلام عن مجتمع اشتراكي هي: أغلبية الشعب وليست فئة محدودة منه...! فحين نتكلم عن حق الإنسان في كذا وكيت، نقصد بهذا «الإنسان» مجموع الشعب، وليس فئة قليلة طافية على السطح...!

وينفخ المنطق.. حين نتحدث عن الحب، ومكانه في المجتمع الجديد، لا نتحدث عنه في داخل الطبقة الاجتماعية الغنية اللامعة وغيرها.. إنما نتحدث عن مكانه ومستقبله بالنسبة لمجموع الشعب..

ومشكلة الشعب - بمجموعه - هي زيادة الانتاج...! هي تكريس كل شيء لرفع مستوى المعيشة. لتطويع المجتمع ماديا واقتصاديا واجتماعيا بما يسمح للحب أن يزدهر.. ويصبح عاطفة من عواطف الصحة لا المرض، ومن أسباب السلامة، لا الشذوذ...!

إننا لا نستطيع أن نقول: إن الناس في بلادنا عندهم سيارات كاديلاك لمجرد أن هناك بضع مئات عندهم سيارات كاديلاك...! كذلك لا نستطيع أن نقول إن الناس في بلادنا يتمتعون بعاطفة الحب. لمجرد أن هناك عددا محدودا نسبيا يتمتع بهذه العاطفة! لا نستطيع أن نقول إن كل شاب وشابة في الثلاثين مليوناً الذين يسكنون بلادنا، تسمح لهم ظروفهم المادية والاجتماعية والثقافية بالاستقلال والاختيار، وتذوق العواطف الجميلة والأشياء الجميلة!

كما أن الثراء في بلادنا كان احتكارا للقليلين.. كذلك كان الحب، وكان

تذوق الجمال...! هناك ملايين تنهكهم الحاجة.. الحاجة إلى الغذاء وإلى الصحة وإلى الكساء وإلى الراحة.. وهذه الحاجة تحرمهم من ممارسة شتى ألوان الحب والاستمتاع بجمال الناس والفن والطبيعة.. بينما توجد قلة تحترف الحب احترافا. كما يحترف آخرون فلاحاة الأرض مثلاً...! وعندما تحول الحب عند هذه القلة إلى حرفة لم يعد الحب بالنسبة لها حقيقة تعيشها بل أصبح أدوارا تمثيلية تؤديها وتبدلها.. وتعطى بها للناس صورة مشوهة عن الحب..!

إننا نريد في مجتمعنا الجديد أن تتسع قاعدة الحب.. الحب الذي ينبت كالزهرة في تربة من الشعور بالعدل وعدم الغبن. والاطمئنان إلى التقدم، والقدرة المادية والمعنوية على ممارسة الاختيار والانتقاء. إن الوردية إذا غرستها في تربة فقيرة وأغلقت عليها هواء فاسدا سرعان ما تذبل وتتعفن وتجف.. وكذلك كل عواطف الحب في المجتمع.. حب الرجل للمرأة، والآباء للأبناء، والأساتذة للطلبة.. وكل حب آخر يحرك الحياة..!

أكبر حدث فني وأدبي تحدث عنه لندن .. هو معرض صور الرسام بيكاسو.. المقام في «تيت جاليري»... لقد قاموا بجمع كل أعمال الرسام بيكاسو في خلال ما يزيد على الخمسين سنة.. جمعوها من كل أنحاء العالم.. فبعضها جاء من استراليا ونيوزيلندا وبعضها جاء من فرنسا وأمريكا، استعاروا ما يملكه الأفراد وما تملكه المتاحف، واستغرق الإعداد لهذا كله سنوات. وبلغ ثمن نقل هذه الصور إلى لندن

ثمانية آلاف جنيه. ووصلت قيمة التأمين عليها - وهي ٢٦٩ لوحة - إلى مبلغ ستة ملايين جنيه، وليس معنى هذا أن القائمين على المتحف دفعوا ستة ملايين، ولكنهم دفعوا مبلغا ضخما وصل إلى بضعة عشرات الآلاف من الجنيهات كقسط تأمين. فلو تصورنا جدلا أن كل صور المعرض ضاعت لدفعت شركات التأمين لأصحابها ستة ملايين جنيه!

ومن الجهات التي تملك هذه الصور - كمتحف نيويورك مثلا الذي يملك ٦ لوحات منها - اشترط أن لا تنقل لوحاتها الست عبر المحيط في باخرة

محاولة

لشهم

بيكاسو!

أخبار اليوم .. في

٦٠/٨/١٣

واحدة.. خشية أن يحدث للباخرة شيء.. فأرسلت اللوحات الست في ثلاث
بواخر مختلفة!

وفي مقابل هذا كله.. تستطيع أن تدخل المعرض وتقضى فيه يوما كاملا
إذا أردت مقابل ثلاثة شلنات ونصف أى حوالى العشرين قرشا..
ولا أظن أن هناك رساما آخر قبل بيكاسو، تمتع بكل هذا المجد
والتكريم والثراء والنجاح فى حياته.. وليس بعد وفاته، كما هو المفروض أن
يحدث.. بالنسبة للعباقرة!!..

ولاشك أن مئات أو آلافا من الرسامين ومن محبى الرسم يحسدوننى
على هذه الفرصة التى أتيت لي أن أرى كل أعمال الرسام العالمى مجموعة
فى معرض واحد.. وهو شيء نادر!..

ولاشك أنهم سيزدادون حسدا لي لو عرفوا أن هذه ثانى مرة يصادفنى
فيها هذا «الحظ»... فمنذ أربع سنوات تقريبا، كنت فى باريس.. ووجدت أن
باريس تقيم معرضا مماثلا لكل أعمال بيكاسو.. بمناسبة مرور ٥٠ سنة
على وصول بيكاسو إلى باريس ليقام فيها، يوم كان رساما شابا مغمورا،
أتيا من بلاده، أسبانيا...

ولكننى، فى الواقع، لا أحسد نفسى على هذا الحظ الكبير..
إن بيكاسو دائما يتحدانى ويحيرنى..

فأغلب لوحاته لا أفهمها.. وعندما أعجب بلوحة معينة له، يتصادف
عادة أن تكون، فى رأى الفنانين، عملا تافها!..

ولكنى لا أستطيع أن أهز كتفى له وأقول: إذا كان لا يعجبنى فخلاص،
لا بد أنه كلام فارغ. ولا بد أنها حماقة أن أحاول فهم هذه الوجوه المشوهة
والألوان المخلطة والموضوعات الشاذة الغريبة!

لا أستطيع أن أهز له كتفى... لأننى أقول لنفسى دائما: مستحيل أن
يكون كل هؤلاء الناس.. والنقاد.. الذين يتجشمون كل هذا التعب..
مستحيل أن يكونوا كلهم حمقى أغبياء.. وأنت وحدك العاقل الذكى!

لا بد إذن أن فهمى لفن الرسم قاصر.. لا بد أن أحاول!

وفى المرة الأولى.. فى باريس.. اشتريت كل الكتالوجات التى كانت تباع فى
المعرض.. ودخلت مسلحا بها فى سيل من الشبان من ذوى اللهى المرسلة

والشابات من ذوات الثياب الغريبة... من المتعبدين في محراب الفن. ووقفت مثلهم بالساعات أمام هذه اللوحة أو تلك.. وجلست إذا وجدت مقعدا، أمام لوحة.. بين آخرين جالسين.. يحدقون في الصورة ساعات، لا يتحركون ! لم تكن النتيجة مشجعة كثيرا!..

وفي لندن تكرر نفسى الشيء... وأردت هذه المرة أن أستعين بكلمات الرسام نفسه.. وما أكثر ما ينشر عنه وينشر له في لندن بمناسبة المعرض! ماذا يقول بيكاسو؟..

يقول مثلا: « كل واحد يريد أن يفهم فن الرسم (صحيح !) . ولكن لماذا لا يحاول هؤلاء مثلا أن يفهموا تغريد الطيور؟. إن الناس يحبون الليل، والزهور. دون محاولة فهمها.. فلماذا يصرون على فهم الرسم بالذات؟ »..

عظيم لست وحدي إذن الذى لا يفهم ولكننا نحب الطيور والزهور لأنها تبعث فينا احساسا مباشرا بالجمال. وهذا لا ينطبق بالضبط على كثير من هذه اللوحات! إن بعضها لا أستطيع مثلا أن أعلقه في بيتى، لكى أرى فيه دائما، شكلا جميلا...

آه ولكن بيكاسو قال مرة «أتظنون الفنان مجرد إنسان غبى.. له عيون فقط إذا كان رساما، وله آذان إذا كان موسيقارا، وله عضلات إذا كان ملاكما؟!.. إن الفنان رجل سياسى. إن الصور أسلحة للدفاع أو للهجوم على الأعداء! إن الصور ليست للتعليق في البيوت! »..

كلام رائع! كدت أقتنع فعلا! فإذا كانت هناك صور للتعليق في البيوت، فلا يمكن أن تكون كل مهمة الفنان هى هذا. لابد أن يكون له رأى. وكفاح. وقضية ومعركة! وهذه لا يناسبها دائما أن توضع في البيت كما توضع لوحة تمثل بطيخة ودورق مياه!

ولكن .. هذه الأشكال الغريبة التى تعرضها لنا صور بيكاسو.. النساء اللائى لسن بنساء.. الوجوه المقصوفة والمحطمة والتى سار عليها وابور الزلط؟

يقول بيكاسو.. أحيانا ترون في إحدى لوحاتى أنفا محطما! لقد حطمته عمدا لكى أجعل الناس يتوقفون عنده ويروونه بدلا من مجرد المرور على

منظر أنف عادى جميل! وعندما يتوقفون عنده، ويتأملونه، يجدون أنه غير محطم إطلاقاً!!

ويقول: الحقيقة هي ما أفكر فيه لا ما أراه! الحقيقة أكثر من مجرد الشيء نفسه كما نراه. إن العصفور الأخضر قد يكون سلطة خضراء. وأخيرا يقول بيكاسو. عندما أرسم.. أغمض عيني، وأغنى! ما رأيك؟ هل ترى أنني بدأت أفهم؟.

في أقدم اللوحات، تلك التي ترجع إلى أكثر من أربعة آلاف سنة، كان الفنان المصري القديم يرسم حاكم مصر، في يده فأس، يضرب بها حافة النهر.. وكان اللقب الذي يحمله ويزهوه به هو لقب «حافر القنوات!» وبعد أربعة آلاف سنة.. نجد هذه الفأس يحل مكانها «زرار» كهربائي صغير، تضغط عليه اليوم اصبع جمال عبد الناصر، فينفجر الجبل، وتتمزق صورة الطبيعة التي تبلغ من العمر مئات الآلاف من السنين،

لتحل محلها صورة جديدة!

إن هذا النيل العظيم.. ليذكر في تاريخه منذ مئات الآلاف من السنين تغيرات قليلة حاسمة! انه يذكر يوم كان ينتهى «كنهر» عند بلاد النوبة. يوم كان البحر المالح تتلاطم أمواجه عند أسوان، ثم كيف أخذ النهر يحمل طينه سنة بعد سنة، ألف سنة بعد ألف سنة حتى أقام هذا الوادى الخصب، وطارد المياه المالحة حتى شاطئ الاسكندرية ودمياط ورشيد!

وإنه ليذكر، هذا النهر، يوم تحول مجراه.. منذ أربعة آلاف سنة.

من الملك

مينا

إلى المستر

واللاس!

أخبار اليوم.. في

٦٠/١/٩

وإنه ليرى — هذا النهر — اليوم، ليذكر بعد ألف سنة، هذا الانفجار الهائل.. يبدد صمت آلاف السنين، ويحول الصخر الذى سيتطاير دهشة وعجبا. يحوله إلى بحيرة. ونهيرات، وتوربينات!

لا أذكر من هو المؤلف أو المؤرخ الذى قال: إن نهر النيل يفقد حرارته بمجرد وصوله إلى النوبة! فهذا النهر الهائل الجبار، سليل الأمطار والبحيرات والجبال والمستنقعات.. والأب الذى أنجب التمساح والدرفيل.. والطاغية الذى يسكر أحيانا بخمر قوته فيعربد ويغرق ويفيض.. هذا المارد الجبار يفقد حرارته عند حدود الإقليم المصرى! فسكان هذا الوادى يتجمعون حول من قديم الزمان.. يقصون أطرافه ويهذبونه ويكبلونه بالجسور والسدود والسواقي.. فيتحول إلى خصب وخير.

جسد الوادى .. يختلج !!

إن النيل لا يفقد حرارته فى بلادنا. إن سكان هذا الوادى لم يسجنوه ويكبلوه ويذلوه! انهم على العكس قد أقبلوا عليه فى شغف.. يدرسون أطواره، ويفهمون تقلباته، ويسجلون ارتفاعه وانخفاضه! وفى سبيل حبهم له، تعلموا دراسة النجوم والأفلاك ليعرفوا مواعيده.. وابتكروا المقاييس ليفهموا مزاجه الصاعد الهابط! إنهم لم يقتلوا حرارته.. ولكنهم كانوا يقدمون المعرفة الإنسانية إلى ابن الطبيعة هذا، لكى يؤدى رسالته.

وإذا كانت أقدم حضارة فى الدنيا، وأقدم دولة عرفها البشر، قد قامت فى هذا الوادى.. فهذا النهر هو السبب! كان العالم المسكون كله قبائل موزعة.. ولكن هذا النهر هو الذى جعل القبائل التى تسكن الوادى تلتقى عنده، وتلتف حوله.. فالتفاهم مع النهر لا يمكن أن يتم فى بقعة واحدة.. إنما يتم بمحاولة فهمه من النوبة إلى شاطئ البحر.. وكان هذا اللقاء هو الذى ربطهم.. وهو الذى علم القبائل لأول مرة أن تلتقى فى وطن.. وفى دولة!

من يستطيع أن يتخلص من هذه الخواطر الموهلة فى القدم، وهو يرى أو يسمع اليوم هذا الحدث الفذ؟.. يرى الإصبع السمراء تلمس هذا الزر لمسة سحرية يتكهرب لها جسد الوادى بأكمله.. فيختلج من قمة رأسه إلى أخمص القدم.. يختلج بالأذرع التى تعمل، والفئوس التى تهوى، والآلات التى تدور!

وقد جاء هذا الحدث.. والنهر لا ينتمى إلى سكان هذا الوادى فحسب..

ولكنه ينتمى إلى أمة أكبر وأوسع هي الأمة العربية كلها، ف قوة هذا الوادى
قوة للعرب، وتجدد شبابه تجدد لشباب العرب.. والنيل لم يعد نهرا وحيدا
بنفسه.. ولكنه أصبح يرتبط بأخوة وأبناء عمومة.. بدجلة والفرات والأردن
والعاصى وغيرها.

انقلاب سياسى

ولكن السد العالى ليس حدثا علميا أو صنايعيا أو قوميا فحسب.. انه
أيضا حدث سياسى.. بل إنه أول حدث له مغزى ضخم فى حياة العالم، فى
هذا العصر الجديد الذى بدأ بسنة ١٩٦٠.

فالمعركة السياسية التى اقترنت بالسد العالى.. هى التى اكسبت السد
شهرته العالمية.. وهى التى جعلت له قيمة أكبر من عدد أطنان الصخر
الذى سيستخدم فيه وقداين الأرض التى سيرويه!

لقد ولد مشروع السد العالى، والحرب العالمية الباردة فى أوجها!
ولد المشروع عندما كان المعسكران الدوليان الكبيران ينظران إلى الحياد
الإيجابى وكأنه مخلوق غير طبيعى لا يمكن أن يعيش طويلا، ويجب ألا
يعيش طويلا.. وعندما كان الغرب بالذات لا يقبل من أى دولة مستقلة إلا
أن تنضوى تحت لوائه.. بالأحلاف أو القواعد العسكرية أو غيرها.. والدولة
التي لا تقبل التبعية السياسية والعسكرية والاقتصادية لا ينتظرها إلا
الجوع والاختناق.. وربما الاحتلال!

وبهذا المنطق سحب جون فوستر دالاس العرض الأمريكى لبناء السد،
بعد مفاوضات طويلة مضمّنة انتهت إلى القبول! وجلس دالاس ينتظر أن
يخر سكان الوادى راكعين!

ولكن جمال عبدالناصر، بإدراك هذا المغزى الخطير، لسحب السد
العالى، أعلن تأميم القناة! أعلن تمرد الدول الصغيرة على وضعها كأتباع!
وكان لابد أن يشن الكبار حملة تأديبية على هذا الثائر الذى بدأ يقلده
الآخرون! وتولى أنتونى أيدن هذه المهمة.. والباقى معروف! ففى هذا
الأسبوع ينشر أنتونى أيدن مذكراته ويعطى جمال عبدالناصر البدء فى بناء
السد! الأول ينشر الحساب الختامى لماضيه.. والثانى يفتح حسابا جديدا
للمستقبل!

ولم يكن الغرب يتصور أن رفضه المساهمة في تمويل السد العالي..
سيجعلنا نقبل عرض الاتحاد السوفيتي لإقامة السد!
إن العالم كله يتحدث اليوم عن تغير الجو السياسي العالمي، وعن
انتهاء سياسة خطر الحرب وحافة الحرب.. عن انتهاء سياسة الحصار
والمقاطعة وعدم التفاهم بين المعسكرين...
ومن يتعقب التطورات التي أدت إلى هذا التغير، يجد أن أكثرها بدأ من
معركة السويس.. التي كانت أيضا معركة السد العالي!
وعندما يذهب الإنسان إلى أصغر البلاد وأحدثها.. غينيا مثلا.. ويجد
البعثات والخيرات تأتي إليها من الشرق والغرب على السواء.. دون ضجة
ولا حرب ولا أزمات.. يذكر على الفور معركة السد العالي.. التي شقت هذا
الطريق، وقررت هذا المبدأ..
وعندما يسمع الإنسان كل أقطاب العالم يقولون إن عصر ١٩٦٠
سيكون عصر التنافس السلمي في البناء وفي مساعدة البلاد الناشئة.. يذكر
على الفور معركة السد العالي.. فهي قمة المخاض الذي سبق ولادة هذا
العصر.
ومن هنا كان تفجير جمال عبدالناصر لهذه التلال صباح اليوم.. طلقة
انتصار وأمل لألف مليون رجل وامرأة وطفل.

كتاب جديد

الجزء السادس عشر من تاريخ الراحل!

ظهر هذا الأسبوع الجزء السادس عشر من الكتاب العظيم الذي تتلمذنا
جميعا على صفحاته!
انه كتاب استغرق تأليفه أكثر من عشرين سنة.. ووصلت صفحاته
بهذا الجزء السادس عشر إلى ما يقرب من سبعة آلاف صفحة! أما
موضوعه فهو تاريخنا القومي منذ سنة ١٧٩٠.. أي أنه يؤرخ لفترة من
عمرنا طولها حوالي ١٧٠ سنة!
الكتاب هو تاريخ حركتنا القومية.. والمؤلف هو عبدالرحمن الراحل..
والجزء الأخير الذي ظهر هذا الأسبوع عن الفترة من يوليو ١٩٥٢ إلى آخر
سنة ١٩٥٩.

ولا يوجد في بلادنا شاب مثقف لم يقرأ مؤلفات عبدالرحمن الرافعي.. ولم يهتز وجدانه وهو يقرأ أجزاء هذا الكتاب تصدر على مر السنين.. عن ثورات القاهرة ضد نابليون.. وضد الأتراك.. وثورة عرابي.. وثورة ١٩١٩.. عن مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول.. عن دخول الانجليز وخروجهم مرة بعد مرة!

وقد عاش عبدالرحمن الرافعي حتى استطاع أن يؤرخ لثورتنا الحديثة المعاصرة، ثورة ٢٣ يوليو.. ولكي يختتم أسماء الأبطال في تاريخه باسم جمال عبدالناصر!.. ولاشك أن تاريخ هذه البلاد يعتز بمؤرخين وبتاريخين: تاريخ الجبرتي.. وتاريخ الرافعي!

وكتب الرافعي.. بما فيه هذا الكتاب الجديد.. ليست كتباً في فلسفة التاريخ، ولكنها كتب تاريخ قومي.. تعتمد إلى الموضوعية، ولكنه لا يقدم لنا موضوعية باردة، إنما يقدمها لنا مشتعلة بحاطفة وطنية صافية، لا تفتقدها في سطر واحد من سطور هذه السبعة آلاف صفحة!

إن الكتاب يؤرخ لك أحداث ثورة ٢٣ يوليو.. منذ ليلة انفجار الثورة إلى يومنا هذا!

إن الخط ب والأحداث والحروب والمؤامرات والأسماء التي تتردد في هذا الكتاب، كلها معروفة لأبناء هذا الجيل.. لأنهم عاشوها، ولكن اجتماع كل هذه الأحداث في كتاب واحد، مكتوب بروح موضوعية وقومية، يجعل القارئ يشعر بهزة جديدة إزاء هذه الأحداث.. ويكتشف لها مغزى جديداً. إننا عادة نعيش الأحداث المعاصرة لنا «بالقطايع».. وكثيراً ما ننسى الربط بينها واستخلاص مغزاها.. والكتاب يكمل لنا هذا النقص..

فعندما يقرأ الإنسان المؤامرات التي قدمت إلى المحاكمات. واتصال بعض الهيئات والأحزاب بالانجليز.. وتوالي هجمات إسرائيل على العوجة، والصباحة وغيرهما وعقد حلف بغداد، ومحاولة عزل مصر والانجليز مازالوا فيها.. عندما يقرأ الإنسان هذه الأحداث مسلسلة محبوكة يكتشف أن بينها أكثر من صلة.

وإن الأمر ليس مجرد مصادفات.. ولكنها مخاطر اجتازتها الثورة، مخاطر ذات مغزى واحد وهدف واحد وتعبير عن مصالح متشابكة

متساندة.. مصالح عصر كان يموت وينقضى.. عصر كامل بكل تقاليده وأخلاقياته، وعلاقاته وأمواله وخفائيه!

ولا تمر صفحات الا ويقف الرافعى وقفة التعليق وإبداء الملاحظات الذكية.. فهو يلاحظ مثلا أن فاروق هو أول ملك من أسرة محمد على يعزله الشعب.. في حين أن اسماعيل وعباس عزلتهما الدول الأجنبية..

وهو يتحدث عن أزمة مارس سنة ١٩٥٤ فيقول في قوة: إن قيادة الثورة لو تخلت في تلك الأزمة عن مسئولياتها وتركت الأمور للأحزاب القديمة والقيادة الانتهازيين والعناصر الرجعية والاقطاعية، لانهارت الثورة ودفنت! ثم يعقد مقارنة بين ما حدث في إيران وما كان يمكن أن يحدث في مصر، ففي إيران أدى التخاذل إلى سقوط مصدق واندثار حركة تأميم البترول بل ومحاكمة البطلين مصدق وحسين فاطمي وسجن الأول وإعدام الثاني «وعادت الأمور في إيران إلى سيرتها الأولى من الخضوع للرجعية والاستعمار».

ويؤكد الرافعى « إن قادة الثورات مسئولون مسئولية كاملة عن الحكم حتى تتحقق أهداف الثورة .. أما ترك الأمور لفوضى الانتخابات وقتئذ وما كان يتخللها من تضليل ومفاسد وشراء للذمم والأصوات ومؤامرات استعمارية من الخارج تبذل فيها الأموال عن سعة، فهو تخل عن مهمة الثورة .. ولو تراجعت ثورة ٢٣ يوليو أمام أحداث مارس سنة ١٩٥٤ لعادت البلاد سيرتها الأولى من الفوضى والانقسام، ولضعفت الجبهة الداخلية أمام الاستعمار . ولكن تماسك الثورة وتغلبها على العناصر الرجعية مكنها من أن تحقق أهدافها دون أن تطعن من الخلف .. وبذلك أمكنها أن تحقق الجلاء، وتنهج سياسة الحياد، ثم تؤمم قناة السويس، هذا العمل القوي الذي كان يستحيل أن يتقرر وينجح في عهد حكومة رجعية، ولو وجدت هذه الثورة المتماسكة في مصر سنة ١٨٨٢ لما احتل الانجليز مصر، ولو وجدت مثلها في إيران حين أمم مصدق البترول لنجح التأميم » .

وينتهي الكتاب بالحادث الضخم الفذ .. وهو مولد الجمهورية العربية المتحدة وبزوغ القومية العربية كعقيدة وهدف .

الكتاب الذى فى ىدى ، ىستحق أن
ىقرأه كل عربى! واننى لأتمنى أن
تتوفر إحدى جامعاتنا أو هيئاتنا على
نقله إلى اللغة العربية أو أن يتبرع أحد
الأغنياء بألف جنيهه مثلاً لترجمة
وطبع هذا الكتاب الضخم الذى يهم
كل حكومة عربية .. وكل مواطن
عربى .. وكل هيئة علمية عربية ..
فإنه من المحزن حقاً أن يوجد مثل
هذا المرجع فى اللغة الانجليزية
ولا يوجد فى اللغة العربية!

إننى أقراءه بمناسبة عودة
العلاقات السياسية بين انجلترا والجمهورية العربية
المتحدة ..! فالكتاب عبارة عن النص الكامل لكل
المعاهدات والوثائق والتصريحات الرسمية .. السرية
والعلنية .. التى تمس الشرق الأوسط ..

منذ سنة ١٥٣٥ إلى سنة ١٩٥٦ .. أى خلال
٤٢١ سنة كاملة .. هى كل تاريخنا مع الاستعمار ،
الظاهر والخفى . الضعيف والقوى !

إن عدد الوثائق التى فى هذا الكتاب - وهو يقع فى
جزئين من حوالى ٧٠٠ صفحة - عبارة عن ٢٢٨
وثيقة .. ابتداء من الوثائق التى تعطى انجلترا حق
استغلال قطر عربى استغلالاً مؤبداً ، أو بلغة

من

الأرشيف

السرى

السفارة

البريطانية

أخبار اليوم .. فى

٥ / ١٢ / ٥٩

الوثائق القديمة «حتى يفنى التراب ، ويشيب الغراب!».. إلى وثائق المأسوف على شبابه حلف بغداد في سنة ١٩٥٦.

إن قراءة هذه الوثائق ، طريقة لذيذة حقا لمطالعة التاريخ ! إنها خير طريقة للجلوس في مدرسة هذا التاريخ العجيب !

والوثائق تضم كل ما صدر عن القوى الأجنبية والمحلية .. ولكنني وقفت بالذات عند الوثائق التي تتصل بسياسة الانجليز.

ولا مجال هنا طبعاً - في مناسبة عودة العلاقات السياسية ، والأزمات التي بدأت انجلترا تفتعلها - لاستعراض كل هذا التاريخ .. ولكن لا بأس من وقفات سريعة عند بعض هذه المواقف «الطريفة» !

في حلب بدأت القصة !

إن أول امتياز - مثلاً - حصل عليه الانجليز .. صدر من حلب ! انجليزى واحد.. اسمه انطونى جنكنسون .. ذهب إلى حلب سنة ١٥٥٣ حيث كان السلطان سليمان الأول ، الخليفة التركى ، يستعد لغزو إيران .. وهناك ، حصل الانجليزى جنكنسون على أول وثيقة تعطى الانجليز أول امتياز في الشرق الأوسط : أمر من السلطان إلى رجاله «في القسطنطينية» وفي الاسكندرية ، وفي طرابلس (لبنان) كما تقول مقدمة الوثيقة .. وإلى سائر رجاله في كل أنحاء الامبراطورية التركية أن يسمحوا للانجليزى جنكنسون ووكلائه بالتجارة ونقل البضائع خلال هذه المنطقة كلها ! وتبقى ملاحظتان طريفتان حول هذه الوثيقة :

الأولى .. إن الفرنسيين كانوا قد سبقوا الانجليز .. لذلك فقد سمح للتاجر الانجليزى بأن يزاوّل نشاطه في سفن انجليزية .. بشرط أن ترفع راية فرنسا !

والثانية .. أن جنكنسون هذا كان يمثل شركة تجارة كبيرة اسمها «الشركة الموسكوفية» .. إذ كان شركاؤه فيها تجارا من روسيا القيصرية ! وكانت الشركة تنقل تجارتها بين أوروبا والشرق الأقصى عبر روسيا ، ثم حصلت على هذه الوثيقة لكي تنقل تجارتها عبر الشرق الأوسط ، لأنه الطريق الأقصر.

ونحن نعرف بعد ذلك .. كيف استطاعت انجلترا ، سنة بعد سنة أن

تتخلص من روسيا القيصرية ، وان تجعل مصالح فرنسا - أحيانا - ترفع راية إنجلترا !

ونقفز ٣٠٠ سنة ثلاثمائة سنة لم تضيعها إنجلترا عبثا.. إنما مضت تنسج فيها سلسلة عجيبة من «المعاهدات» ، مع مناطق صحراوية نائية لم يفكر فيها أحد مطلقا في ذلك الوقت .. عدن .. مسقط .. عمان .. البحرين!.. كان كل همها من هذه «المعاهدات» أن تضمن تموين بواخرها دون بواخر منافسيها ، وأن تحمي المحيط الذي يحمل سفنها إلى الهند!.. ولم تكن تعرف أن هذه الأرض ستنفجر بعد مئات السنين بماء الحياة ، بالبتروول!..

نقفز هذه الـ ٣٠٠ رغم انها خطيرة حافلة - لنجد وثيقة ممتعة حقا .. هي المناقشة البرلمانية التي دارت يوم ٢١ فبراير سنة ١٨٧٦ في مجلس العموم البريطانى بين رئيس الوزراء «دزرائيلى» وزعيم المعارضة جلاستون.. حول قناة السويس ! تماما كالمناقشات التي تدور الآن أحيانا بين المحافظين والعمال.

كان دزرائيلى قد عقد صفقة خطيرة ، اشترى فيها أسهم مصر في شركة قناة السويس ، وكان جلاستون زعيم المعارضة يهاجم الصفقة قائلا : انك اشتريت الأسهم ، ولكن السلطة ليست لك (لأنها كانت للفرنسيين).. ولكن اليهودى الاريب رئيس حزب المحافظين ، دزرائيلى ، يقول «ان مصر أهميتها مقبلة!».. ويتدفق في حديث ذكى عن افريقيا .. والقناة .. ومواصلات الامبراطورية.. ومغزى امتلاك هذه الأسهم!.. كأنى به واقف يعلم أعضاء البرلمان الانجليزى فن الاستعمار وهو يقول بالنص : «إذا امتلكت رأس المال فلا بد أن نفوذك سيكون كبيرا ، مهما كانت القوانين والقيود الموضوعة ! ان الرأسمالى سيعرف دائما كيف يمارس سطوته!!».

التعليمات السرية !

على أن أطرف وثيقة في هذه السلسلة كلها .. هي تلك الرسالة السرية ، التي كتبها وزير خارجية إنجلترا سنة ١٨٧٦ لورد سالسبورى ، إلى قنصل إنجلترا الذى عين لأول مرة في مصر .. سير إدوارد ماليت .. انه يشرح له فيها خطوط سياسة إنجلترا في مصر قبل احتلالها بست سنوات!..

إن أول ما يطلبه وزير خارجية إنجلترا من ممثله في مصر هو : ألا يجعل أى دولة كبيرة أخرى تتمتع في مصر بنفوذ أقوى من نفوذ إنجلترا .. ثم يقول له : «إن هذا الوضع يمكن تحقيقه طبعاً بأن تأتى قوات صاحبة الجلالة وتحتل مصر.. ولكن لا بأس من البدء بتجربة وسائل أخرى!».

وهو يبرر عدم رغبة إنجلترا في اللجوء إلى احتلال مصر بحجة وجيهة : أن الدول الكبرى كلها تنظر إلى مصر.. ولو تدخلت إنجلترا فقد يتدخل معها الجميع.. وإنجلترا تفضل ألا يتدخل أحد !

وهو لذلك — كما يقول — بفضل بقاء الحكم الوطنى . ولكنه ينصح بأن يدخل فى الحكم الوطنى عدد كبير من الموظفين الانجليز.. بشرط أن يبقوا فى الظل.. فلا يظهروا كثيراً.. حتى يبقى الناس متوهمين أن الحكم وطنى !.. «المهم هو السلطة الحقيقية التى يمارسها الموظف الأجنبى ، وليس اللقب أو الرتبة. أبحث للموظف الانجليزى عن المكان الذى يحقق له النفوذ، ولا يؤثر الحسد !!

دور العملاء

لم يتحدث الوزير فى تعليماته السرية عن الموظفين والسياسة المحليين.. فيقول انه « فى كل البلاد الشرقية، حيث توجد سفارات اجنبية قوية، نجد أن الاشخاص المحليين المتنافسين على المناصب يكونون عادة مستعدين لان يكونوا عملاء لهذه القوة أو تلك. ولكن عيب هؤلاء ان ولاءهم غير مضمون. فلا يجب الاعتماد عليهم تماماً.. ولا اهمالهم تماماً !» .

وبعد ذلك يتحدث الوزير عن احتمال انهيار الدولة فى مصر.. فيقول انه يلاحظ أن هناك بوادر انهيار شامل فى كل البلاد «المحمدية»، أى الشرق الأوسط الخاضع للإمبراطورية التركية. وهو لذلك يكرر أهمية وجود موظفين انجليز أو موالين فى الأماكن الحساسة ، حتى إذا حدث الانهيار، استطاع الانجليز أن يستفيدوا من ذلك.. قبل أن تستفيد أى دولة أجنبية أخرى !

عجبا ! كأننى به يتحدث عن العراق الآن !!

بل يذهب الوزير فى تعليماته إلى حد الاستعداد لكل الاحتمالات، حتى احتمال اشتداد الصراع على مصر إلى درجة تقسيمها إلى اجزاء منفصلة،

فينبه قنصله إلى أن الجزء الذى يهم انجلترا الاحتفاظ به فى هذه الحالة هو :
«السواحل وطرق المواصلات بين البحر الأبيض والبحر الأحمر.. ولا مانع
بعد ذلك من أن تستولى على الاجزاء الداخلية أى قوة أخرى !!» .
تلك هى سياسة انجلترا فى عصر الاستعمار: تسلل بطيء.. أصدقاء فى
الظاهر وأصدقاء أخطر منهم فى الخفاء .. اهتمام بالنفوذ الحقيقى
لا بمظاهره.. استعداد دائم لكل الاحتمالات ..

مأدبة !

ولا يملك الانسان إلا أن يهز رأسه عجباً وهو يقرأ وثيقة أخرى.. هى
المحضر السرى لاجتماع عقد فى باريس يوم ٢٠ مارس ١٩١٩ بين لويد
جورج رئيس وزراء انجلترا وكليمنصو رئيس وزراء فرنسا.. للاتفاق على
تقسيم نهائى لمنطقة الشرق الأدنى ! لا يكاد الانسان يصدق عينيه وهو
يقرأ حوارهما !.. كيف يتحدثان عمن يأخذ حلب والموصل ومن يأخذ
دمشق وحمص.. وغيرها !.. كأنهما يتحدثان عن اقتسام كعكة صغيرة أو
شئ خاص بهما!.. وببساطة شديدة.. بكلمة من هذا أو ذاك.. فى غرفة
هادئة بباريس. تتحرك مدينة عربية كحلب أو الموصل بين هذه اليد وتلك !..
وغير ذلك كثير.. وعجيب.. وأليم !

وليس عجباً - أثناء قراءة هذه الوثائق - من متابعة تغير معانى
الكلمات.. وكيف تكون الكلمة الواحدة كالحرباء لها ألف لون !.. كيف
يتحول «الخبير» إلى «حاكم».. كيف تتحول «التجارة» إلى «استغلال»، و
«الدفاع»، إلى «احتلال» !..

وها نحن فى سنة ١٩٥٩ .. وها هو ممثل سياسى انجليزى اسمه كولين
كرو.. يأتى إلينا بعد انقطاع.. مزوداً بتعليمات من وزير خارجيته، سلوين
لويد !..

ماذا فى هذه التعليمات يا ترى ؟..

أغلب الظن انها تختلف كثيراً عن التعليمات التى تلقاها القنصل ادوارد
ماليت من وزير الخارجية لورد سالسيورى ، منذ تسعين سنة !..
ولكن السؤال هو : هل ياترى تختلف.. بما فيه الكفاية يا ترى
سيستغنى الانجليز حقاً، عن أى دروس جديدة ؟

ان الازمة التي افتعلوها منذ يومين حول متحف مورهاوس لا تبشر بخير!
على أى حال.. ليس المهم هو سياستهم. أن المهم هو سياستنا! سياستنا
التي اصبحت رمزا للاستقلال والكرامة الوطنية في جميع انحاء العالم!..
لقد كان تولستوى يقول: ان الشعب الذى يلوم دولة أخرى لانها
تستعمره.. كالسكير الذى يلوم أصحاب الخمارات لانهم يبيعون الخمر!!
انه هو الذى يستطيع أن يمتنع عن شرب الخمر.. وبذلك يغلق الخمارات!..
ولا شك أن سياستنا اغلقت عددا هائلا من الخمارات في الشرق
العربى.. وسوف تغلق الباقي!!

السفر إلى القدر

الأقمار الروسية بدأ صنعها سنة ١٩٢٤!!

أعتقد أن هذه القصة جديدة بالقراءة والتأمل!
فلأول مرة، نشرت الصحافة الروسية جانبا من قصة اختراع
الصواريخ والأقمار التي بهرت العالم في السنتين الاخيرتين.. وقد ظهر
منها أن هذا العمل العلمى الصامت قد بدأ منذ سنة ١٩٢٤ «
ففى سنة ١٩٢٤ أنشأت الحكومة الروسية «معهد الدراسات العليا
للاتصال بين الكواكب»..
وفى سنة ١٩٢٨ أسست الحكومة، فى مبنى قلعة «بيتر وبرل» القديمة
ولنينجراد، أول معمل للمواد الكيميائية، التي تستخدم فى وقود
الصواريخ..
وفى سنة ١٩٣١، أنشأت الحكومة أكثر من مركز دراسى للصواريخ فى
أنحاء متفرقة، بدأت باجراء بعض التجارب بالفعل، ثم تم تجميع المراكز
فى مركز واحد كبير فى موسكو..
وقد سردت مجلة «زناميا» الروسية، التي نشرت هذه المعلومات..
أسماء عدد كبير من العلماء الذين كان لهم الفضل فى تجارب الصواريخ
الأولى، والمحركات النفاثة، والصواريخ ذات المرحلتين.. ومنهم علماء
ماتوا فى سنة ١٩٣٠ وسنة ١٩٣٣.. ومنهم علماء مازالوا يمارسون
نشاطهم إلى الآن..
وقالت الجريدة إن العالم «ميركولوف» سجل نصرين علميين هامين فى

صنع الأقمار والصواريخ سنة ١٩٤٥ ، وانه قام بأول تجربة للصواريخ ذات المرحلتين في مايو سنة ١٩٣٩!.. وهذا العالم هو الرئيس الحالي لمجلس الأبحاث الصاروخية في روسيا!..
ما هو مغزى هذه المعلومات؟
المغزى الأول ، هو أن روسيا بدأت هذه الأبحاث العلمية المتقدمة ، منذ سنة ١٩٢٤ .. أى في نفس سنوات فقرها .. في السنوات التي كانت تبحث فيها عن لقمة العيش الجافة لسكانها.. وهذا إيمان عظيم بالعلم وبالبحث العلمى .. وبأنه هو المستقبل!
والمغزى الثانى ، هو الصمت الطويل ، وعدم التسرع بالدعاية حول هذه الدراسات العلمية الهامة.

قال اديناور : إن اليهود هم أول من يعرفون عواطفى نحوهم! لقد أفلست أسرتى خلال حكم هتلر وكان اثنان من اليهود هما اللذين مدا يد المساعدة لنا! إننى عقدت اتفاقية التعويضات الألمانية مع اسرائيل كي أعلن للعالم أن الألمان لم يعودوا يكرهون اليهود!

وقد سئل اديناور كيف سيقاوم موجة النازية الجديدة فقال: علاجها في يد الناس! إذا رأيت شخصا يرسم شارة النازية فاضربوه! اضربوه «علقة» تجعله يتوب! لقد وضعتنى النازية على قائمة الإعدام ثلاث مرات ولكننى نجوت بمعجزة! لكن المسألة ليست بهذه البساطة!

إن اسرائيل تستغل هذه الظاهرة لحسابها. وقد قبض في نيويورك على شاب يرسم شارة الصليب المعقوف وإذا به طالب يهودى! فإذا كان بعض النازيين قد رسموها حقاً في ألمانيا.. فعملاء الصهيونية ينشرونها في كل مكان.. لأسباب سياسية كثيرة...

وبريطانيا تستغلها ضد اديناور لأنها تختلف معه حول سياسته في السوق الأوروبية المشتركة وفي مشكلة برلين..

حكاية

اضطهاد

اليهود

والنازية

الجديدة

أخبار اليوم .. في

٦٠ / ١ / ٢٢

واليمينيون يتهمون الشيوعيين بافتعالها لكي يسيئوا إلى سمعة ألمانيا الغربية. والشيوعيون يتهمون اليمين بأنهم يشجعون الحركات النازية الجديدة الخطيرة.

فما هي الحقيقة؟..

وأين نحن من هذه الحقيقة؟ مادام كل ما يتصل باليهود وباسرائيل له انعكاس علينا من قريب أو بعيد؟

وما علاقة هذا كله باليهود.. واليهودية.. واسرائيل؟

قتل المسيح !!

إن كراهية اليهود، في العالم المسيحي قديمة، في حين لم تكن هناك كراهية قديمة بين اليهود والمسلمين، ولا بين اليهود والعرب، لأن العرب أغلبهم مسلمون.

وسبب كراهية العالم المسيحي الغربي لليهود .. يرجع إلى الدين، فاليهود هم الذين قاوموا المسيح واضطهدوه وتآمروا عليه. وفي التاريخ المسيحي أن اليهود هم الذين قتلوه وصلبوه! وهذه قصة يقرأها كل تلميذ مسيحي في كل مكان من العالم خصوصا إذا كان كاثوليكية وتستطيع أن تحس هذا بوضوح في روما بلد البابا.. وعاصمة الكاثوليكية! وتستطيع أن تحسه بوضوح أكثر إذا علمت بالجهود الجبارة التي تبذلها اسرائيل لكي تجعل الفاتيكان يعترف بها!

والمؤرخ اليهودي الفرنسي جول إيزاك يقول: إنه من المؤلف إذا طلب طفل يهودي في المدرسة من طفل مسيحي أن يلعب معه أن يزد عليه الطفل المسيحي قائلا: كلا لأنكم قتلتم المسيح!

وقد روى لي شاب إيطالي أنه كان يسكن وهو طفل مع أهله في عمارة كبيرة في روما.. وفي الدور الأول من العمارة كانت تسكن أسرة يهودية.. فكان أهله يقولون له: «إياك أن تعرف سكان الدور الأول اليهود أو تدخل شقتهم.. والا خطفوك وذبحوك كما فعلوا بالمسيح! وأنه عاش سنوات يسرع في صعود السلم عندما يعبر الدور الذي تسكنه الأسرة اليهودية!

وبصرف النظر عن الأسباب التاريخية أو الاجتماعية. فمن المؤكد أن اليهود، على مر الزمن، أصبحوا مجتمعا عنصريا مغلقا على نفسه يقف

موقف العزلة، وأحيانا العداء، مع شعور بالتفوق. إزاء سائر أجناس الأرض وشعوبها..

وهذه النزعة العنصرية، تبلورت في شكل سياسى عنصرى سافر بظهور الحركة الصهيونية..

إن الحركة الصهيونية لا تؤمن بأن الناس كلهم سواء. وبأن كل إنسان ينتمى إلى الشعب الذى ولد فيه ويعيش فيه. إنما تؤمن بأن هناك صفات خاصة تجمع بين اليهودية كعنصر واحد من دم واحد وعرق واحد وأصل واحد وأن الرابطة بين اليهود أسمى من رابطة الوطن أو أى رابطة أخرى.. ولذلك فهى تدعو إلى إقامة وطن قومى يكون سكانه يهودا وشعبه يهودا وجنسيته اسرائيلية!.. ومعنى ذلك أيضا أن اليهودى فى ألمانيا أو فرنسا أو أمريكا يشعر بولائه الأول لدولة اسرائيل. وليس لألمانيا أو فرنسا أو أمريكا!

ولا يجب أن ننسى أن الحركة الصهيونية ولدت فى أوروبا ولم تولد فى البلاد العربية. انها وجدت فى أوروبا بالولادة.. ولكنها وجدت فى الوطن العربى بالغزو الخارجى والهجرة والسبب هو أن كراهية اليهود لم تكن موجودة بين العرب.. فلم تنجم عندنا حركة صهيونية متعصبة، كما نجمت فى أوروبا.. ولكنها جاءت بالهجرة والغزو مع اليهود الذين عاشوا فى أوروبا وتربت عندهم عقدة العداء والكراهية والتعصب العنصرى هناك.. وبن جوريون وموشى ديان وكل أقطاب اسرائيل ليسوا من أبناء فلسطين ولكنهم مهاجرون من روسيا وبولندا وألمانيا وغيرها! إنما ولدت كراهية الصهيونية عندنا من حضورها إلى بلادنا واغتصابها فلسطين لاقامتها وطن عنصرى على أشلاء شعب عربى!

ومن الأشياء الطبيعية والمنطقية أن ظهور حركة عنصرية لابد أن يؤدى إلى اصطدامها بحركات عنصرية أخرى. لماذا كان هناك شعب يزعم أنه أرقى الشعوب وأنقاها.. فمن البديهي أن يصطدم مع أى شعب آخر يقول أنه أرقى الشعوب وأنقاها!

ومن هنا.. كان اصطدام اليهود بالحركة العنصرية الألمانية، أى النازية أمرا طبيعيا بل وحتميا!..

إن النازية كانت تقوم على أساس أن الألمان عنصر ممتاز خلق لكي يسود ويقود سائر الشعوب والأجناس. والألماني بناء على هذه الفكرة يجب أن يكون من سلالة ألمانية طاهرة لم تلوث بأى عنصر آخر. ولذلك كان أعضاء فرق الشباب الهتلري مثلاً.. إذا أراد واحد منهم أن يتزوج، فيجب أن يحصل على موافقة الحزب على زواجه. وكان الحزب يتحرى عن الزوجة ويتعقب أجدادها وسلالتها لكي يتأكد من أنها من سلالة ألمانية سليمة قبل أن يوافق على أن تتزوج أحد أعضاء فرق الشباب الهتلري! واليوم.. نرى إسرائيل تقرر أن الاسرائيلي يجب أن تكون أمه اسرائيلية. وأم أمه اسرائيلية.. لكي يثبت أن دمه يهودى خالص!

الاصطدام

هذه هي الصهيونية .. وهذه هي النازية! دعوتان تقومان على نفس الأساس.. لذلك فهما تتصارعان وتتبادلان أبشع العداة!

والتاريخ يقول: إن الصهيونية ظهرت قبل ظهور النازية! وإذا كان النازيون قد ذبحوا اليهود وليس اليهود هم الذين ذبحوا النازيين.. فهذا لا يرجع إلى أن الصهيونيين طيبون والنازيين رديئون.. ولكن يرجع إلى أن النازيين الألمان كانوا أقوى وأكثر من اليهود ولو تصورنا أن وضع القوة كان عكسيا لقام الصهيونيون بنفس المذابح ضد النازيين.. هل هذا دفاع عن النازية؟

كلا بالطبع. فالنازية صفحة سوداء في تاريخ الفكر العالمى والحضارات العالمية. ولكن الصهيونية أيضا صفحة سوداء وكل منهما تستند إلى نفس المنطق والفلسفة العنصرية المقيتة التى يجب محوها من الأرض. وهذه نقطة هامة جداً علينا أن نوضحها لأنفسنا وللعالم جيداً.. حتى لا تحاول إسرائيل الاستفادة من سخط العالم على النازية وعدائه لها! وحتى لا تبدو أمام العالم كأنها نقيض النازية وعكسها.. والواقع أنها تقاثلها لأنها شبيهتها ومنافستها!!

وليس معنى هذا أن النازية ظهرت نتيجة لظهور الصهيونية والتعصب اليهودى العنصرى. ولكن النازية عندما وجدت وظهرت.. كان

طبيعيا أن تصطدم باليهود.. للأسباب التي سلف ذكرها.. ولكن ظهور النازية يرجع إلى أسباب كثيرة، بعضها خاص بألمانيا نفسها، وبعضها الآخر خاص بتطورات المجتمع العالمى بوجه عام.. فالألمان - باستثناء روسيا التي ظلت أوروبا تعتبرها دولة آسيوية إلى عهد قريب - وجدوا أنهم أكبر شعب في القارة الأوروبية كلها.. وهو شعب غنى ونشط منتج، قوى، ميال للانتظام.. ومع ذلك فقد تأخرت نهضة ألمانيا السياسية زمنا طويلا، بحكم تمزقها إلى ولايات كثيرة، وبحكم تحالف سائر دول أوروبا على منع وحدة ألمانيا خوفا منها. فبريطانيا والنمسا وفرنسا وروسيا تحالفت طويلا لمنع وحدة الدوليات الألمانية في دولة واحدة. وكل هذا من شأنه أن يخلق حركة قومية متعصبة كرد فعل، وقد حققت ألمانيا وحدتها فعلا بالحرب على يد «بسمارك» حاربت امبراطورية النمسا ثم امبراطورية فرنسا قبل أن تحقق وحدتها كشعب، فظلت هذه الروح كامنة في نفوس كل هذه الأطراف زمنا طويلا.

يضاف إلى ذلك أن الثورة الصناعية عندما اكتملت في ألمانيا وأصبحت قوية قوة هائلة.. وجدت أن بلادا أخرى قد سبقتها في مجال التطور الطبيعى للرأسمالية في ذلك العصر، وهو الاستعمار.. فبينما كانت بريطانيا وفرنسا وروسيا وهولندا وبلجيكا تفرح في مستعمرات شاسعة، كانت ألمانيا محرومة الا من القليل، فلهذا تفاقم العداء بينها وبين هذه الدول وانفجر هذا العداء في الحرب العالمية الأولى.

والإذلال الذى أنزله الحلفاء بألمانيا بعد الحرب الأولى، هو الذى أعطى شهادة الميلاد لحركة عنصرية أقوى وأعتى، إذ ظهر هتلر على مسرح السياسة الألمانية برسالة أساسية هي استعادة الأراضى المفقودة من ألمانيا.. ثم ما تلا ذلك من نشر دعوة التفوق الألمانى ونقاء العنصر الألمانى والديكتاتورية السوداء التى ذبحت من الألمان أنفسهم مثلما ذبحت من سائر بلاد أوروبا.

جعل الوطن كبيرا.. والمواطنين صغارا!

لقد قال المؤرخون عن «بسمارك» الذى حقق وحدة ألمانيا: أنه جعل ألمانيا كبيرة.. والألمان صغارا!

وبنفس المنطق يمكن أن نقول عن هتلر والنازية: انه جعل ألمانيا مخيفة.. ولكنه جعل الألمان خائفين!!
وقد اندثر هتلر..

فما الذى بعث النازية اليوم؟..

عندما كنت فى فرانكفورت - المدينة الألمانية الوحيدة التى زرتها - كانت المكتبات وكانت أكشاك الصحف مليئة بالكتب التى تهاجم النازية واليهودية وتصور فظائعها وجرائمها! لا توجد واجهة مكتبة أو كشك صحف تخلو من كتاب عليه رسم جماجم وخرايب ونيران وفوقها عنوان عن النازية أو اليهودية!

ومع ذلك فالمراقبون الأجانب يقولون أن النازية تبعث فى ألمانيا الغربية اليوم

إن ألمانيا الغربية تنتشر فيها جمعيات ومنظمات للشباب وللطلبة.. منظمات تظهر عليها بواصر النازية.. فأعضاؤها يلبسون الأحذية الطويلة وقمصانا عسكرية وأحيانا خناجر كخناجر الكشافة! والألماني يقبل بطبيعته على من ينظمه فى طوابير واستعراضات وفرق ترقع الرايات وتلبس الخوذات وبعض هذه الجمعيات تنظم مواكب بالمشاعل على الطريقة النازية! وفى حانات البيرة ظهر من يسكر فيصيح: « عاش هتلر » ولو حكم عليه بالحبس سنة!..

وبعض هذه المنظمات يحمل أسماء قادة الحرب الأخيرة من الجانب الألماني مثل «جودريمان» و«دونيترز».. ومنذ بضعة شهور فوجيء الناس برجال وشباب يملأون بعض الحانات يغنون ويشربون ويتبادلون التحية.. ثم ظهر أن اليوم هو ٢٠ ابريل.. عيد ميلاد هتلر!!

وبعض زعماء هذه المنظمات بدأوا يصبحون فى مصاف الزعماء البارزين الذين لهم أتباع وعابدون! كل واحد منهم يرشح نفسه لأن يكون هتلر آخر.. ولأن يكون نجما عالميا خلال سنوات قليلة مثل: جنترهيلز وألفريد زيتزمان.. وبيتر برتناو وكل منهم كان من أعضاء فرق العاصفة الهتلرية القديمة!.. وفى نفس الوقت تقول التقارير الألمانية أن بين كل عشرة مدرسين يوجد ثلاثة على الأقل يؤمنون بالنازية لأنهم من تلاميذها

القدامى.. ودروسهم للصبيان والشبان مشحونة بالدعاية الظاهرة والخفية للنازية وهتلر..

فكيف يعتنق عدد كبير من شباب ألمانيا مثل هذه الفكرة النازية العنصرية المتعفنة، رغم الدعاية المركزة ضدها؟

هل الشعب .. كله مجرم !

ربما بسبب هذه الدعاية المركزة ذاتها..

فبعد الحرب الأخيرة، وقف كل الحلفاء من الشعب الألماني موقف الأساتذة الذين يريدون تأديب الشعب الألماني وتهذيبه. وكان هناك اتجاهان، اتجاه يحاول تصوير المأساة كلها لألمانيا على أنها جريمة حزب معين وزعيم معين هو الذى جر شعب ألمانيا إلى هذا الموقف. واتجاه آخر يحاول أن يجعل الجريمة جريمة الشعب الألماني كله.

ولا يوجد شعب على وجه الأرض يمكن أن يقبل فكرة دمغه - كشعب - بالاجرام، ولو فترة قصيرة جدا من حياته!.. وهذا الأسلوب لا يؤدي إلا إلى الاستفزاز، واستثارة كوامن الكبرياء خصوصا في شعب متقدم ممتاز فخور كالشعب الألماني.. لا يمكن أن يقبل طويلا أن يقف بين الآخرين موقف المذنب الخاطيء الذى يجب أن يؤكد توبته كل يوم.

ونجد أن صحافة بريطانيا عادت تتجه هذا الاتجاه، أى اتجاه إدانة الشعب الألماني كله، لأن بريطانيا مختلفة مع ألمانيا اختلافا شديدا في الاتجاه السياسى والاتجاه الاقتصادى في أوروبا... فسياسة ألمانيا تحول دون إلغاء خطر الحرب بالتفاهم مع روسيا في أوروبا وألمانيا عن حجر الأساس في السوق الأوروبية المشتركة التى تهدد بطرد الاقتصاد الانجليزى من القارة الأوروبية!

وقد أشارت الصحف الانجليزية من جديد إلى قصة معهد الوثائق الأمريكى الذى يشغل بيتا في ضواحي برلين. ان هذا القصر فيه كل أوراق وأرشيف الحزب النازى، وقد سقطت في يد الجيش الأمريكى قبل أن تحرق.. وهذه الوثائق تضم أسماء عشرة ملايين ألماني وألمانية كانوا أعضاء في الحزب النازى. وتضم كل أوراق المحاكمات الجائرة التى أعدم فيها ٦٤ ألف مواطن خلال حكم هتلر! وهذه الوثائق توضع عليها حراسة

مسلحة قوية، ولا يسمح لأى مخلوق بالاطلاع عليها إلا بإذن من حكومة أمريكا أو من حكومة ألمانيا!

إن الصحف الانجليزية تطالب بنشر هذه الوثائق... وبكشف كل رجل أو امرأة أو شاب أو فتاة كان عضواً فى حزب هتلر.. وكل قاض حكم فى قضية من قضايا هتلر السياسية.. إلى آخره! ومعنى هذا إدانة الشعب الألمانى كله! لأن الشعب كله كان خاضعاً بطريقة أو بأخرى لحكم هتلر، وكان مضطراً أن يعيش فى موكبه شبان وجنود وضباط وقضاة ومحامون.

ثم أن الشعب الألمانى يرى أن هؤلاء الحلفاء الذين يهاجمونه ويدمغونه بالجريمة، ليسوا ملائكة وأن أيديهم جميعاً ملوثة بدماء شعوب المستعمرات! انهم يحمون الحرب الاستعمارية فى الجزائر والتفارقة العنصرية فى أفريقيا ثم أنه إذا كان الألمان قد دمروا وقتلوا فى البلاد التى احتلوها، فإن الحلفاء قد دمروا ألمانيا تدميراً وشردوا أهلها تشريداً. وهذا كاف لكى ينتهى الحساب! وإلقاء كل المسئولية فى الحرب على ألمانيا فيه تجاهل للحقيقة الإنسانية وهى أن الحرب كانت حرباً استعمارية إلى حد ما من الطرفين.. حرب نظامين رأسماليين يتنافسان على سيادة العالم، فما كان يخطر ببال انجلترا وفرنسا، أن تنتهى الحرب بتشديد قبضتهما على المستعمرات واحتكازهما للأسواق.

ولاشك فى أنه يضاف إلى هذه الأسباب النفسية سبب آخر أساسى.. هو أن تقسيم ألمانيا يشعر الشعب الألمانى بهوان عميق! فبرغم كل النجاح الذى أحرزته ألمانيا بعد الحرب من جديد فإن استمرار تقسيمها وتوزيعها وتبعيتها يجعل الألمانى يشعر أنه مازال يعيش فى مستوى أى مواطن من أى وطن آخر.

وهو نفس الموقف النفسى للألمانى فى الفترة التى ظهر فيها هتلر لأن هذه الظروف كلها تؤدى إلى رد فعل حتمى فى نزعات قومية متطرفة تقوم على العدوان ومقاولة الاحتتار بالاحتتار والاستعلاء بالاستعلاء!

كل هذه الأسباب.. النفسية والسياسية.. توجد تربة خصبة لكى تزدهر فيها بعض بذور النازية فى نفوس الشباب الألمانى! إن شباب أى شعب

يحب مجد بلاده ويأبى إذلالها! وإذا اتجه حب المجد وجهة خاطئة.. كانت الكارثة!

والحل العميق لهذه المشاكل ليس في تطهير المدارس من المدرسين ولا في اعتقال هؤلاء الشبان كما بدأت حكومة ألمانيا تصنع..
وانما الحل هو الحل السياسي الكبير، هو إنهاء وضع ألمانيا النازي والعمل على توحيدها. ونشر منطق من السلام على أوروبا.. يجعل أى نزعة عدوانية غير ذات موضوع!

وأنه لمن المهم استكمالا للصورة أن نذكر أن هذه النزعات النازية اليمينية، قد تكون اشتدت في ألمانيا نتيجة أيضا لظهورها في بلد مجاور ملاصق، هو فرنسا! فالعصابات السرية الإرهابية في فرنسا.. والجمعيات الفرنسية التى تتعقب الجزائريين وتقتلهم في ألمانيا نفسها.. وخطر استيلاء فرق الباراشوت على الحكم.. وظهور نعمة عظيمة فرنسا وقيادتها لأوروبا ورسالتها الخالدة.. كل هذه أشياء سوف تحرك ولاشك عوامل المنافسة التقليدية بين البلدين. وان كان القادة الرسميون مثل ديغول وأديناور على وفاق!..

عواطف .. وتبرعات !

ونعود إلى اليهودية والصهيونية!
إن اليهودية في ألمانيا بالذات لم تعد مشكلة!
ففى أيام هتلر كان اليهود في ألمانيا يحسبون بالملايين.. وكان عدد اليهود في ألمانيا الغربية ٤٣ ألفا فقط في شعب تعداده أكثر من خمسين مليوناً!

وعلى العكس .. فقد زاد عدد اليهود زيادة كبيرة فى أماكن أخرى.. ففى الولايات المتحدة خمسة ملايين وفى الاتحاد السوفيتى ثلاثة ملايين وفى بريطانيا نصف مليون وفى فرنسا ٢٢٠ ألفا وفى رومانيا ١٨٠ ألفا وفى المجر ٨٠ ألفا وفى استراليا ٤٣ ألفا!

فعدد اليهود فى ألمانيا الغربية حين ذاك أقل عددا وأقل نسبة إلى عدد السكان! ومركز الثقل اليهودى لم يعد فى ألمانيا..
ولكن الصهيونية العالمية.. اقتنصت هذه البادرة الصغيرة فى ألمانيا..

بإدارة ظهور بعض منظمات نازية الطابع.. لكي تعيد استثمار القصة القديمة فإطلقت القوى الصهيونية إلى البلاد الأخرى تثير الخواطر، وتزيف العلاقات كمحاولة لاستعادة عطف الرأى العام العالمى.. وهذا يفيدها فى خلق نوع من الالتفاف العاطفى والمعنوى حول إسرائيل من جهة ورفع سيل التبرعات والمساعدات لها من جهة أخرى.

ونحن الآن فى «سنة اللاجئين» التى نظمته الأمم المتحدة. ولعل إسرائيل تريد أن تجر اهتمام العالم بعيدا عن اللاجئين العرب.. بقصص وأوهام جديدة عن اضطهاد اليهود الذى يجعلهم - فى كل مكان من العالم - بمثابة اللاجئين!

ولابد أن نرد على هذا بدعاية ضخمة لقضية اللاجئين الذين شردتهم إسرائيل والحركة الصهيونية. لكى تظهر الحركة الصهيونية أمام العالم على حقيقتها.. قاتلة، وليست شهيدة.

«لويس أراجون» هو أكبر أديب شيوعي في فرنسا. وهو أعظم شعراء فرنسا في ذلك العصر ومن أبرز الأسماء الأدبية في أوروبا بوجه عام .. و «أندريه مورو» هو أكبر أديب فرنسي يؤمن بأمريكا وبالحضارة الأمريكية ، وهو عضو في الأكاديمية الفرنسية .. ومؤلف عدد من أعظم كتب التاريخ عن دزرائيلي وفولتير وقلمنج وغيرهم .. أراجون عمره ٦٢ سنة .. وأندريه مورو عمره ٧٢ .. وقد عقد الاثنان أعجب وأهم

اتفاق ثقافي في هذا العصر .. وكانت من ورائهما الحكومتان السوفيتية والأمريكية ... لقد اتفق هذان النقيضان على أن يؤلفا كتابا واحدا ضخما عن تاريخ أمريكا وتاريخ الاتحاد السوفيتي منذ سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٦٠ ... سيطير أراجون إلى موسكو ليطلع على كل الوثائق الممكنة، ويقابل كل الشخصيات السوفيتية القديمة والشابة، وليكتب خروشوف مقدمة الكتاب .. وسيطير أندريه مورو إلى أمريكا لنفس الشيء ، وليكتب رئيس الجمهورية الأمريكية المقبل مقدمة ثانية للكتاب، لان الكتاب لن يظهر قبل سنة !.

أعجب

كتاب في

العالم !!

المخابرات

الروسية

والأمريكية

تشتركان

معا في

تأليفه !

أخبار اليوم في :

٦٠ / ٢ / ٦

وكل من الادبيين الكبيرين يعرف تاريخ البلد الذي يؤمن به جيدا ..
وزاره أكثر من مرة ، ويعرف عن عقلية ونفسية وفلسفته أكثر من سواه !
وكل ماسيكتبه موروا عن أمريكا سيراجعه ويوافق عليه اراجون
الشيوعي ، وكل ماسيكتبه اراجون الشيوعي عن الاتحاد السوفيتي
سيراجعه ويقره اندريه موروا !! ..

وسوف يكون الكاتبان على اتصال دائم، بحيث يكتب الجزءان وكأنهما
خطان متوازيان ..

إن المقصود من هذا المؤلف الضخم الذي سيصل إلى ألف صفحة، هو
المساهمة في جو التعايش السلمي الذي بدأ العالم يتجه إليه ! ان رجال
السياسة يبذلون جهدهم ، ورجال العلم يبذلون جهدهم .. ولا بد أن يبذل
رجال الأدب والفن جهدهم أيضا ..

إن خطة الكتاب هي إبراز الجانب الايجابي من تاريخ الاتحاد
السوفيتي وأمريكا على السواء .. ومساهمتهما معا في تغيير حياة العالم
ودفعها إلى الأمام .. في ميدان السياسة والعلم والفلسفة وفي كل ميادين
الفن من رسم ورقص وموسيقى وشعر وأدب !

وقد اتفق الطرفان على أن يتجنبا الاتهامات التقليدية التي توجهها كل
منهما إلى الأخرى .. وأن يهتما بإبراز كل ما هو إيجابي من وجهة نظر
الفريقين !

وقد تم الاتفاق بالفعل على نشر الكتاب باللغات الفرنسية والإنجليزية
والروسية في وقت واحد . ثم على ترجمته إلى ١٧ لغة أخرى بعد شهور
قليلة من صدور الطبعة الأولى . وأعلن هذا الاتفاق في صحف موسكو
وواشنطن وباريس !

وقد نشر الخطاب الذي أرسله اندريه موروا إلى «آلن دلاس» مدير
المخابرات الأمريكية للإتفاق معه على المساعدة في هذا الكتاب ، وقد جاء فيه:
«ان هذا العمل سوف يساعد على خلق جو من السلام .. إذ سوف يثبت انه
بالرغم من الخلافات العميقة بين الحضارتين ، فان بينهما أشياء مشتركة
كثيرة ، وانهما تسلكان طرقا متشابهة .. ومن الممكن جدا أن تجدا أرضا
مشتركة !!» ..

والمخابرات الأمريكية والمخابرات السوفيتية على السواء .. سوف تزودان المؤلفين بكل المعلومات الممكنة عن كل المراحل التاريخية للأحداث الهامة !!
إن هذا الكتاب الذي يمكن أن يوصف بأنه «مؤتمر اقطاب أدبي» سيكون ولا شك حدثاً فكرياً عظيماً .. بل وحدثاً سياسياً أيضاً !
لقد انعقد مؤتمر دولي للمدرسين مرة ، وانتهى المؤتمر إلى حكمة تقول :
اننا لو درسنا في كل مدارس العالم كتاباً واحداً للتاريخ ، لما قامت الحروب !
وهذا صحيح إلى حد بعيد !

ان كل دولة تدرس لتلاميذ مدارسها تاريخاً ينظر إلى الدنيا من وجهة نظر واحدة .. تاريخاً يثبت للتلاميذ ان بلادهم أعظم البلاد ، وانها على صواب دائماً ، وان ما عداها من البلاد لا تساوي شيئاً ! فالتلميذ الهندي مثلاً يدرس ان الإنجليز احتلوا بلاده وأخروها واضطهدوها .. في حين ان التلميذ الانجليزي يعلمونه ان إنجلترا كانت في الهند مجرد تمدين شعب الهند وترقيته .. وان الدماء التي أريقت في الهند كانت في سبيل نشر الحضارة !

ولو أن التلميذ الانجليزي تعلم الحقيقة .. لو انه تعلم ما قدمته إنجلترا للعالم حقاً وما أخذته من العالم .. لو انه درس حسنات إنجلترا وسيئاتها .. فانه بالتأكد يشب بعقلية ونفسية مختلفتين تماماً ! وهكذا في كل القضايا التاريخية بالنسبة لكل البلاد !!
ولكن هل يمكن تأليف هذا الكتاب يوماً ؟
ليس قبل قرن كامل على الأقل ! ولكن كتاب «موروا وأراجون» المنتظر على أي حال بداية رائعة !!

أفريقيا

زعماء أفريقيا قادمون إلى القاهرة !

المؤتمر المقبل للشعوب الأفريقية ، سوف ينعقد في القاهرة .. هذا هو القرار الذي اتخذه المؤتمر الذي انعقد أخيراً في تونس . وقد اتخذه المؤتمر بالإجماع . واتخذته دون اقتراح من وفد الجمهورية العربية المتحدة . بل ان الوفود الأخرى هي التي طلبت ذلك .. إذا وجهت إليها دعوة من القاهرة . وقال محمد فؤاد جلال رئيس وفد الجمهورية العربية : ان

القاهرة لا تفرض نفسها .. ولكن أبوابها كانت وستظل دائماً مفتوحة لأفريقيا !

وهذا القرار يضع خاتمة حاسمة ، لكل المناورات والمؤتمرات التي تعرضت لها الجمهورية العربية في مؤتمرات الشعوب الأفريقية ..

إشاعات !

فمنذ ظهرت فكرة مؤتمر الشعوب الأفريقية ، بدأت القوى الاستعمارية تهرش رأسها وتفكر : كيف تبعد الجمهورية العربية عنه ؟ .. هذا الذي يظهر لهم في البلاد العربية وفي آسيا .. كيف يمكن إبعاده عن أفريقيا السوداء ؟ ..

ومع كل مؤتمر ، كانت تنطلق حرب إشاعات وحرب أعضاء . وكان القصد بهذا الكلام إثارة الموجدة في قارة حافلة بالزعامات الطموحة الجديدة . وإثارة الشك في نفوس الأفريقيين ، النفوس التي علمها الاستغلال البشع القديم أن تشك وترتاب قبل أن تثق وتطمئن ! .. وفي أروقة كل مؤتمر ، كنا نجد على الدوام وجوها غربية ، تبث دعوات غريبة .. تبيثها همسا ، وتنشرها تسلا ، وفي الظلام ..

القومية العربية .. والقومية الأفريقية !

ظهرت دعوة تقول : ان العرب ليسوا أفريقيين ! انهم شعب من الغزاة جاءوا إلى أفريقيا كما جاء الفرنسيون والإنجليز بعد ذلك ! ودعوة تقول ان القومية العربية تتعارض مع القومية الأفريقية .. وعلى العرب ان يختاروا لهم إحدى القوميتين ! ودعوة تقول : ان أفريقيا الحقيقية هي أفريقيا السوداء .. أفريقيا التي تقع جنوب الصحراوات الكبرى .. أما شمال أفريقيا ، فهو أقرب إلى سائر بلاد حوض البحر المتوسط !

ولكن هذه الدعوات المسمومة اندثرت كلها الواحدة بعد الأخرى . وفي هذا المؤتمر الأخير قضى عليها القضاء المبرم .

إن الأفريقيين هم كل من يسكنون أفريقيا كوطن دائم أصيل لهم .. مهما كان لونهم أو أصلهم . والقومية العربية هي إحدى القوميات التي تسكن أفريقيا .. كالقومية

الاثيوبية والقومية الصومالية مثلاً .

أما الصحراء .. فإنها لم تفصل أفريقي أبدا . ففي هذه الصحراء عاشت حضارات وتنقلت ثقافات وتجارات . وفي السودان الفرنسي والسنغال يتكلم الناس اللغة العربية ، ويرتبطون في نفس الوقت ببلاد جنوب الصحراء مثل غينيا وغانا ..

وقد جاءت فرنسا وتكفلت بأن تجعل هذه الصحراء رابطة بين شعوب أفريقيا ، لا فاصلا بينهم .. أو كما قال الأستاذ فؤاد جلال في المؤتمر الأخير إن فرنسا بمحاولتها تفجير قنبلة ذرية في الصحراء الكبرى .. قد جعلت هذه الصحراء رابطة بين شعوبها ، فشعوب تونس والجزائر والمغرب وغانا وغينيا وكل الشعوب المحيطة بالصحراء تحتج بصوت واحد ، وتحس بخطر واحد . وتعتبر تلويث هذه الصحراء تلويثا لها جميعا !

بقي شيء واحد : هل صحيح أن شعوب أفريقيا التي مازالت بدائية ، يجب أن تخاف وجود دولة قوية بينها ، كالجمهورية العربية المتحدة ؟ أبدا ! إن الجمهورية العربية بالعكس ، هي نموذج أفريقي يبعث شعوب أفريقيا على التفاؤل بمستقبلها ، أنها مثل لما يستطيع أي شعب أن يقوم به إذا سلك سياسة التحرر والتقدم واستثمار موارده بعيدا عن النفوذ الأجنبي .

ولهذا .. كان قرار عقد المؤتمر المقبل في القاهرة .. بناء على طلب المؤتمر نفسه لا بناء على طلب القاهرة . كان هذا القرار قضاء على كل هذه الدعايات السابقة ..

وليس هذا هو كل شيء ..

إن أعداء أفريقيا وأذناب الاستعمار لديهم أشياء أخرى كثيرة يحاولون بها تمزيق القارة .. مثلاً إن أعداء أفريقيا وأذناب الاستعمار انجليزية وأما مستعمرات فرنسية وبلجيكية . وكل دولة استعمارية تفرض لغتها وثقافتها .. ولذلك فإننا نجد أن أفريقيا السوداء تنقسم إلى فريقين : فريق يتكلم اللغة الفرنسية وفريق يتكلم اللغة الانجليزية .. والبعض يحاولون تحويل هذا الفارق إلى جدار ضخيم يفصل بين الفريقين : مثل آخر .. إن شرق أفريقيا الذي يضم كينيا وتنجانيقا وأوغندا وغيرها .. يختلف

في بعض النواحي عن غرب أفريقيا الذي يضم غانا وغينيا ونيجيريا وغيرها وهنا أيضا يحاول البعض إقامة جدار ضخم يحول دون تعاون الحركات التحررية في هاتين البقعتين ..

وقد لا يعترف البعض ان أفريقيا — بحدودها الحالية التي رسمها الاستعمار — تتكون من ٥٦ قطرا ، كل قطر له اسم ونظام ! من نيجيريا التي تضم ٣٥ مليون نسمة .. إلى جزيرة سانت هيلانة التي تضم خمسة آلاف ساكن ! وكل الدول ذات المستعمرات تصر على بقاء كل قطر منفصل قائم بذاته .. مهما كان عدد سكانه ومهما كان انفصاله عن جيرانه مصطنعا ..

إن «أفنى» الإسبانية مثلا سكانها ٤٠ ألفا والمفروض أن تكون جزءا من المغرب . و«جامبيا» مستعمرة انجلترا سكانها ٢٧٠ ألفا تقع في قلب السنغال وسكانها من نفس جنس سكان السنغال ومسلمون مثلهم . وإلى جانب جمهورية غينيا المستقلة توجد «غينيا البرتغالية» وسكانها نصف مليون وغينيا الإسبانية وسكانها ٢٠٠ ألف . والصومال التي ستستقل هذه السنة والتي يقل سكانها عن مليونين إلى جانبها «صومال فرنسي» سكانه ٧٠ ألفا و «صومال انجليزي» سكانه ٦٠٠ ألف .. ثم هناك مثلا باسو تولاند سكانها ٦٠٠ ألف وبتشوانالاند سكانها ٣٠٠ ألف وسوازيلاند سكانها ٢٣٠ ألفا ..

ومن هذا الوضع الغريب .. انبثقت إلى جانب الدعاوات الوطنية المحلية لتحرير كل قطر من هذه الاقطار ، انطلقت دعاوات أخرى للوحدة بينها .. أو لتحقيق تضامنها .

فهناك الجامعة العربية .. وهناك مؤتمر الدول الإفريقية المستقلة .. وهناك مؤتمر كل الشعوب الإفريقية . هناك حركة في الصومال تدعو إلى توحيد الصوماليات الثلاث . وحركة لتوحيد غانا وغينيا وليبيريا . وحركة لتوحيد السودان الفرنسي والسنغال (وهما مشتركتان في اتحاد «مالي») .. وهكذا ..

بنك أفريقي !

وليس معنى هذا ان عمليات الوحدة ستتم بسهولة . فالاستعمار ما زال موجودا ، والبلاذ التي خرج منها الاستعمار ترك فيها أثارا موضوعية

كثيرة يحتاج محوها إلى وقت .. والنظم القبلية والعصبيات المحلية كثيرة . ولكن إذا كانت مؤتمرات الشعوب الافريقية تعبر عن الشباب المثقف الصاعد في القارة كلها .. فان المستقبل ولا شك لحركات الوحدة هذه .. لان شعارات الوحدة الافريقية كانت هي التي تنتزع في هذه المؤتمرات أكبر كمية من الحماسة والهتاف !

وقد اتخذ مؤتمر الشعوب الافريقية عددا من القرارات الخطيرة ، وكلها متأثرة بمنطق توحيد الجهود الافريقية وتنظيمها .

قرار .. بتكوين اتحاد عام لنقابات العمال الافريقية .. وسينعقد هذا المؤتمر لأول مرة في المغرب في مايو المقبل ..

قرار .. بالتوصية بانشاء بنك أفريقي للتنمية والتعمير (وقد اقترحه وفد المغرب).

قرار .. بتكوين هيئة أفريقية تتولى دراسة موارد أفريقيا الطبيعية وطرق استثمارها ..

على أن أروع لحظات المؤتمر كانت دائما عندما يجيء ذكر الجزائر .. أو يقف مندوب الجزائر ليتكلم ..

وقد وقف مندوب الجزائر مرة وقال : إن فرنسا تحضر ضباطها في المستعمرات إلى الجزائر ليتدربوا على طرق مقاومة الثورة .. ثم يعودوا إلى سائر المستعمرات الأفريقية مرة أخرى .. وجيش التحرير الجزائري يعلن أنه مستعد ليستقبل شباب أفريقيا في مراكز التدريب الخاصة !.. ليتدربوا على طرق مقاومة الاستعمار الفرنسي !.

وهب المؤتمر كله واقفا يهتف ، والدموع في العيون !.

قال لي رئيس تحرير مجلة فرنسية كبرى، طلب عدم ذكر اسمه مقرونا بهذا الكلام: لقد ناقش مجلس الوزراء الفرنسي اقتراحا بإلقاء القبض على الكاتب الكبير بول سارتر. ولكن المجلس عدل مؤقتا عن اتخاذ هذا القرار، خوفا من الضجة الكبرى التي يمكن أن يؤدي إليها مثل هذا الحادث، بسبب شهرة سارتر العالمية، وما يتمتع به من تقدير ضخم في داخل فرنسا. حتى أنه ليعاد أحد المعالم الأساسية

لفرنسا المعاصرة!..

أما السبب المباشر الذي جعل مجلس الوزراء الفرنسي يناقش هذه المسألة فهو: أن المجلة السرية التي يصدرها بعض الفرنسيين لتأييد شعب الجزائر نشرت حديثا مع سارتر! كما قيل أن زوجته سيمون دي بوفار، الكاتبة المعروفة، تركت سيارتها عندما سافرت إلى كوبا في يد بعض الذين يشتبه في أنهم يساعدون ثوار الجزائر!

وأطلعني رئيس التحرير على هذه المجلة

الحكومة

الفرنسية

تبحث في

القبض

على

سارتر!

أخبار اليوم في:

٦٠/٤/٢٠

السرية التي تؤرق ديغول وحكومة فرنسا وجيش فرنسا.
إن اسم المجلة هو: .. verites pour أى «حقائق لـ...» وهى تطبع في
السر. وامعانا في الاحتياط، فهى لا تصدر بانتظام..

فقد تصدر مرتين في أسبوع واحد، وقد تصدر مرة كل شهر.. وهى
توزع بالبريد، وتوزع كل مرة من مكان مختلف.. مرة من باريس ومرة من
مارسيليا، وهكذا...

والبوليس الفرنسى ومخابرات الجيش الفرنسى تطارد هذه المجلة
عبثا. وتحاول أن تقيض على أحد المتصلين بها بأى شكل.. ولما حدث أن
نشر فيها حديث صريح لسارتر، طلب البوليس القبض على الكاتب الكبير..
ولكن مجلس الوزراء الفرنسى ارتعشت يداها.. لأن مثل هذا التصرف
سيكون بمثابة تفجير قنبلة ذرية أخرى.. فى فرنسا نفسها هذه المرة وأجل
اتخاذ هذا القرار! ولكن يظهر أن حكومة فرنسا قد تضطر إلى المضى فى هذا
الطريق الشائك. فبعد هذا الحديث بيومين فقط، ألقى البوليس الحربى
الفرنسى القبض على الكاتب الفرنسى الكبير جورج أرنو!

إن جورج أرنو من الكتاب الروائيين الفرنسيين المعروفين. وقد اشتهر
منذ سنوات برواية رائعة اسمها «ثمن الخوف»... لم أقرأها ولكننى
شاهدتها على شاشة السينما فى القاهرة منذ سنوات، وقد هزتنى يومها
فكتبت عنها مقالا طويلا.

والقصة فيما أذكر تدور فى إحدى المستعمرات الفرنسية فى أفريقيا...
عن اثنين كان عليهما أن يقودا سيارة لورى تحمل مادة متفجرة خلال
طريق طويل وعمر.. كانت السيارة عرضة للانفجار فى أى لحظة. لو اهتزت
أكثر مما يجب أو التهمت تحت حرارة الشمس فوق درجة معينة.. وكان
على السائقين أن يواصلوا الرحلة بهذا الرعب القاتل ليقبضا أجرهما..
ليقبضا ثمن الخوف!

مؤتمر صحفى سرى!

أما سبب القبض على الكاتب الكبير جورج أرنو، فهو يقودنا إلى سر آخر
خطير...

ففى فرنسا الآن جمعية سرية مهمتها مساعدة الشبان الفرنسيين على

الهرب من الجيش الفرنسي، حتى لا يقاتلوا في حرب الجزائر... بوصفها حرباً غير شريفة!

وأحد المسئولين عن هذه الجمعية السرية أستاذ فرنسي للفلسفة، هارب من البوليس، اسمه فرنسيس جينسن..

وقبل أن أصل إلى باريس بيومين، عقد فرنسيس جينسن مؤتمراً صحفياً سرياً في مكان ما من قلب باريس.. أعلن فيه أن الجمعية تواصل نشاطها رغم حملات البوليس والمخابرات الفرنسية. وأنها استطاعت أن تهرب ثلاثة آلاف شاب فرنسي إلى الآن.. وأنها ترجو أن يصل هذا العدد إلى عشرة آلاف في نهاية هذه السنة! وأعلن جينسن أخيراً: أن جمعياته تتكون من صحفيين وممثلات وفنانين وكتاب وقسيس... وكلهم ناس يؤمنون بضرورة استقلال الجزائر وإنهاء الحرب فيها. كما أعلن أن جمعياته تجمع من داخل فرنسا مبالغ ضخمة من التبرعات ترسلها إلى جيش التحرير الجزائري!

ونشر هذا الكلام في الصحف! وجن جنون البوليس الفرنسي... إذ كيف يعقد جينسن - وهو مختلف عن البوليس هذا المؤتمر في قلب باريس.. وكيف يصل هذا الكلام إلى الصحف.. دون أن يتمكن من العثور عليه أو على أي واحد ممن شهدوا هذا المؤتمر الصحفي.. أغرب مؤتمر صحفي! وفجأة، كتب الكاتب الكبير جورج أرنو رسالة إلى جريدة (فرانس بريس) يقول فيها أنه حضر مؤتمر جينسن الصحفي السري! قال هذا متحدياً السلطة، مؤكداً الاتهامات التي كانت تحوم حوله وحول اشتراكه مع هذه الجمعيات السرية...

الهاربون من أزمة الضمير!

كان هذا يوم الثلاثاء الأسبق...

وفي يوم الخميس كان المفروض أن تصدر مجلة (الأكسبريس) ومجلة (فرانس أوبزرفانير)، وهما المجلتان اليساريان اللتان تعارضان ديجول وحرب الجزائر بشدة. وفي ليلة الأربعاء حصل الصديق اللبناني جبران مجدلاي على نسخة من مجلة (الأوبزرفانير) التي تصدر في اليوم التالي.. وفيها وجدت مقالة جريئة غنيفاً للكاتب (جيل مارتينييه) السكرتير العام

المساعد للحزب الاشتراكي الموحد (وهو حزب جديد يساري، يقف بين حزب جى موليه والحزب الشيوعى).. وفيه يتحدث الكاتب عن هؤلاء (الهاربين) من الجيش الفرنسى...

وقال (جيل مارتينييه) ما معناه: أن (الهارب) حقا هو ذلك الذى يهرب من الجيش خوفا وجبنًا... أما هؤلاء الشبان فهم ليسوا جبنا، ولكنهم يقاسون من أزمة ضمير قاتلة. انهم يؤمنون بأن حرب فرنسا ضد الجزائر حرب قذرة، حرب غير شريفة، حرب ضد مصلحة فرنسا نفسها... فماذا يصنعون، عندما يبلغون سن التجنيد، وتستدعيهم الدولة للخدمة العسكرية، فى الجزائر هل يذهبون إلى هناك أم يخربون المجهود الحربى؟ هل ينضمون هناك إلى جيش التحرير الجزائرى. انهم يختارون ما هو أخف من ذلك: يتسللون إلى خارج فرنسا.. حيث يعملون أو يواصلون دراستهم أو يعيشون كما اتفق، إلى أن تمر السنوات التى يمكن أن يجندوا فيها... ثم يعودوا! وهذه الجمعية السرية التى يبحث عنها البوليس.. تساعدكم وتسهل لهم ذلك.

وفي صباح الخميس.. ذهبت إلى بائعة الصحف اشترى منها الصحف والمجلات، فعلمت أن البوليس قد صادر مجلتى الاكسبريس والأوبزرفانير بسبب هذا الكلام! وبعد مدة عرفت أن بوليس الجيش قد قبض على جورج أرنو!

وتهمة جورج أرنو، أنه لم يبلغ عن جمعية تقوم بنشاط معاد للدولة، كما ينص القانون! وتهمة مجلتى الاكسبريس والأوبزرفانير أنهما تحرضان الجنود على الفرار من الخدمة العسكرية! وقد قالت المجلتان: أنهما تنشران معلومات حقيقية فقط، ولا تحرضان على أى شىء!

شهادة لوجه الحق

ان من يرى هؤلاء الرجال، الذين يقومون بهذه الأعمال الانتحارية، لا يملك الا أن ينحنى لهم اعجابا وتقديرا.

فليس سهلا أن يقف حفنة من الناس فى وجه رآوح وطنية متعصبة تأخذ طابع الغزو والغدوان.

وليس سهلا أن يعمل ناس من أجل هزيمة بلادهم عسكريا.. اقتناعا

منهم بأن هذه الهزيمة أشرف من النصر. وبأن مصلحة الشعب الفرنسي الحقيقية تتطلب انسحابه من القتال. وليس سهلاً أن يقوم فرنسيون بجمع تبرعات للجيش الذي يحارب جيش فرنسا.. وهو جيش التحرير الجزائري. انهم بهذا يتحدون كثيراً من القيم التقليدية التي يرتعد الناس عادة خوفاً من معارضتها ويقفون في وجه فاشية عسكرية تزداد كل يوم ضراوة وخطراً..

إن مهمتهم لا تقل صعوبة عن الذين يقاتلون في قمم الجبال. وكفاحهم لا يقل شرفاً عن القيم الشريفة التي يناضلون من أجلها!

متناقضات باريس

باريس ؟؟

في اليوم الذي قبض البوليس الحربي فيه على الكاتب جورج أرنو.. كان البوليس الجنائي يبحث عبثاً عن العصاية التي خطفت ابن المليونير بيجو واعادته بعد أن دفع أبوه ٥٠ ألف جنيه... وكان الحزب الشيوعي الفرنسي يحتفل بذكرى مرور ٩٠ سنة على ميلاد لينين.. وكانت الصحف تعلن أن موضحة الموسم بين الذوات هي إقامة حفلات ساهرة بملايس النوم، بالبيجامات وقمصان النوم، وتنتشر صوراً كثيرة لهذه الحفلات... وكان مسرح الأوديون يعرض رواية (أرواح ميتة) لجوجول... وكان ديجول في أمريكا يخطب قائلاً: إن مستقبل العالم يتوقف على غرب أوروبا! كيف تعيش كل هذه الأشياء في مدينة واحدة؟

هذا هو العجب!

لقد كان سر فتنة باريس دائماً هو (التعدد).. إذ يجد فيها الإنسان أقصى ما يريد، مهما كان نوع هذا الذي يريد.. سواء كان يريد علماً أو لهواً أو فناً أو فلسفة... ولكن هذا التعدد يصل أحياناً إلى درجة التناقض الحاد، الذي يصنع الأزمة.

إن باريس في حالة رخاء اقتصادي لم يسبق لها مثيل. قال لي بعض العرب المقيمين هناك أنهم يعرفون عمالاً يصل أجر الواحد منهم إلى مائة جنيه في الشهر.. وفي إحدى الليالي وقفت أتعشى في محل صغير رخيص

للسندويتشات وفي مدخل المحل كانت تقف سيدة بدينة شقراء تقشر البطاطس وتقليها، وخرجت من المحل واستندت إلى سيارة «رينو» أنيقة واقفة أمام المحل. انتظر خروج من كانوا معي.. وإذا بالسيدة التي تقشر البطاطس وتقليها تقول لي باسمه: لا تتكئ بشدة على السيارة.. لأنها سيارتى!

العصابات ترتع في قلب باريس!

هذا الرخاء الذي يخطف اللب، ويذيب مقاومة القيم الشريفة في نفوس الذين يحرمون منه، خلق حالة من الاجرام، الذي ينتشر على نطاق واسع رهيب...

ففي اليوم الذي وصلت فيه إلى باريس، كانت الدنيا مقلوبة لأن عصابة خطفت طفلاً عمره أربع سنوات، هو ابن المليونير بيجو صاحب مصانع السيارات المعروفة بهذا الاسم، وطلبت من الأب أن يدفع لها ٥٠ ألف جنيه مقابل إعادته إليه، وعجز البوليس تماماً عن العثور على العصابة. ووقف المليونير أمام التليفزيون يدعو العصابة إلى إعادة ابنه ويتعهد لها بأن ينفذ شروطها ولا يدل البوليس عليها. وبالفعل رسمت له العصابة الطريقة التي يسلم بها النقود. كان عليه فقط أن يقف عند مدخل إحدى العمارات في قلب باريس وسيأتي من خلفه رجل يقول له كلمة السر، فيعطيه حقيبة فيها نقود، دون أن يلتفت إلى الورا أو ينظر إلى مندوب العصابة.

ونفذ المليونير الشروط كلها.. بعد أن تعمد تضليل البوليس حتى لا يتابعه فيشك فيه أفراد العصابة. ودفع المبلغ. وبعد ساعات عثروا على الطفل في الطريق.. تركته سيدة شابة تلبس معطفاً رمادياً واختفت.

وبالرغم من أن الجريمة تمت بدقة مذهلة، فإن البوليس يرجح أنها من ارتكاب بعض الهواة، وهذا أخطر فإنه يدل على أن الانحراف ليس مقصوراً على المجرمين المحترفين وحدهم.

وثارت مناقشة عنيفة في فرنسا كلها: إن المليونير بيجو مازال يخفي أسراراً من العصابة، وقد رفض أن يعطى أرقام أوراق البنكنوت للبوليس، تماماً كما تعهد للعصابة، خشية أن تنتقم منه.. وبعض الكتاب يقولون: إن هذا موقف غير أخلاقي منه.. فهو بسبب خوفه من الانتقام يسهل فرار

عصابة خطيرة تهدد أمن ملايين الأطفال!

وقالت جريدة لومانيتيه لسان حال الحزب الشيوعي: ان المليونير بيجو يستخدم في مصانعه أكثر من عشرين ألف عامل.. وأنه قد قاسى عذاب الخوف من فقد طفله، يجب أن يكون أكثر شعورا بالظلم الواقع على عمال مصانعه.. الذين يتعرضون كثيرا لهذا العذاب، عندما يمرض أطفالهم ولا يجدون لهم ثمن العلاج والدواء.

وفي اليوم الذي تركت فيه باريس، أى بعد أربعة أيام فقط، صدرت الصحف تروى قصة ثلاثة حوادث وقعت في عصر يوم واحد. كلها هجوم عصابات مسلحة على صيارفة يحملون مبالغ ضخمة من النقود في السيارات! وقد تمت الحوادث كلها في قلب باريس وضواحيها.. وسرق في الحوادث الثلاثة ما يقرب من ٢٠٠ ألف جنيه.

ولاذت العصابات الثلاث بالفرار.

والحملات على البوليس عنيفة! وفي حادث خطف الطفل، أرادت إحدى الصحف أن تثبت عجز البوليس فأحضرت سيارة سوداء تنطبق عليها أوصاف سيارة العصابة، وأركبت فيها رجلين وامرأة تنطبق عليهم أوصاف الجناة.. وألبستهم نفس الثياب.. وانطلقوا بالسيارة في جميع أنحاء باريس، التي يبحث فيها ٢٠ ألف جندي بوليس عن سيارة وأشخاص بهذا الوصف، دون أن يتعرض لهم جندي واحد! فالمدينة الكبيرة تبتلع كل شيء!

والموضوع المفضل للقصص والأفلام المحلية هو الشبان والشابات الذين ينزلون إلى الجريمة، جريا وراء الثراء السريع.. ليقتنوا السيارات ويمارسوا المغامرات والأسفار ويرتادوا الأماكن التي يتدفق منها النور...

وفي نفس هذه الأيام الأربعة التي قضيتها في باريس، وقع حادث من نوع آخر.. هاجم ثلاثة شبان جزائريين كونسابل بوليس فرنسي وأطلقوا عليه النار في الساعة الخامسة مساء.. واشتبك رجال البوليس الموجودون في المنطقة مع الجزائريين الثلاثة في معركة بالمسدسات.. فقتلوا واحدا منهم.. واختفى الاثنان الآخران..

وقع الحادث في الساعة الخامسة والنصف عصرا.. أى في ضوء النهار

وقمة الزحام! وانطلقت الصحف الفرنسية تصف كونستابل البوليس بأنه حارس الأمن ورجل السلام! كان الآلاف الذين تراق دماؤهم في الجزائر من الرجال والنساء والأطفال ليسوا من طلاب الأمن والسلام كأن الحرب في أرض فرنسا عمل وحشى ولكنها في أرض الجزائر عمل متمدن.

إفلاس ديـجول ؟

والرأى العام الفرنسى بدأ يشير إلى أن حكم ديـجول قد أخذ في الإفلاس! لأن التأييد الذى حمل ديـجول إلى الحكم كان مرجعه إلى الأمل فى أنه هو الرجل الذى سينهى حرب الجزائر. ولكن تراجع ديـجول الأخير، وتمسكه بضم الجزائر إلى فرنسا.. جعله يبدو أمام الفرنسيين عاجزا هزيلا إزاء المتمردين فى الجيش الفرنسى.. أى نفس الموقف العاجز الهزيل الذى وقفه رجال الجمهورية الرابعة البائدة من قبل!

وقد كتبت منذ بضعة شهور بعد عودتى من تونس، أن ديـجول سيلجأ إذا فشلت الحرب إلى تقسيم الجزائر! وبدأ هذا الخبر يومها غريبا. ولكن ميشيل ديبريه رئيس وزراء فرنسا تحدث فى الراديو أخيرا وقال: ليعلم الجزائريون أن الاستقلال معناه التقسيم.

والتقسيم — فى الواقع — معناه أن يستوطن الفرنسيون فى المدن الساحلية الكبرى وفى منطقة البترول، وأن يترك للعرب المناطق الجرداء القاحلة، التى لا تستطيع أن تعيش اقتصاديا بمفردها... كالأردن مثلا!

الهجرة الكبيرة!

وفى هذه الزيارة لباريس تأكد لى مرة أخرى هذا الاتجاه. ومن الدلائل الهامة أن فرنسا تسرع فى استثمار بترول الجزائر إلى أقصى حد. وفى خلال اقامتى فى باريس، أعلن أن الحكومة قد اشترت محطات بنزين شركة كالتكس فى أنحاء فرنسا لى تحويلها إلى محطات تباع بترول الجزائر، وقد أحدث هذا أزمة شديدة فى دوائر شركات البترول الأخرى التى تستأثر بالسوق، والتى تخشى دخول الدولة كمنافسة لها...

على أننى علمت من بعض الساسة المعارضين لديـجول، أن الأحزاب الاشتراكية تؤمن بأنه حتى هذا الحل — حل التقسيم — لن ينهى الصراع. كما أنها تؤمن بأن المليون فرنسى فى الجزائر لن يقبلوا مطلقا أن يعيشوا

رعايا في دولة عربية وبين مواطنين عرب.. بعد أن تعود هؤلاء الفرنسيون أن يكونوا سادة، وأن يكونوا متفوقين.
لذلك.. فقد بدأت بعض الأحزاب الاشتراكية - سرا - تدرس بدقة كل التفاصيل اللازمة لحل آخر هو: نقل المليون فرنسي من الجزائر وإعادة توطينهم في فرنسا... أو نقل الذين يرغبون في الانتقال منهم! انهم يؤمنون بأن هذا أمر لا مفر منه.. وإن كانوا لا يستطيعون إعلان ذلك للرأي العام في هذه الظروف!
وهي عملية تحتاج إلى دراسات واسعة من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والنفسية!
وبعد..

فهذه هي باريس، كما وجدتها، خلال أربعة أيام..
نفسية حائرة معقدة. ومتناقضات عنيفة.. وشعب ذكي يعرف أن ذكائه قد خانه منذ عشرين سنة على الأقل..
وإحساس التفوق على الآخرين يصطدم بالواقع الذي يقول إن الآخرين بدأوا يتفوقون!. وحفنة قليلة من المناضلين اليواصل الشجعان.. يحاولون إنقاذ اسم فرنسا وسمعتها في وجه ظلام كثيف!

أعلن أخيراً في أمريكا، أن «جائزة بوليتزن» قد منحت هذه السنة للرواية الضخمة - Advise and con- sent وترجمتها الحرفية (النصيحة والموافقة).

وهذه الرواية الفائزة... موضوعها: الحياة السياسية في واشنطن. حوادثها تدور في واشنطن بعد سنتين، أي في سنة ١٩٦٢، أبطالها هم رئيس جمهورية الولايات المتحدة ووزير خارجيتها، وزعيم الأغلبية في الكونجرس

الأمريكي، وأقطاب الحزب المعارض.. وسفراء الاتحاد السوفيتي وبريطانيا والهند وفرنسا في أمريكا.. وبعض نساء المجتمع الأمريكي.

إننا نقرأ كل يوم في الصحف عن مناقشات الكونجرس الأمريكي وخلافات الكونجرس مع رئيس الجمهورية.. ولجان التحقيق التي يشكلها الكونجرس للبحث في نشاط الحكومة.. كاللجنة التي شكلها أخيراً لبحث تفاصيل حادث طائرة التجسس الأمريكية... وفي هذا الجو كله تدور هذه الرواية التي تقع في ٦٠٠ صفحة من الحجم الكبير.. والتي ينتشر فيها أخذ أعضاء الكونجرس البارزين!

رئيس

الجمهورية

.. وزعيم

المعارضة ..

والأرملة

الطرود!

أخبار اليوم .. في

٦٠ / ٦ / ١٨

إن المشكلة التي تثير أحداث القصة هي : أن رئيس جمهورية الولايات المتحدة قد أصدر قراراً بترشيح مستر «لفنجويل» ليكون وزيراً للخارجية ، والدستور الأمريكي يقضى بأن رئيس الجمهورية يرشح الوزراء وأن الكونجرس يجب أن يوافق على التعيين .. ولذلك فقد أرسل رئيس الجمهورية اسم المرشح إلى الكونجرس لأقراره ...

ولكن اختيار (لفنجويل) لمنصب وزير الخارجية يثير ضجه هائلة ! انه شخصية من تلك الشخصيات التي تثير الجدل العنيف، والتي يختلف الناس في شأنها.. فبعض الناس يرونه كفؤاً وماكراً يستطيع أن يواجه السوفيت في المباحثات الدولية وفي مؤتمرات الأقطاب المتوقعة .. وبعض الناس يعتقدون أنه انتهازي عريق.. لا رأى له ولا ولاء لأى شىء ولا لأى مبدأ .. ومن هنا تتور العواطف .. ويدور الصراع العنيف، في أفق واشنطن السياسي ... فالمعارضة في الكونجرس عنيفة ضد اختيار لفنجويل .. ولكن رئيس الجمهورية ، وقد أعلن اختياره ، أصبح من كرامته أن يحصل على موافقة الكونجرس بأى شكل ... ومهما كان السلاح !

وحوادث القصة تروى على لسان أربعة أشخاص من أبطالها ...

الأول ، هو «مونسون» زعيم الأغلبية في الكونجرس ، فهو زعيم الحزب الموالي لرئيس الجمهورية والذي يتمتع بالأغلبية في المجلس ، ومعنى ذلك أن مهمته هي العمل على إقرار هذا الترشيح من الكونجرس بأى ثمن .. أن «مونسون» رجل جذاب ، له تجربة طويلة في الكونجرس ، وهو في نفس الوقت صديق حميم للسيدة (دوللى) .. تلك الأرملة المليونيرة .. التي وجدت نفسها بعد وفاة زوجها ، بملايينها الكثيرة ، تحيا حياة راكدة في إحدى الولايات .. فقررت أن تنتقل إلى واشنطن حيث تستطيع أن تمارس حياة إجتماعية حافلة .. وقد نجحت دوللى في ذلك إلى حد بعيد.. فأصبحت حفلاتها تضم أبرز الشخصيات وأهمها .. ولما كانت دوللى تحب (مونسون) زعيم الأغلبية ، وتريد أن تتزوجة ، فهي تساعد في حياته السياسية، بأن تقيم في بيتها الحفلات التي تضم أكبر الشخصيات، حيث يتاج لمونسون أن يلتقى بهم وينشئ علاقات صداقة معهم ومع سفراء الدول الأجنبية، وكبار الشخصيات التي تزور العاصمة.

البطل الثاني، هو «سيب كولي». وهو واحد من أقوى أعضاء الكونجرس وأشدّهم مراسا وأكثرهم عنادا، وهو في نفس الوقت يكره (لفنجويل) المرشح لوزارة الخارجية، كراهية شديدة.. لأن لفنجويل قال له مرة، في وجهه، انه كذاب.. وقد جاءت الفرصة لكي ينتقم فيها «سيب» من لفنجويل.. ولذلك فهو يتزعم الحملة لرفض هذا الترشيح..

البطل الثالث هو (أندرسون).. رجل مثالي حقا! شريف ونزيه إلى أقصى حد.. وهو متزوج من سيدة جذابة اسمها «مابل». تحبه كثيرا ولكنها تشعر دائما أن هناك شيئا خفيا يفصل بينهما.. وكثيرا ما توهمت أنه لا يحبها!

والبطل الرابع هو (نوكس)، وقد كان مرشحا لرئاسة الجمهورية ضد رئيس الجمهورية، ولكنه سقط في الانتخابات.. انه رجل كفء وذكي ومثقف ولكنه ينطوى على مرارة نحو رئيس الجمهورية منذ تلك المعركة الانتخابية.

وقد تفاقم الخلاف في الكونجرس حول هذا الترشيح.. فتقرر تكوين لجنة تحقيق لبحث الموضوع، تقوم باختبار المرشح، وتقديم تقريرها بناء على هذا الأساس، ولما كان موضوع دراسة اللجنة دقيقا، فقد اختاروا لرئاستها «أندرسون»، الرجل الشريف المثالي، لأن سمعته ونزاهته وتجربته فوق مستوى الشبهات.. وهو الوحيد الذي لن يتهم بالتحيز.. أما أعضاء اللجنة فكلهم من الأعضاء البارزين في الكونجرس.. ومناقشات اللجنة وجلساتها سرية.

ولكن اللجنة تفاجأ بظهور شاهد يقول أمامها: ان لفنجويل كان في شبابه شيوعيا.. وانه عندما كان أستاذا في الجامعة أسس مع اثنين آخرين خلية شيوعية.

المرشح لمنصب وزير خارجية أمريكا.. كانت له ميول شيوعية؟ إن المسألة جد.. ولذلك يجب التريث والتدقيق فيها.. ومن هنا قالت اللجنة انها لا تستطيع ادانة المرشح بناء على شهادة شاهد واحد فقط.

ولكن المتحمس لاثبات هذا الاتهام هو «سيب كولي» خصم لفنجويل القديم، وهو لذلك مصمم على احضار الاثنين اللذين قيل انهما اشتركا معه

في تأسيس هذه الخلية.. ان احد الاثنين قد مات، ولكن الثاني موجود. يعثر عليه سيب، ويجعله يتصل برئيس اللجنة، اندرسون، ويروى له كل شيء . ويجد اندرسون أن الموقف قد أصبح خطيرا. ان أحسن تصرف هو ألا يذيع هذه الأنباء.. على أن يذهب إلى رئيس الجمهورية ليروى له كل شيء وينصح له أن يسحب مرشحه في هدوء .

وكان رئيس الجمهورية في ذلك الوقت في أشد حالات الغضب والثورة. ان تأخير الموافقة على مرشحه كل هذا الوقت فيه اهانة له ! خصوصا أمام الدول الاجنبية التي عبر له سفراؤها عن اغتباطهم بترشيح لفنجويل.. ولفنجويل أيضا له أصدقاء كثيرون.. ولذلك بدأت الصحف تهاجم اللجنة وتهاجم رئيسها اندرسون.. هاجمته (واشنطن بوست) و (هيرالد تريبيون) و (تايم) و (نيوزويك).. ومحطتان من محطات الإذاعة..

وذهب اندرسون ليقابل رئيس الجمهورية، وروى له كل شيء ! وفي البداية ، حاول رئيس الجمهورية ان يشتري اندرسون رئيس اللجنة ! لمح له بالمناصب، ولمح له برشوة غير مباشرة، في صورة اعتمادات يستطيع الرئيس أن ينفقها في الولاية التي ينوب عنها اندرسون فترفع أسهمه فيها. ولكن اندرسون لم يتزحزح عن موقفه في مواجهة الحقيقة. وقال أصدقاء رئيس الجمهورية له: ان اندرسون لا يمكن شراؤه.. فرد رئيس الجمهورية قائلا: اذن لابد من تحطيمه !

وتظاهر رئيس الجمهورية بأنه يوافق على سحب ترشيح لفنجويل.. ولكنه طلب من اندرسون مهلة يومين، يتعهد اندرسون بألا يذيع خلالها أى شيء عن الموضوع.. ويوافق اندرسون وهو سعيد لأن الرئيس سيجنب الكونجرس أزمة كبيرة .

والواقع أن رئيس الجمهورية لم يتراجع، ولكنه تظاهر بذلك فقط حتى يكسب وقتا يجد خلاله طريقة لتحطيم اندرسون، وتقع سلسلة من المصادفات السيئة، تنتهى بتزويد رئيس الجمهورية بالسلاح الذئى كان يبحث عنه لتحطيم اندرسون.. وكان سلاحا رهيبا ..

لقد عثروا على صورة لاندرسون في شبابه.. عندما كان مجندا خلال

الحرب العالمية الأخيرة كات الصورة له في هونولولو مع شاب آخر وخلف الصورة اهداء عاطفي غريب من أندرسون إلى زميله في الصورة.. إهداء يثير الشبهة في أن الاثنين كانت بينهما علاقة شاذة.. ويسرع انصار رئيس الجمهورية إلى البحث حتى يكملوا القصة ويتأكد لهم أن هذه العلاقة القديمة حقيقية .

ان السلاح الذي وقع في ايديهم رهيب، وقد بدأوا يهددون به أندرسون فماذا يفعل الرجل ؟

انه رجل شريف ونزيه، هذه العلاقة القصيرة وقعت له فعلا في ذلك التاريخ البعيد، تحت تأثير ظروف الحرب وغيرها، وقد انتهت بسرعة كغلطة لم تتكرر. ومن وقتها وأندرسون نموذج للسياسي النزيه الشريف المتجرد عن الهوى.. فماذا يصنع ؟

هل يخضع للتهديد؟.. ولكنه بذلك سيكذب على الأمة. وسيوافق على ترشيح وزير خارجية يضر بمصالح أمريكا.. في رايه !
هل يتركهم يذيعون القصة؟.. ان في هذا تدميرا كاملا له.. ولزوجته .. ولأولاده..

وفي تلك اللحظة الحرجة.. دس خصومه من اتصل بزوجته وروى لها القصة تليفونيا.. وانهارت الزوجة، وفهمت خطأ أن زوجها ما زال يمارس الشذوذ. ووجدت في هذا تفسيراً لهذا الحاجز الغامض بينهما.. وعبثاً حاول أندورسون أن يشرح لها أن هذا شيء قديم جداً.. ولكنها تركت البيت .

كان هذا التخلي من زوجته هو نقطة التحول الحاسمة في نفسه. فقد قرر أن ينتحر لكي يتخلص من هذا المأزق. وجلس يكتب رسالة لصديقه وزميله (نوكس) يشرح له كل شيء بصراحة تامة.. ثم انتحر.

وقد تأثر «نوكس» تأثراً عميقاً بهذا الحادث ووجد أن الخصوم السياسيين قد استخدموا سلاحاً حسياساً. وقرر أن يكرس نشاطه لرفض ترشيح لفنجويل.. وكانت العواطف قد اتجهت ضده بشدة.. حتى نجح في ذلك. وقرر الكونجرس رفض ترشيح لفنجويل..

وفي أثناء هذا كله كان الاتحاد السوفيتي قد نجح في إرسال أول رجل إلى القمر وكان الرأي العام العالمي يضغط من أجل عقد مؤتمر عاجل

للاقطاب.. ولكن رئيس الجمهورية المريض.. كان يقاسى من أثر رفض الكونجرس لمرشحه.. فمات فجأة ذات ليلة .

وتولى نائب رئيس الجمهورية المكان الذى خلا. وكان نائب رئيس الجمهورية رجلاً ضعيفاً محدود المواهب، فأثر أن يختار «نوكس» وزيراً للخارجية حتى يستطيع أن يقف إلى جواره، فى مؤتمر الاقطاب القادم.. وتنتهى الرواية .

هذه هى الرواية الضخمة التى فازت بجائزة بوليتزر.. والتى ألفها صحفى أمريكى من الذين عاشوا الحياة السياسية فى واشنطن زمنًا طويلاً وهوالن درورى .

من زمن طويل ، لم أقرأ أخباراً هامة، مثيرة، كهذه الأخبار..

إن أخطر أحداث حياتنا لا تقع في مؤتمرات الأقطاب، ولا في ساحات القتال، ولكنها تقع في المعامل الصامتة.. وفي أدمغة العلماء .

صحيح أن الصحف لا تنشر هذه الأخبار الهامة في صفحاتها الأولى وبعناوين مثيرة، ولكن الصحف - أيضاً - لم تنشر عناوين مثيرة يوم قال العلماء إنهم نجحوا في تفجير الذرة أو بلغة أدق : تفجير النواة . هذا

الحدث الخطير لم يظفر بالاهتمام العالمي إلا يوم تحول الاكتشاف العلمي إلى قنابل ومتفجرات وصواريخ . عند ذلك فقط أصبح حديث الدنيا ومحور الصراع السياسي، وأدرك الناس أي انقلاب حدث في حياتهم .

يقول العلماء الواقفون في معاملهم شيئاً آخر.. أكثر خطورة من تفجير الذرة . لأن المسألة هذه المرة تتصل بالإنسان نفسه.. أي بالمادة الحية، لا بالمادة الميتة ..

إن نجاح العلم في «تخطيم الذرة» معناه أنه نجح في تحليل وتفكيك المادة الصماء . واليوم يعلن العلم

أخطر

أسرار

الحياة

بدأ العلم

اكتشافها !

أخبار اليوم في

٦٥ / ٧ / ٢

أنه يقف على أبواب النجاح في تحليل «المادة الحية».. أى الخلية الحية.. والسيطرة على ذراتها !

ومعنى ذلك ببساطة : أنه في خلال عشر سنوات أو عشرين سنة، سوف يستطيع العلم أن يستخدم المواد الكيميائية في صنع وتركيب «خلايا حية» لها بعض وظائف الحياة. وأنه سيتمكن بعد ذلك التحكم في الوراثة الانسانية أى يمكن التحكم في الجنين بحيث يأتى - مثلا - أسود الشعر، أخضر العينين يتمتع بذكاء نادر، وبصحة غير قابلة للمرض.. بل سيتمكن التحكم في تحديد ميوله وطباعه ومزاجه الشخصى .

وأعلنت جامعة اكسفورد البريطانية لأول مرة انشاء وظيفة أستاذ متفرغ لهذا العلم الجديد.. وعينت لها الدكتورة دوروثى هودجين... وقد عرف أن هذا البحث تتفرغ له مجموعات من العلماء في أماكن كثيرة. وقد سجلت ثلاث مجموعات على الأقل نجاحا كبيرا فيه.. وذلك في بريطانيا وفي أمريكا وفي ألمانيا الغربية ومن المؤكد أن الاتحاد السوفيتى أيضا فيه أبحاث متقدمة في هذا الموضوع.

وفهم الموضوع يحتاج إلى تفاصيل علمية عويصة. ولكن خطورة الموضوع وجديته تمليان علينا أن نحاول فهمه .

ان أى جسد حى سواء كان جسم انسان أو حيوان، يتكون من «خلايا» حية. هذه الخلايا الحية تقابل الذرات فى الجسد الميت، أى فى الحديد أو اليورانيوم مثلا . الخلية هى الوحدة التى يتكون من التحامها الجسم الحى والخلية فى الجسم الحى لايزيد حجمها على ثلاثة من ألف من المليمتر فهى لايمكن رؤيتها بالعين المجردة، ولا بالمكروسكوب العادى.. ولكن بميكروسكوبات خاصة !

وكل خلية تتكون من مادة سائلة يسمونها «بروتوبلازم» فى وسطها نواة أصغر منها ! وهذه النواة فى حالة حركة مستمرة. وفى هذه النواة تكمن صفات الوراثة والتكاثر .

والعلم يحاول أن يكتشف أسرار تركيب هذه النواة. وذلك عن طريق تحليلها وتفكيكها.. وبعد ذلك يحاول أن يعيد تركيبها.. وهذا أصعب ! وقد نجح العلماء أخيرا فى تفكيك النواة الحية وتحليلها، وفى معرفة

العناصر التي تتكون منها، وطريق بنائها !.

وقد توصل العلماء في دراستهم للعناصر الكيميائية التي تتكون منها الخلية الحية، إلى أن يفصلوا عنصرا معينا، أطلقوا عليه اسم «د . ن . أ». هذا العنصر من أهم العناصر التي تتكون منها الخلية الحية. وهو العنصر الذي يصنع الصفات الوراثية. أى الصفات الجسمية للإنسان... فهذا العنصر في الخلية الحية (والإنسان عبارة عن مجموعة من الخلايا الحية) هو الذى يجعله انسانا أسمر أو أشقر.. عيونه خضراء أو عسلية.. ذكيا أو غبيا.. وهكذا !.

يقول العالم البريطانى «جون ديفى» فى محاولة مضنية لتبسيط الأمر: ان هندسة وبناء الخلية الحية قد تم اكتشافهما، وقد أمكن معرفة أهم عناصرها الكيميائية وقد أطلق عليها اسم «د . ن . أ» ان هذه المادة هى عنصر الوراثة الحقيقى، أى الأساس المادى لعوامل الوراثة. ان هذه المادة تعمل داخل الخلية الحية وكأنها دستور مكتوب. انها مكن القوانين والعادات بالنسبة للخلية الحية. ان إدارة الخلية تسير على أساس لامركزى موزع فى أنحاء البروتينات التي تتكون منها الخلية الحية. ولكن مادة «د . ن . أ» تقيم مستقلة داخل نواة الخلية، رغم أن هناك رسائل كيميائية تخرج وتدخل باستمرار إلى الخلية الحية.. ان قواعد الحياة فى الخلية الحية لا تسير إلا بالرجوع إلى هذه المادة التي هى بمثابة مكتبة نووية. البحث الآن يدور حول محاولة اكتشاف طريقة ترتيب هذه المكتبة. فإذا نجح العلم فى فهم لغة مادة الـ «د . ن . أ» فقد نستطيع بعد ذلك أن نقرأ ما فى هذه المكتبة، بل وان نتدخل فى محتوياتها !.

ان محتويات هذه المادة عبارة عن ذرات من مواد كيميائية، مرتبة فى نظام أشبه بالسلاسل الحلزونية التي تدور حول عمود فقرى من ذرات أخرى من الهيدروجين والكربون والاكسجين والفوسفور. هذه الذرات تتكون كل منها من مادة كيميائية معينة.. تتتابع فى تسلسل معين تسلسلا يختلف فى كل جسم حى، وكل صفة وراثية ناشئة عن تسلسل معين لهذه الذرات الكيميائية، فلون العين مثلا نتيجة تسلسل معين للذرات الكيميائية، وهكذا والمحاولة التي بدأت تبذل، بعد الانتصار الأول، هى محاولة فهم

لغة هذا التسلسل ! لأنه إذا أمكن معرفة أن هذا التسلسل يؤدي إلى صفات معينة، فإنه يمكن تغيير التسلسل بحيث يؤدي إلى صفات أخرى في الوراثة .

وأول أثر لتجاح هذه الأبحاث، حين يتم، خاص بعلاج الأمراض التي لاعلاج لها، كشلل الأطفال والسرطان مثلا، ان السرطان هو نمو الخلايا وتكاثرها بطريقة لا يتحملها الجسم. ويقال في وصفه أنه «جنون يصيب الخلايا الحية». ومعنى ذلك أن خلا ما قد حدث في التسلسل النووي داخل الخلية الحية، أدى إلى هذا الخلل في عمل الخلايا وفي تكاثرها وانقسامها. ما رأيكم ؟

أليست هذه الأخبار أهم بكثير من أخبار مناورات الصواريخ التي يجريها الاتحاد السوفيتي وأمريكا ؟!

لأول مرة ، كتب آرثر ميلر،
الكاتب المسرحي الأمريكى الكبير،
رواية سينمائية لتمثيلها زوجته
مارلين مونرو الرواية اسمها (الذين
لامكان لهم!)..

وقد سئل آرثر ميلر لماذا يكتب
للسينما مباشرة، بعد أن نذر طول
حياته للكتابة المسرحية، فقال: إننى
أستطيع أن تكون لى سيطرة على
رواية السينما مثل سيطرتى على أى
رواية أكتبها للمسرح، فقبل أن يظهر
المنتجون الفرديون للأفلام، كان

كاتب الرواية السينمائية مجرد يد تستأجرها
الشركات السينمائية الكبرى. كما اننى أستطيع أن
أقول على شاشة السينما أشياء لم أكن أستطيع أن
أقولها من قبل، لأن الرقابة أصبحت أخف!

ورواية ميلر السينمائية الجديدة تدور فى مدينة
(رينو) التى يذهب إليها الناس للحصول على
الطلاق. نظرا للسهولة الشديدة التى يتم بها الحكم
بالطلاق هناك. وقد سئل آرثر ميلر عن سبب
اختياره مدينة رينو مكانا لقصته فقال (لأنها
عاصمة الطلاق فى العالم.. وأكبر مصنع للشقاء
والانفصال فى العالم).

الفن :

لا مكان

له !

أخبار اليوم .. فى

٦٠ / ٧ / ٢٠

وآرثر ميلر لم يكتب حرفاً واحداً في أى مسرحية جديدة منذ سبع سنوات. وهو يقول إنه يكافح طيلة هذه السنوات ليكتب مسرحية معينة دون أن ينجح في كتابتها.. لماذا؟

قال ميلر: إن أغلب القصص والمسرحيات التى يؤلفها الكتاب تصور الحياة على أنها كارثة ومأساة. وأنا أريد أن أكتب رواية أقول فيها إن كل شىء لم يضع بعد! رواية تتصارع فيها قوى النور والظلام لذلك فأنا أبحث عن عناصر ترجح كفة النور ولا بد أن هذه العناصر موجودة فعلاً. ولكن المشكلة هى فى العثور عليها. ان البحث عنها ماجعلنى ألتزم الصمت كل هذه المدة الطويلة.

والذى يجعل البحث عن عناصر النور أكثر صعوبة، هو أن الكاتب عليه أن يزرعها وينميتها.. فليس هناك الآن فلسفات أخرى تعطى الكاتب أى تأييد خارجى. لذلك فأنا مضطر إلى الاعتماد على نفسى فقط.

وقال ميلر إنه بوجه عام أكثر تفاؤلاً الآن منه فى أى وقت مضى.. ولما سئل لماذا؟ قال إن روح النقد، وعدم قبول الأوضاع القديمة ينمو مرة أخرى فى بلاده (أمريكا). ان الناس الآن بدأوا يعترفون بما كان خطأ. منذ عشر سنوات كان مستحيلاً أن تطالب بالتغيير. أما الآن فلم يعد من غير اللائق أن تنتقد.

وقال آرثر ميلر: إن من الأشياء التى تسعده، انهيار التفرقة العنصرية ضد الزنوج فى أمريكا. وأنه يرى فيما حدث فى اليابان وأمريكا اللاتينية دليلاً على إفلاس نظرة أمريكا القديمة إلى العالم..

وانتقد ميلر المسرح الأمريكى. وقال إنه بعيد جداً عن الواقع. إن رواياته إما أن تقول إننا قد خسرنا كل شىء.. وإما أنه لا توجد مشاكل على الإطلاق. وكلا الأمرين خطأ!

وقال ميلر إنه حين بدأ يكتب للمسرح كان إخراج المسرحية لا يكلف أكثر من ٥٠ ألف دولار. فقد ارتفعت التكاليف إلى ثلاثة أمثال هذا الرقم. وقد ارتفعت أسعار تذاكر الدخول بالتالى إرتفاعاً مخيفاً. والروايات لاهم لها إلا أن ترفه عن الذين قضوا يوماً شاقاً فى العمل. أو أن تثيرهم أو تصدمهم، وليس هذا هو رأى فى المسرح!

كتب جديدة

السياسة الأمريكية بنت ١٣ سنة

عيب السياسة الأمريكية أنها مراهقة! فإن عمرها لا يزيد على ثلاث عشرة سنة فقط !

هذا ما يقوله مؤلف أمريكي، اسمه لويس هال، اشتغل موظفا في وزارة الخارجية لمدة ثلاث عشرة سنة أيضا ! وذلك في كتاب جديد عن «سياسة أمريكا الخارجية» .

لماذا ثلاث عشرة سنة بالذات ؟

يقول المؤلف أن سياسة أمريكا الخارجية ولدت في ليلة عاصفة، هي ليلة ٢١ فبراير سنة ١٩٤٧ . ففي تلك الليلة اتصل مستر أتلي - رئيس وزراء بريطانيا في ذلك الوقت . بمستر ترومان، الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت أيضا وقال له : إن بريطانيا قررت أن تنسحب من اليونان! ان مشاكل بريطانيا الداخلية، واقتصادها المضطرب من أثر الحرب لا يسمحان لها بأن تتحمل أى أعباء أخرى ثقيلة.. ولذلك فهي تدعو أمريكا إلى أن تحل محلها، في أعباء الدفاع عن مصالح الغرب، في هذه المنطقة ووافق ترومان على الفور .. من تلك الليلة في رأى المؤلف تسلمت أمريكا رسميا قيادة المعسكر الغربى وحملت كل أعباء الغرب وبناء على ذلك : بدأت أمريكا تجد نفسها أزاء مواقف تضطرها إلى اتخاذ قرارات متوالية، من مجموعها بدأت تتبلور سياسة أمريكا الخارجية، على النطاق العالمى، لأول مرة..

بعكس بريطانيا مثلا، التى تعودت أن تكون لها سياسة خارجية على النطاق العالمى، منذ مئات السنين

ويقول المؤلف : ان أكبر نجاح لسياسة أمريكا الخارجية في تلك الفترة كان مشروع مارشال في غرب أوروبا.. ولكن إزاء هذا النجاح كان هناك عشرات من أمثلة الفشل والخطأ، وأن طفولة السياسة الأمريكية الخارجية، وهى في الثالثة عشرة من عمرها فقط . هى سر كثير من التصرفات التى تثير سخط حتى الساسة الغربيين في البلاد العريقة الحليفة لأمريكا، كما تثير دهشتهم .

التقدم فى أى بلد.. سواء أكان
تقدما فنيا أم أدبيا أم سياسيا.. يمر
دائما بمرحلتين:

المرحلة الأولى هى مرحلة
«الترجمة».. والمرحلة الثانية هى
مرحلة «التأليف».. فى الأدب مثلا..
من السهل أن نلاحظ أن الحركة
الأدبية الحديثة عندما بدأت بترجمة
الفلسفة الأوروبية والمسرحيات
الفرنسية والروايات الروسية.. قبل
أن تظهر الرواية العربية والمسرحية
العربية والبحث الأدبى العربى
الأصيل..

عرفنا المنفلوطى الذى كان يترجم لنا
«ماجدولين» قبل أن نعرف توفيق الحكيم الذى ألف
لنا «عودة الروح» أو نجيب محفوظ الذى ألف لنا
«بين القصرين». وعرفنا مؤلفات طه حسين والعقاد
والمازنى عن الأدب الانجليزى والفرنسى، قبل أن
يقدم لنا طه حسين نفسه «الأيام» و«الفتنة الكبرى»
أو يقدم لنا العقاد سلسلة «العبقريات»..

وفى الصناعة.. ننظر إلى دولة مثل اليابان..
بوصفها الدولة الوحيدة خارج أوروبا وأمريكا التى
حققت ثورتها الصناعية كاملة رغم أنها دخلت

نحن لن

نقتل

الماضى

القديم..

كما أننا

لا نقتل

الآخرين!

أخبار اليوم.. فى:

٦٠ / ٧ / ٢٢

الصناعة في وقت متأخر.. لقد كانت تأخذ السلعة الأوروبية وتصنع مثلها بالضبط. أقل جودة طبعاً. ثم تبيعها في الأسواق.. حتى اشتهرت في إحدى الفترات بهذا النوع من المحاكاة الصناعية.. قبل أن تبدأ في تصميم إنتاجها الخاص بها وتتفوق في صناعات معينة.

دائماً هكذا. مرحلة «الترجمة» أولاً. ثم مرحلة التأليف والإبداع. هذا التدرج الطبيعي له «أولاً» سبب عملي واقعي. هو أن الإنسان يذهب إلى المدرسة حيث يتعلم، قبل أن يباشر حياته العملية بعد ذلك. وكل شعب ناشئ يذهب أولاً إلى الغير ليتعلم ما عنده، قبل أن يبدأ في رسم حياته بنفسه، مراعيًا ظروفه الخاصة..

المغلوب يقلد الغالب !

وهذا التدرج من الترجمة إلى التأليف.. له سبب ثان، هو سبب نفسي! هذا السبب النفسي لخصه مؤرخنا العربي القديم «ابن خلدون» في كلمة بليغة هي «المغلوب مولع أبداً بتقليد الغالب!!»

والمغلوب هنا هو كل من أرغمته الظروف على التخلف في عصر من العصور.. والغالب هو كل من أتاحت له ظروفه أن يتفوق ويتقدم على غيره في هذا العصر. فالمغلوب هو المتخلف والغالب هو المتقدم!

ومن الظواهر النفسية التي تشيع في كل عصر، أن الشعب المغلوب يعتمد - بغير وعى أحياناً - إلى تقليد الشعب الغالب حتى في مظاهر حياته وطرق تفكيره وسلوكه.. متوهماً أن هذه المظاهر هي سبب قوته وتفوقه.

وهذه الظاهرة التي تحدث عنها المؤرخ العربي القديم ابن خلدون.. تحدث عنها فيلسوف أوروبي حديث هو شبنجلر، وأطلق عليها اسم «التشكل الكاذب».. وقال: «إن هذا التشكل الكاذب يحدث عندما تضغط حضارة كبيرة قوية قديمة على حضارة جديدة ناشئة فتصبها في قالبها، وتعطيها أحياناً شكلاً كاذباً لا يمت إلى شخصيتها الحقيقية العميقة بصلة.. أو كما قال «إننا نجد أن كل ما ينبثق من أعماق هذه الروح الغضة، لا يلبث أن يصب في القوالب الفارغة التي تركتها هذه الحياة الأجنبية عنها!»

وقد روى غاندي في كتابه عن قصة حياته، حكاية طريفة تجسد لنا هذه الحالة التي تدفع إلى الترجمة قبل التأليف، وإلى التقليد قبل الإبداع.. فقال

انه كان شابا من عائلة تباتية، لم تذوق معدته طعم اللحم مطلقا. وكان في نفس الوقت شابا يتأجج وطنية غامضة مبهمة لا تعرف طريقها. ثم عرف يوما أن الانجليز يأكلون اللحم دائما، بعكس النباتيين الهنود! وقال لنفسه: لابد أن هذا هو سر تفوق الانجليز على الهنود! لابد أن أكل اللحم ثلاث مرات في اليوم هو الذي يجعل الانجليزى قويا ذكيا يملك العلم والسلاح والحضارة.. وقرر غاندى أن يبدأ بنفسه في الرسالة الوطنية وأن يأكل اللحم! وفي غفلة من أهله ذهب يوما إلى أحد المطاعم، حيث افترس كمية هائلة من اللحم.. وعاد مسرعا إلى البيت ينتظر النتائج!! وإذا بمعدته التى لم تتعود هذا اللحم تمرض مرضا شديدا.. ويهزل غاندى هزالا كاد يورده موارد الموت! وكانت آخر مرة أكل فيها غاندى اللحم.

ساق غاندى هذه القصة ليقول انه لا يجب مطلقا أن ينصب التقليد على المظاهر وحدها.. أو أن تضللنا بعض الاعتبارات عن الحقائق الجوهرية.

نقلنا سباق الخيل قبل المصانع!

وكلنا نعرف نموذج الشاب الذى يذهب إلى إنجلترا مثلا فيعود وهو يشرب «الباب» مثل الانجليز لأنه يظن هذا دليلا على الحضارة؟ أو الذى يرى نجوم السينما الأمريكان فيتصرف مثلهم لأن هذا هو أسلوب حياة المتمدنين!!!

وكلنا نعرف أن بلادنا في هذا القرن نقلت عن الانجليز سباق الخيل وسائر مظاهر حياة الانجليز، قبل أن تنقل عنهم الصناعة مثلا أو التقدم العلمى.

والنظم السياسية والاجتماعية أيضا تمر بمرحلة الترجمة.. ثم بمرحلة التأليف.

ولا داعى للأسهاب في سرد الشواهد التاريخية. ولكننا نعرف من تاريخنا السياسى القريب، في الثلاثين أو الأربعين سنة الأخيرة.. أن هذه المرحلة كانت على الأغلب في حياة كل البلاد العربية مرحلة ترجمة في السياسة والاجتماع. كان كل فريق من المثقفين أو الواعين قد أعجبه النظام السياسى أو الاجتماعى في بلد من البلاد المتفوقة، هو على الأغلب الذى سافر إليه وتعلم فيه، في بريطانيا أو فرنسا أو أمريكا أو روسيا.. فمضى

يترجم عنه.. ويدعو إلى تطبيق هذه الترجمة عندنا! وقد ترجمت وطبقت عندنا بالفعل نظم سياسية كانت صورا حرفية من نظم فرنسا وبريطانيا وغيرها..

إن الذين ينقلون شكليات الحياة ومظاهر النظم، لا يعرفون أن هذه الشكليات والصور سبقها تطور وتقدم أهم وأعمق. فالترف في أى مجتمع جاء بعد جهاد شاق لإنجاز الثورة الصناعية وبعد إقامة الأساس المادى القوى لهذه الحياة..

شئ آخر.. هو أن مرحلة الترجمة، وحالتها النفسية الخاصة بها، تصاحبها حالة نفسية أخرى من الرجوع إلى الماضى..

والرجوع إلى الماضى لاستلهامه والتأثر به ليس عيبا. بل انه أيضا ضرورى. فالماضى هو ماضينا، موجود فى نفوسنا شئنا أم لم نشأ. ونحن لا نستطيع أن ننقطع عنه. ولو انقطعنا عنه لخسرنا شيئا كثيرا.

ولكن الذى أقصده هنا هو نوع آخر من الترجمة أيضا. فكما أن هناك ترجمة عن المجتمعات الأخرى.. فهناك أحيانا «ترجمة حرفية» للمجتمعات الماضيه والقرون الغابرة..

الترجمة عن الماضى

وأضرب لذلك بعض الأمثلة:

● فى الترجمة عن الماضى مثلا.. نجد أن بعض الناس يريدون قطع صلتنا بالماضى قطعاً ولا يدخلونه فى حسابهم مطلقاً. وهذا خطأ. لأن جزءاً كبيراً فى أساس وحدتنا العربية مثلا يرجع إلى الماضى ولا شك. ولكننا نجد فى الطرف المضاد لهؤلاء الناس، ناساً آخرين، يروعونهم ما كان عليه العرب من مجد ونجاح منذ اثنى عشر قرناً، فيحسبون أن كل ما نحتاج إليه هو أن نرى ماذا كان يصنع العرب منذ ١٢٠٠ سنة ثم نصنع مثلهم. وهذا أيضا خطأ فاحش وانحراف خطير. فهذه الـ ١٢٠٠ سنة لم تمر هدراً وعبثاً. وقد تطور فيها العالم وأضيف خلالها إلى التراث العلمى والفكرى والمعنوى إضافات هائلة خطيرة. وتقليد ما كان من ١٢٠٠ سنة مضت معناه الموت. معناه ألا نعيش فى سنة ١٩٦٠.

● وفى الترجمة عن الحاضر.. أضرب مثلاً بالنظرية الماركسية. فهناك

من الناس من يأخذونها وكأنها دين منزل من السماء، تأخذها كله أو تتركه كله، ويجب أن تأخذها كله، وهم يريدون تطبيقها على بلادنا كما حدث أن طبقت في هذا البلد أو ذاك، وهذه ترجمة جامدة حمقاء.. والذين ينادون بها هم ضحايا المراهنة السياسية والكسل العقلي والتبعية النفسية. إنهم ينعزلون عن الواقع. لأن إيمانهم الجامد بالنصوص جعلهم يصرفون جهدهم إلى محاولة إرغام الواقع — في مخيلتهم طبعاً؟ — على أن يناسب النظرية المجردة.. بدلاً من أن يعملوا على تطوير النظرية المجردة بما يناسب الواقع.

وفي الطرف المقابل لهؤلاء نجد ناساً إذا ذكرت الماركسية أمامهم أزاحوها كلها جانباً، دون أن يجدوا الشجاعة على درسها وضمها وأخذ ما ثبت صحته منها. وهذا خطأ آخر فاحش. لأن من يصنع هذا إنما يعزل نفسه عزلاً عميقاً عن أفكار أساسية أضيفت إلى التراث العالمي وأصبحت جزءاً منه، بما فيه من صواب وخطأ.

لابد إذن أن نجتاز مرحلة الترجمة إلى مرحلة التكيف.. ونجتازها في الوقت المناسب.. لابد أن نضيف إلى «العلم» الذي قرأناه.. «الواقع» الذي نحياه! خصوصاً فيما يتعلق بالنظم السياسية والاجتماعية. إن النظم السياسية والاجتماعية مادتها الأولى هي الإنسان والإنسان معدن خاص يختلف عن معادن الحديد والنحاس وغيرهما! إن الحديد مثلاً يمكن إذابته وطرقه وثنيه بطرق واحدة وبدرجات حرارة واحدة في أى مكان من العالم. لأن الحديد هو الحديد في أى زمان ومكان. أما الإنسان فهو معدن آخر. خصائص الإنسان الأساسية وغرائزه وحاجاته واحدة في كل مكان.. ولكن هذه الخصائص الأساسية يدخل عليها كثير جداً من عوامل البيئة والتراث والظروف والثقافة ومستوى الحياة والموقف الجغرافي والمرحلة التاريخية التى يمر بها..

هذه الحقيقة تقتضى منا أن ننظر إلى تجارب الآخرين، وعيوننا على بلادنا.. وعلى ظروفنا الخاصة بنا..

لقد آن لنا أن نجتاز مرحلة المراهقة السياسية في حياتنا! لقد اجتازت بلادنا معارك صعبة أنضجت وعيها وأرھفت حسها، وأحرزت انتصارات

دعمت ثقتها بنفسها.. ونحن في هذه المرحلة يجب ألا نتعالى مطلقاً على الترجمة والاستفادة من كل التجارب الانسانية.. مادمنا لا نفقد القدرة ولا الشجاعة على الاضافة والتجاوب مع ظروفنا الحقيقية.

وبعد...

هذا بعض تفسير، لقول جمال عبدالناصر في مجلس الأمة أول أمس «إننا لم نتهمك في النظريات بحثاً عن حياتنا إنما انهمكنا في حياتنا بحثاً عن النظريات.. فلم نترك أي عقائد نفترض وجودها على غير واقع، توجه سير أحداثنا وتصنع تاريخنا».

كيف

قامت كندا

بدور

» الميسور

الشريف «

في النزاع

بين أمريكا

وبريطانيا

أثناء

حرب

السويس !

أخبار اليوم .. في

٦٠ / ٨ / ٢٧

قضيت عشرة أيام في كندا...
ست ليال منها نمت خلالها في
الفنادق.. وأربع ليال نمت خلالها في
القطارات! فهذه البلاد الشاسعة، لا بد
أن تقضى فيها أغلب الوقت متحركاً،
على عجل، حتى تستطيع أن ترى
جانبا بسيطا منها!

ومع ذلك.. فهذه البلاد الهائلة..
التي تزيد مساحتها على أوروبا
كلها.. وتزيد على مساحة الولايات
المتحدة كلها.. لا يسكنها سوى
سبعة عشر مليوناً من البشر! ومنطقة

مثل الدلتا في الجمهورية العربية المتحدة.. التي
يسكنها حوالي ثمانية ملايين من البشر.. أي حوالي
نصف سكان كندا كلها.. هذه الدلتا لا تزيد
مساحتها على أي بحيرة مثلاً من مئات الآلاف من
البحيرات التي تطرز أرض كندا!

نعم.. مئات الآلاف من البحيرات! والشخص
الميسور الحال في كندا يستطيع بما يساوي ١٠٠٠
جنيه أن يشتري بحيرة، وقطعة أرض تحيط بها! وفي
البحيرة يستطيع أن يصطاد، وأن يسبح، وأن يضع
قارباً بخارياً أو شراعياً! وفي عطلة الأسبوع لا نرى
إلا سيارات تجرى في الطرق وكل سيارة تجر

وراءها قاربا بخاريا على عجالات صغيرة.. مسرعة إلى البحيرات! والطبيعة الجميلة الغنية الهائلة هنا جعلت السكان القليلين يحبونها، ويهرعون إليها في كل لحظة تسنح لهم... يلقون بأنفسهم في أحضان الجبال والغابات والبحيرات.. شيء آخر يخيل لي أنه جعل الناس هنا يحبون الطبيعة إلى هذا الحد، هو: الشتاء الرهيب الطويل.. الذي تتجمد فيه الشواطئ والأنهار والبحيرات.. ويغمر الثلج فيه الطرقات والبيوت ويدفن الأزهار.. شهورا طويلة بيضاء جرداء. تخنق الألوان وتسجن نبض الحياة..

إن الحرمان من الشيء هو الذي يشعر الإنسان بقيمة هذا الشيء.. والحرمان الذي يفرضه الشتاء الطويل هو الذي يجعلهم فيما أعتقد، حين يطلق الربيع سراحا لحياة، يتلهفون هذه اللفة على الاندماج في مهرجان الطبيعة الهائل!

وكندا فيها رخاء ضخم. وهي من هذه الناحية جديرة بسمعتها لدى الكثيرين الذين يفكرون فيها كأنها أرض المن والسلوى. مستوى المعيشة مرتفع والأسعار غالية. والعمل والكسب ميسور. ومرتب الخادم والطباخ عند أى سفير يصل إلى ٨٠ جنيها في الشهر لأن الخدم والطباخين لا يوجدون في البيوت مطلقا إلا عند أصحاب الملايين وكبار الأغنياء والسفراء ومن إليهم. كنت جالسا في كافيتريا فندق «لورنشيان» في مدينة مونتريال ساعة الفطور. وجاء وجلس إلى المائدة معى رجل متقدم في السن، أبيض الشعر. في صحة جيدة. وبدأ يتناول فطوره أيضا. وهذا شيء مألوف في ساعات الزحام. ونظر الرجل في دهشة إلى علبة السجائر التي أحضرتها معى من القاهرة وقال لي: أى نوع من السجائر هذا؟

وقلت له انها سجائر مصنوعة في الجمهورية العربية المتحدة.. وأبدى اهتماما بالأمر. وعلمت منه أن اسمه «بيكارو» وأنه من كبار أصحاب الملايين في كندا. وأنه المالك الرئيسى في ١٨ شركة مختلفة من بينها شركة تليفزيون ومصنع سجائر ومصنع لورق الصحف.

وتحدثت معه طويلا عن كندا، وكان مهتما ببلادنا وقال إنه كان على وشك أن يذهب في الشتاء منذ سنتين إلى القاهرة بحثا عن الشمس كما قال له الأطباء ولكن حوادث العراق ولبنان أعطته إحساسا بأن المنطقة كلها مضطربة.

وقال لي مسيو بيكارو:

— إتنى من أصل فرنسى. أبى جاء إلى هذه البلاد وهو فى العشرين من عمره.. فقيرا.. لا يملك شيئا.. ولا يعرف القراءة والكتابة. والآن أصبحت أنا مليونيرا.. وأخى الأكبر مليونيرا وأخى الأصغر مليونيرا!

إن أبى الفرنسى تزوج من أمى الإيرلندية. وأنا ليس لى أولاد ولكن عندى ثلاث بنات، ومن قد تزوجن من شبان أمريكان، أعطيتهم أعمالا هامة فى شركاتى فتجحوا... والآن تجنسوا جميعا بالجنسية الكندية!

هذه هى كندا. لا يهتم فيها الدين ولا الجنس ولا اللغة. المهم أن تعمل وتجتهد وتشق طريقا لكى تحقق حياة من الرفاهية!

وفى مونتريال أيضا.. جزمجى أرمنى من القاهرة اسمه بدروسان، أخذ أمه العجوز وذهب إلى كندا. واشتغل ساعيا فى محل تجارى كبير. ثم أصبح بائعا فى قسم السجاد بالمحل، ووصل مرتبه وعمولته فى المحل إلى ٣٠٠ دولار فى الشهر. ثم قرر أن يستقل بمحل خاص به لتجارة السجاد فقط. وأصبح الآن إيراده حوالى ٢٠٠٠ دولار فى الشهر. وهو يعتبر نفسه مبتدئا بالطبع! ولكن أمه العجوز لم يعجبها طعم الحياة رغم كل هذا... فقررت أن تعود إلى القاهرة وتتركه يجرى وراء ملايينه فى كندا!

وليس معنى هذا أن الناس كلهم أصحاب ملايين. أو أن الحياة هناك تمضى بلا مجهود. فالتناس هنا مجدون. وعندما قضيت ليلة فى قرية «تشالك ريفر» حيث يوجد مركز الأبحاث الذرية... ذهبت فى الصباح إلى المطعم الذى يفطر فيه غير المتزوجين من سكان القرية. ووقفت فى طابور طويل كله من الشبان والشابات... المتعلمين طبعا.. كلهم فيما يشبه «العفريته الزرقاء» أولادا كانوا أم بنات. كلهم يلتهمون فطورهم قبل يوم طويل من العمل الدقيق الشاق فى هذه القرية النائية التى ليس فيها سيما ولا أى شىء من هذا القبيل. رهبان فى هذه الأرض الغنية الحافلة.. يحاولون أن يكونوا على صلة بما يحمله العلم الحديث من تطور جديد ومستقبل جديد.

المشكلة التى تزعج الكنديين فى كل هذا الرخاء وهى مشكلة فعلا - أن أغلب رؤوس الأموال المستثمرة فى البلاد أمريكية.

وقد وقف ديفنبيكر رئيس وزراء كندا يلقي محاضرة في إحدى الجامعات الأمريكية... وكان صريحا للغاية. قال لمستمعيه الأمريكيان: إن أمريكا يجب أن تعيد النظر في علاقاتها الاقتصادية مع كندا...

إن ٦٠٪ من صناعات كندا تملكها رؤوس أموال أمريكية! ومع ذلك فهذه الشركات الأمريكية ترفض أن تطرح جانباً من أسهمها في السوق الكندية ليشتريها الكنديون..

إن ٦٠٪ من صادرات كندا، يذهب إلى أمريكا. و ٧٣٪ من واردات كندا، تشتريها كندا من أمريكيان أي ولاية أمريكية، تبيع في كندا أكثر مما تبيع ألمانيا الغربية كلها مثلاً في كندا! ومع ذلك فإن أمريكا تتبع سياسة الحماية الجمركية تجعل كندا لا تصدر لها إلا خامات أو مواد نصف مصنوعة.. في حين أنها تشتري من أمريكا صناعات كاملة.

ثم إن كندا تعتمد إلى حد كبير على تصدير حاصلاتها الزراعية. ولكن سياسة أمريكا في تصريف فائض محاصيلها الزراعية الخارج في برامج المساعدات، تؤدي إلى هبوط الطلب على صادرات كندا الزراعية!

واستطرد ديفنبيكر يقول: إن هذا كله أدى إلى جعل الحياة الاقتصادية في كندا تتأثر بأي قرار يتخذ في واشنطن أو نيويورك! انتهى كلام مستر ديفنبيكر...

ومن الأشياء التي تبدو غريبة للعين العربية: تعدد اللغة!

إن اللغتين الرسميتين هنا هما الفرنسية والانجليزية. لافتات المحلات وتذكرة القطار وورق البنكنوت... كل شيء تجد أن البيانات عليه مكتوبة باللغتين الانجليزية والفرنسية معا. وهناك صحف انجليزية وصحف فرنسية ومحطات اذاعة انجليزية وفرنسية وتليفزيون انجليزي وتليفزيون فرنسي. وقد تركب «تاكسي» في منطقة ما فتكتشف أن سائقه لا يعرف إلا الفرنسية. وقد تركب مصعداً فتجد أن عامل المصعد لا يعرف إلا الانجليزية.. وأوتواوا كلها تقريبا انجليزية.. في حين أن المرشد السياحي في مونتريال يقول لك: ان مونتريال هي أكبر بلد في العالم يتكلم اللغة الفرنسية بعد باريس! لأن عدد سكان مونتريال حوالي مليون ونصف مليون وليس في فرنسا مدينة بهذا الحجم بعد باريس! وإن كان واضحاً أن

اللغة الانجليزية هي التي تتغلب باستمرار. والواقع أنه اذا كانت كندا فيها فئات كثيرة جاءت من أماكن مختلفة ففيها باكستانيون وعرب وإيطاليون ويهود (وللمجتمع اليهودي في كندا حديث آخر... إلا أن كندا تتركز ملامحها الأساسية في ثلاث «لغات»:
«لغة فرنسية»... تتبدى في صورة مجتمع فرنسي، يرجع إلى عهد ما قبل الثورة الفرنسية.. ويحن دائما إلى الحضارة الفرنسية والروح الفرنسية.. وأغلب هذا المجتمع يتركز في ولاية «كويبك».. وأهم مدنها مونتريال وكويبك..

و«لغة انجليزية» تظهر في صورة الملكة اليزابيث المعلقة في كل مكان بوصفها ملكة كندا.. وفي العلم الكندي المشابه للعلم البريطاني... وفي البرلمان ودور الحكومة القديمة التي تشبه طراز البرلمان البريطاني.. وفي المساكن والشوارع بل والأحياء الكاملة التي تبدو قطعة من الذوق الانجليزي المعروف... بل وتظهر في أسماء الأحزاب.. فهنا أيضا يوجد حزبان: حزب المحافظين وحزب الأحرار، وهناك حزب ثالث يتكون سيحمل اسم حزب العمال! وأكثر المدن شيها بالطابع الانجليزي هي أوتاوا، العاصمة...

ثم هناك لغة ثالثة.. لغة أمريكية.. تظهر في ناطحات السحاب الشامخة التي تتصاعد يوما بعد يوم في وسط أحياء انجليزية أو فرنسية صميمة.. وتظهر في هذا الموج الهادر من السيارات والجرارات والبضائع والأموال! وأقرب المدن الكندية شيها إلى نيويورك مثلا.. هي مدينة تورونتو.

هذه اللغات الثلاث.. أو الملامح الثلاثة.. تراها واضحة في كندا.. تراها متعايشة متلائمة.. لا متصارعة ولا متناحرة.

ولعل وجود هذه العناصر الثلاثة جنباً إلى جنب هو الذي حمى كندا من أن تذوب تماماً في فرنسا أو بريطانيا أو أمريكا. فالتاج البريطاني والتراث البريطاني كانا ولاشك عاصما لكندا من أن تذوب تماماً في كيان أمريكا الساحق. كما أن الارتباط الاقتصادي بأمريكا جعلها لا تذوب تماماً في كيان بريطانيا، وجعلها تختلف في علاقاتها مع بريطانيا قليلاً عن علاقة

بلاد أخرى في الكومنولث، كاستراليا مثلا أو نيوزيلندا.. وسنرى أثرا من آثار هذا بعد قليل...

وقد يدفعنا هذا إلى القول بأن المجتمع الكندي ليس مجتمعا واحدا له شخصية قوية واحدة. وقد يدفعنا إلى القول بأن هذه العناصر لا تذوب في بوتقة واحدة كما تذوب العناصر في أمريكا مثلا وتتحول بسرعة إلى جنس واحد.. وأن كندا لذلك هي في الواقع «كيان مادي» أكثر مما هي كيان معنوي.

والواقع أن هذا الكلام قد يصح على فترة ماضية، ولكنه لا يصح تماما بالنسبة للحاضر أو بالنسبة للمستقبل. فقد بدأت كندا تبحث عن شخصية قومية خاصة بها..

وأظن أن السياسة الدولية بدأت تلعب دورا في هذا التكوين.. وأكبر أحداث السياسة الدولية التي كان لها أثر عميق في حياة كندا هو: حرب السويس!

إن كندا تمسك في أيديها بثلاث حلقات هامة وأساسية:

- المعسكر الغربي...
- الكومنولث البريطاني..
- أمريكا..

حرب السويس

هذه هي الارتباطات الأساسية الثلاثة التي تتمسك بها كندا وتستند إليها استنادا عميقا. ولكن هذه الكرات الثلاث اصطدمت اصطداما عنيفا خلال حرب السويس.. وعندما طرح موضوع الحرب بيننا وبين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة...

بريطانيا وأمريكا - وكل منهما لها ارتباط أساسي بكندا، وكلتاها عضو في المعسكر الغربي وهو الارتباط الثالث بكندا - بريطانيا وأمريكا اختلفتا في التصويت حول هذا الموضوع في الأمم المتحدة. ولأول مرة كان على كندا أن تختار بينهما...

وفي داخل الكومنولث... بكلمات لستر بيرسون وزير خارجية كندا في

ذلك الوقت وزعيم المعارضة فيها الآن.. في تلك الليلة، انقسم الكومنولث انقساما عنيفا لأول مرة. استراليا ونيوزيلندا وقفتا مع بريطانيا إلى آخر الحدود.. بينما وقفت الهند وباكستان وسيلان ضد بريطانيا. وأصبح من الممكن أن ينشق من الداخل الكومنولث إلى معسكرين: معسكر بريطاني ومعسكر آسيوي.. في تلك الليلة التاريخية التي وصفها بيرسون.. قررت كندا أن تتزعم معسكرا حياديا « في داخل المعسكر الغربي.. ومعسكرا حياديا » في داخل الكومنولث. وقد وصف بعض الساسة الكنديين هذا الدور بأنه دور «السمسار الشريف» في داخل المعسكر الغربي والكومنولث الذي يحاول أن يسير وراء العدل ويحاول التوفيق بين الطرفين... ولكن عناصر أخرى في السياسة الكندية قالت أن دور «السمسار الشريف» هذا لا يكفي، إنما يجب أن تكون كندا أكثر إيجابية من هذا.

ويضيف الكنديون إلى هذا سببا آخر جعلهم أكثر اهتماما بالسياسة الخارجية وجعلهم يبحثون عن دور أكثر إيجابية والسبب هو أن كندا لم تعد أحد أطراف الدنيا البعيدة عن الأحداث، كان هذا قديما عندما كانت الحروب تقع في أوروبا وفي الشرق، فكانت كندا تبدو البلاد البعيدة الآمنة التي لا يمسه خطر. ولكن كندا الآن تقع بين أمريكا والاتحاد السوفيتي مباشرة، أمريكا والاتحاد السوفيتي هما الجارتان الوحيدتان الملاصقتان لها! ولعلها تنفرد بهذا الموقع دون سائر أجزاء العالم كله. وكندا مرتبطة بأمريكا في نظامها الدفاعي.. وقواعدها العسكرية، ولكن هناك شعورا متزايدا بضرورة المساهمة إيجابيا في حفظ السلام.. لأنهم في حالة الحرب، قد يكونون من أول ميادين الصراع!

وفي نفس الوقت، تعتقد كندا أنها تستطيع أن تقوم بدور إيجابي لمصلحة الغرب... حيث تحتفظ بهذه «السمعة»... إذ تستطيع أن تساهم في كثير من الميادين الدولية، حيث لا تستطيع دول الغرب أن تساهم مساهمة مباشرة، أما نتيجة لسمعتها الاستعمارية القديمة، وأما نتيجة لعلاقاتها المتوترة مع المعسكر الشرقي.. وهكذا رأينا كندا تبرز حيث تنشأ قوات للطوارئ الدولية... وحيث تحتاج بلاد أفريقية ناشئة إلى المساعدة.

الزائر الذي يأتي أول مرة إلى هذه البلاد الكبيرة الغنية.. سوف تفاجئه أشياء تبدو له غريبة.. حتى يالفها أو يعرف تفسيرها..

مثلاً : إن يكتشف أن أهالي مدينة واشنطن — العاصمة ! — ليس لهم حق التصويت في انتخابات رئاسة الجمهورية.. ! كل أهالي الولايات المتحدة، رجالاً ونساء، لهم حق الاشتراك في اختيار رئيس الجمهورية ماعدا سكان العاصمة !

إن تفسير ذلك يكمن في الكراهية القديمة، العميقة، في نفوس الأمريكيين جميعاً لكلمة «الحكومة» أو «الدولة».

إن شعب هذه البلاد قد يكون من المهاجرين الذين جاءوا من أوروبا فراراً من سطوة الحكومة أو اضطهاد الكنيسة أو استبداد أمراء الاقطاع. جاءوا إلى هذا العالم الجديد.. وفي عزم كل واحد منهم أن يصنع لنفسه الحياة التي تحلو له .. واثقاً من أنه يستطيع أن يعتمد على نفسه وإن كل مايريده هو ألا يتدخل أحد في شئونه. ومن هنا جاءت الفردية الهائلة التي هي طابع الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

نظرة

أولى ..

إلى

انتخابات

الرئاسة

في أمريكا

أخبار اليوم .. في

٦٠ / ٩ / ٢

وعندما تطورت هذه المجتمعات المهاجرة والمغامرة بحيث أصبح لا بد لها أن تتحول إلى أمة وإلى دولة وإلى حكومة.. جعلوا دور الحكومة صغيرا ضئيلا بقدر ما يستطيعون. ولما كان لا بد - إلى جانب الحكومات المحلية والبرلمانات المحلية في كل ولاية - لما كان لا بد إلى جانب هذا من حكومة اتحادية وبرلمان اتحادى.. انتزعوا قطعة أرض صغيرة من إحدى الولايات.. وجعلوها مقرا لهذه الحكومة وهذا البرلمان.. في مدينة واشنطن وضواحيها وجعلوا سطوتها محصورة في أضيق الحدود.

وتاريخ الفكر السياسى في الولايات المتحدة ملئ بعدم الثقة في الحكومة، أى حكومة ! فرجل مثل «أمرسون» يقول : إن كل الحكومات فاسدة!!.. ومفكر آخر يقول : «الحكم الأحسن هو الحكم الأقل!».. وعندما اتخذت الولايات المتحدة شعارا لها في أحد العصور كلمة «نحن نؤمن بالله».. انتشر شعار آخر ساخر يقول «نحن نؤمن بالله، ولانؤمن بالحكومة!».

المواطن الأمريكى تربى منذ نشأة الكيان الأمريكى على أن يزدري السلطة السياسية.. والرغبة في ألا يتدخل أحد في شئونه. وامعانا في هذا الشك العميق في الحكومة، قرر حرمان كل سكان العاصمة من حق الاشتراك في ادخاب رئيس الجمهورية! لأن العاصمة هى مقر الدولة. وأغلب سكانها من موظفى الحكومة! ومن السهل التأثير على موظفى الحكومة لكى يعطوا أصواتهم لصاحب السلطة !

ولاشك أن واشنطن هى العاصمة الوحيدة في العالم كله.. وربما في تاريخ النظم الانتخابية.. التى لا يجوز لها أن تشترك في انتخاب رئيس الجمهورية !

وقد استطردت قليلا في التعليق على هذه النقطة.. لأننا سنعود إليها بعد قليل.

التليفزيون

نموذج ثان.. من النماذج التى يراها الزائر هنا غريبة.. بعد وصولى إلى نيويورك بأيام، والمعركة الانتخابية قد بدأت تحتدم، افتتحت إحدى محطات التليفزيون الكبرى في المدينة قسما خاصا لاعطاء

دروس لرجال السياسة المبتدئين يتعلمون فيها كيف يظهرون على شاشة التلفزيون.. وكيف يؤثرون في السامعين والتحقق بهذا القسم عدد كبير من الذين سيحاربون في هذه الانتخابات في مختلف أنحاء الولايات المتحدة إلى جانب هذا المرشح أو ذاك، وأخذوا يتلقون الدروس على أيدي مخرجين أكفاء: ما هو أحسن زاوية يظهر بها وجهك على شاشة التلفزيون. متى تجلس على مقعد وثير مريح وانت تخاطب الجمهور لكى تنشر بينك وبينه احساسا بالألفة.. وكيف يجب أن تجلس أمام مكتب إذا كنت تخاطبهم في موضوع تريد أن تشعرهم بخطورته.. كيف تقرأ ويظن الناس انك ترتجل.. كيف تبدو مخلصا مؤمنا بما تقول.. لماذا يجب أن تلبس بدله لونها «سادة» غير مخطط!

ولكن هذا النموذج أيضا لا يبدو غريبا، إذا وضعناه في إطار المفهوم الأمريكى للسياسة. أن الرغبة القديمة في تقليل دور الحكومة لا بد أن تقترن بالتقليل من دور السياسة. ولذلك أصبحت السياسة في أمريكا حرفة يزوالها بعض الناس، وليست شيئا يهتم به ويشترك في مزاولته كل الناس. فأنت حين تكره السياسة لاتهبها حياتك وأكثر الذين اشتغلوا بالسياسة في أمريكا اشتغلوا بها فترة من الزمن، ثم عادوا إلى أعمالهم الاصلية في الحياة الخاصة. أما الذين يحترفون السياسة حقاً فهم عدد قليل.. ليس في الصف الأول ولا الصف الثانى.. ولكنهم في أجهزة الاحزاب والهيئات.. أشبه بوكلاء أعمال نجوم السينما مثلاً.. وهؤلاء هم الذين يذهبون إلى دروس التلفزيون لأنهم سيقومون بأدوار هامة في مناطقهم خلال المعركة الانتخابية لحساب هذا المرشح أو ذاك!

سهولة التأثير في رأى العام

وقد أدى عدم اهتمام الأمريكى العادى بالسياسة.. وخصوصا السياسة الخارجية.. وتركها لفريق قليل من الناس يتصرفون فيها.. أدى هذا إلى أن أصبح التأثير على رأى العام الأمريكى في هذا المجال سهلاً. فالأجهزة التى «تحترف الرأى» كالصحافة والإذاعة والتلفزيون تستطيع أن تقنع الرأى العام بأى شىء.. ومن هنا كان سهلاً على أى فئة كالصهيونية مثلاً - أن تصمم وتتفرغ للتأثير على الرأى العام الأمريكى..

وأن تنجح في ذلك إلى حد بعيد... إن الرأي العام الأمريكي تعود أن يصدق السياسي المحترف كما تصدق أنت مثلا الرجل الذي يصلح لك جهاز الراديو أو التليفزيون. فهذه هي حرفته. ولا داعي لأن تناقشه وتخالفه مادمت لا تفهم في علم الكهرباء !

هذه كلها.. بعض العوامل العميقة الجذور في نفس الرأي العام الأمريكي.. والتي تترك أثرها على مثل هذه المعركة الانتخابية الراهنة.. ولكن كثيرا من هذه العوامل قد طرأ عليها تغير خطير.

وقد طرأ عليها هذا التغير الخطير بفعل عاملين أساسيين: الأول هو الحرب العالمية الأخيرة.. والثاني هو المنافسة التي يشنها الاتحاد السوفيتي والتحدى الذي بلغ قمته باطلاق السوفيت لأول قمر صناعي. لقد بدأ كل أمريكي يشعر أن الاهتمام بالسياسة الدولية شيء أساسي. فالعالم لم يكن بعيدا عن أمريكا إلى هذا الحد. والاحداث التي تدور في آسيا وإفريقيا وأوروبا لم تعد تدور في كوكب آخر، كما كان المواطن الأمريكي يشعر من عهد قريب.

النجاح الساحق الذي لا مثيل له.. والذي حققه الشعب الأمريكي النشط الذي يتدفق حركة وحيوية.. هذا النجاح الساحق السريع.. زرع في نفس أمريكا احساسا بأن نظامه هو أحسن النظم. وأنه ليس على الآخرين إلا أن ينتهجوا نفس الطريقة ليصلوا إلى نفس النتيجة. أو كما يقول المفكر الأمريكي «ماكس ليرنر»: إن الأمريكي يرى أناسا من كل الأجناس يأتون إلى بلاده ويتحولون إلى أمريكيان.. فإذا سافر إلى الخارج فإنه يدهش حين يرى الناس خارج بلاده لا يريدون أن يتحولوا إلى أمريكيان !!

ولكن هذا الاقتناع الذي نما نموا طبيعيا في نفس الأمريكي أصيب بصدمات عنيفة في السنوات الأخيرة. أولا بفعل الصدمات التي منيت بها السياسة الأمريكية الخارجية في أماكن كثيرة من العالم، وثانيا بفعل النجاح العلمي الكبير الذي سبق إليه الاتحاد السوفيتي في السفر إلى الفضاء.. بعد أن كانت أمريكا، دائما، هي السباقة في كل هذه المجالات. كل هذا جعل أمريكا تمر الآن بفترة هامة من «إعادة التفكير».. ومن «النقد الذاتي».. لعلها لم تمر بمثلها من قبل.

ولا أحد يتنبأ بما سوف يقرره الشعب الأمريكي في المستقبل. ولكن المؤكد أنه يشعر أن هناك أشياء في حاجة إلى التغيير والتعديل.. وان كان يختلف حول تحديد هذه الأشياء.. وحول درجة التغيير المطلوب ومداه.

ولا شك أن الحزب الديمقراطي هو الذي استطاع أن يسبق إلى ادراك هذه الحالة والامساك برؤسها، الدخول في المعركة إلى التغيير. وقد قاوم الحزب الجمهوري في أول الأمر هذه الريح الجديدة. وحاول أن يقنع نفسه وأن يقنع الناس بأن هذه الريح غير موجودة وقد كان هذا هو طابع سياسة ايزنهاور في السنوات الأخيرة في جميع الميادين السياسية والاقتصادية. وكان هذا أيضا هو شعار نيكسون. ولكن ريتشارد نيكسون، أدرك في اللحظة الأخيرة أنه إذا تمسك بسياسته والاحتفاظ بالحالة الراهنة فهو حاضر لامحالة في المعركة الانتخابية القادمة. بل لقد ظهر في داخل حزبه الجمهوري زعيم آخر هو روكفلر يحاول أن يبني سمعته على أساس الاعتراف بالحاجة إلى التغيير والعمل على مواجهتها في إطار سياسة الحزب الجمهوري. وفجأة، وقبل إنعقاد مؤتمر الحزب الجمهوري بليلة واحدة، طار نيكسون إلى عرين غريمه روكفلر، واجتمع به اجتماعا استمر من أول الليل إلى أول الصباح.. أعلن نيكسون بعده استسلامه للترغبة العامة في التغيير.. وبدأ يقيم حملته الانتخابية على أساس أنه، أيضا، ينوي تغيير أشياء كثيرة. وقد كان هذا صدمة أدبية للرجل العجوز ايزنهاور الذي لا يملك إلا تأييد نيكسون. وكان صدمة لرجال الحزب الجمهوري القدماء. ولكن نيكسون أظهر لهم أن عليهم أن يختاروا بين مجارات التيار العام أو الهزيمة المؤكدة.

وقبل أن أمضى في شرح بعض نقاط الخلاف بين الحزب الديمقراطي بزعامة جون كنيدي والحزب الجمهوري بزعامة ريتشارد نيكسون.. يجب أن أبرز نقطة أخرى هامة تضاف إلى الملامح التي سبق أن ذكرتها عن نفسية المواطن الأمريكي إزاء السياسة.

السياسة .. والنظريات

إن السياسة في تاريخ الأمريكي لم تأخذ أبدا شكل «النظرية السياسية» أو «العقيدة الايديولوجية»..

في أوروبا أولا ثم في أغلب بلاد العالم.. تعمل الحركات السياسية في ظل عقائد معينة.. اشتراكية أو رأسمالية أو شيوعية. كل حركة سياسية تحب أن تكون لها عقيدة عليا تؤمن بها وتعمل بناء على منطقتها. ولكن هذا لم يحدث في الولايات المتحدة الأمريكية مطلقا، صحيح أن في أمريكا حزبانازيا، وحزبا اشتراكيا، وحزبا شيوعيا، ولكنها كلها ليست أكثر من لافتات صغيرة على مبان تضم عشرات أو مئات. فهي لم تصل أبدا إلى درجة الحركات السياسية الكبيرة وقد ظلت دائما في معزل عن الشعب الأمريكي. بل أغلب الظن أن أكثر الأمريكيين لا يعرفون انها موجودة ! الأمريكي العادي في نفسه ازدرأ فطري للنظرية السياسية. فالنظرية أيضا.. أى نظرية.. هى نوع من القيد.. نوع من الالتزام.. نوع من التحديد السابق للخطوات القادمة.

وهذا يناقض طبيعة الأمريكي الفردية وطبيعته العملية على السواء. لذلك كان الأمريكي يفضل دائما في السياسة أن يسمع دعوة إلى قرارات معينة أو اصلاحات معينة في فكرة محددة ليستطيع بذلك أن يحكم لها أو عليها بناء على تقديره وأثرها عليه. ولهذا أيضا كان الأمريكي دائما يفضل أن يحكم على «الشخص» نفسه.. وأن يقول لنفسه أن هذا الشخص صفاته كذا وكفيل بأن يصنع كيت.. وهذا بعض مايفسر لنا كيف أن أغلبية الأمريكيين كانوا ديمقراطيين ولكنهم كانوا ينتخبون ايزنهاور مرشح الجمهوريين مرتين متواليتين ! وكيف انهم ينتخبون برلمانا ديمقراطيا وينتخبون رئيسا جمهوريا في نفس الوقت..

فالخلاف اذن بين الحزب الجمهورى والحزب الديمقراطى لا يمكن تفسيره على أساس أن لكل منهما «نظرية» سياسية تعارض نظرية الآخر. والذين يقولون انه لا يوجد بين الحزبين أى وقت، هم الذين يتوقعون أن يكون الفرق في العقيدة، كالفرق بين حزب العمال وحزب المحافظين في بريطانيا مثلا، وهذا أمر غير وارد في هذا المجال ..

تدخل الدولة

بعض الأمثلة..

● أعلن «كنيدى» في أكثر من مقال وأكثر من خطاب.. أن الدولة

أصبحت الآن تواجهه أعباء كثيرة خطيرة. إن الولايات المتحدة قد تراجعت عن مركز الأولوية في أكثر من ميدان بسبب سلبية «الدولة» وعدم شجاعتها في مواجهة التطورات الجديدة. وذلك فهو إذا تولى رئاسة الجمهورية سوف يتجه إلى «زيادة الاتفاق في القطاع العام» وترجمة ذلك أنه سوف يتجه إلى فرض ضرائب جديدة.. وأنه سوف يزيد من سلطة الدولة على مرافق كثيرة مثل التعليم والإسكان وما إلى ذلك.. وهي كلها أمور متروكة الآن للولايات وللنشاط الفردي الخاص.

ومعنى ذلك أن كنيدي في الواقع يدعو إلى نظام «حكومة كبيرة».. الأمر الذي يخالف الاتجاه الأمريكي التقليدي الذي يفضل «حكومة محدودة» والحزب الجمهوري يقف في وجه هذه الدعوة. بل أن بعض زعماء الحزب الديمقراطي، في بعض الولايات، أعلنوا أنهم سيؤيدون نيكسون.. «لأن كنيدي عازم على القضاء على أساس النظام الأمريكي الذي يقوم على فكرة حكومة اتحادية محدودة الاختصاصات»

ولا شك أن كنيدي يتجه هذا الاتجاه وعينه على تحدى الاتحاد السوفيتي لأمريكا فالإتحاد السوفيتي، لتوافر السلطة المركزية فيه، يستطيع أن يوجه التعليم الوجهة الفنية التي تلائم العصر وحاجات المجتمع ويستطيع أن يركز الصناعة على الأهداف الاستراتيجية مثل صناعة الصواريخ والأقمار الصناعية.. في ميدان النظام الاقتصادي والإداري في أمريكا لا يسمح بهذا إلا في بضع شديدة. لأن السلطة كلها في يد المؤسسات الفردية. وكنيدي طبعاً يفكر في طريقة يتغلب بها على هذه العقبة في إطار النظام الأمريكي الفردي.. ولكن هذا بالطبع لن يعفيه من المقاومة العنيفة التي يشنها المحافظون، مستندين إلى التقاليد العميقة التي سارت عليها أمريكا منذ نشأتها.

● والحزب الديمقراطي يقول إن الإتحاد السوفيتي يزيد إنتاجه بمعدل ٧٪ كل سنة.. وأنه يعلن جهاراً نهجاً أن هدفه هو أن يسبق أمريكا. ومعدل الزيادة في أمريكا ٣,٥٪ سنوياً، ولذلك يجب زيادة معدل النمو إلى ٥٪ على الأقل، وهذا معناه تشغيل المصانع بكل طاقتها تقريباً. والجمهوريون يقولون أن هذه السياسة سوف تؤدي إلى التضخم

وارتفاع الاسعار. وأن هذا سيؤدي بصورة أو بأخرى إلى مزيد من تدخل الدولة في مسائل أجور العمال وتحديد أسعار السلع.. وهذا أيضا مظهر من مظاهر تدخل الدولة البغيض إلى المحافظين .

● وقد أراد كنيدي أن يسجل لنفسه كسبا مرموقا بين فئات معينة في أثناء الحملة الانتخابية.. فقدم إلى الكونجرس مشروعين : المشروع الأول يقضى بزيادة الحد الأدنى لأجر العامل من دولار في الساعة إلى دولار وربع. أى حوالى دولار ونصف في اليوم زيادة. في الحد الأدنى، أى ما يقرب من ٣٥ أو ٤٠ دولارا في الشهر.

والمشروع الثانى يقضى بأن تقوم الدولة ، بالاشتراك مع الولايات ، في وضع نظام للتأمين الصحى لكل من يزيد عمره على ٦٥ سنة ويقل دخله عن ثلاثة آلاف دولار في الشهر..

وقد حضرت جلسة عاصفة للكونجرس هى آخر جلسة ناقش فيها قانون زيادة الأجور.. استمرت من الظهر حتى ساعة متأخرة من الليل! كان هناك جون كنيدي المرشح لرئاسة الجمهورية يدافع عن مشروعه.. وكان هناك زميله ليندون جونسون زعيم الأغلبية الديمقراطية في المجلس والمرشح الديمقراطى لمنصب نائب رئيس الجمهورية.. وكان هناك ديركسن زعيم الأقلية الجمهورية في المجلس.. ثم كل الأعضاء البارزين مثل فولبرايت ومانسفيلد وغيرهما.. اجتشدوا جميعا لهذه اللحظة الحاسمة.

ومع ذلك فإن هذه «اللحظة الحاسمة» لم تمنع من أن يصوت بعض الشيوخ الجمهوريين مع مشروع كنيدي .. وان يصوت بعض الشيوخ الديمقراطيين ضد مشروع زعيمهم ومرشحهم لرئاسة الجمهورية كنيدي ! كيف ؟

وقف عضو ديمقراطى وطالب باستثناء بعض المؤسسات من قانون زيادة الأجور. وطالب عضو ديمقراطى آخر باستثناء فئات أخرى.. ولم أفهم أول الأمر مغزى هذه الاستثناءات المطلوبة.. إلى أن ظهر من مناقشة الأعضاء العنيفة أن العضو الأول يدافع عن مصالح شركات الفنادق

الكبرى، مثل هيلتون وشيراتون وستاتلر، وأن العضو الثانى يدافع عن مصالح مصانع السيارات.

واضطر كنيدي، لكى يفوز مشروعه، أن يقف ويتنازل عن بعض أجزاء منه فأصبح القانون ينطبق على أربعة ملايين عامل بعد أن كان المفروض أن ينطبق على خمسة ملايين.

أما مشروع الرعاية الصحية لمن يزيد عمرهم على ٦٥ سنة.. فقد أثار عاصفة أخرى شديدة.

قال «بارى جولد ووتر» الزعيم الذى يعبر عن أفكار المحافظين أن هذه الأعمال يجب أن تترك للتبرعات ولؤوسسات الخير لا للدولة.

ونشرت اتحادات المهن الطبية إعلانات فى الصحف ضد المشروع تقول فيها مامعناه أن الدولة تحشر أنفها فيما لا شأن لها به.

وقال احد هذه الاعلانات العجيبة أن الأطباء يقررون أن العواجيز صحتهم جيدة كالشباب تماما، لا يختلفون عنهم إلا فى أنهم احتفلوا بأعياد ميلادهم مرات أكثر!! وقالوا ان تنبى الدولة لعلاج العواجيز فيه اهانة لهم.. إذ انه يجعلهم يشعرون أنهم أقل قدرة على الاعتماد على أنفسهم من سائر المواطنين!!

والمشكلة هنا أيضا هى : زيادة الضرائب، وزيادة تدخل الدولة وتغلغل اختصاصاتها فى جميع الولايات !

والمحافظون يطلقون على هذا الاتجاه نحو مسئوليات الدولة اسم : الاشتراكية المتسللة وهذا من باب التشهير طبعاً. ذلك ان كلمة الاشتراكية فى أمريكا هى التهمة التى تعرض المتهم بها للفشل الذريع! ولذلك فعندما سئل «نورمان توماس» زعيم الحزب الاشتراكى الأمريكى - وهو حزب متقاعد - والذى رشح نفسه ست مرات لرئاسة الجمهورية، ويبلغ من العمر ٨٦ سنة..

عندما سئل كنيدي فى التليفزيون هل يؤيد كنيدي أم نيكسون؟. قال ضاحكاً: لا أريد أن أؤيد واحدا منهما، لأن تأييدى سيكون بمثابة «قبلة الموت» بالنسبة له..

الدين .. !

يأتى بعد ذلك موضوع هام جدا بالنسبة للانتخابات، هو فئات الشعب الأمريكى وطوائفه .

شعب الولايات المتحدة الأمريكية فيه حوالى ٤٠ مليوناً من الكاثوليك وستة ملايين يهودى وسبعة عشر مليون زنجى .. ثم هناك أقليات أخرى كثيرة صغيرة العدد.. وتبقى بعد ذلك كتلة كبرى بروتستانتية من أكثر من مائة مليون..

وهناك أيضاً فئة كبرى يسمونها «العمال المنظمون» أى العمال الذين تضمهم اتحادات ونقابات، وعددهم حوالى ١٧ مليوناً.. تميزا لهم عن سائر الفئات العاملة فى كل مكان من الولايات المتحدة.

هذه «الجغرافيا البشرية» لابد أن يدرسها ويحيط بها كل من يتصدى لترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية..

وأبرز مشكلة هنا هى مشكلة الكاثوليك. ذلك أن جون كنيدي مرشح الديمقراطيين كاثوليكى. ولم يسبق فى تاريخ الولايات المتحدة كلها أن تولى رئاسة الجمهورية أى رئيس غير بروتستانتى. وقد رشح الديمقراطيون مرة فى سنة ١٩٢٦ مرشحا كاثوليكيا فانهزم هزيمة ساحقة بسبب مذهبه الدينى.

وقد تعرض كنى أول الأمر لحمولات عنيفة داخل الحزب تطالبه بالتنحى عن الترشيح لأن الشعب الأمريكى لن ينتخب كاثوليكيا لرئاسة الدولة. ولكن كنى هزم هذه الاعتراضات، بنجاحه فى الانتخابات التمهيدية فى بعض البلاد.. وبهجومه المباشر على استخدام الدين فى الانتخابات. وقد قال فى ذلك مرة. لا يمكن أن يكون مصير هذه المعركة قد تقرر يوم مولدى.

وقضية الدين هذه لا يتحدث عنها أحد.. ولكنها فى رأى الشخصى لم تندثر تماما.. ومن المؤكد أنها ستكون أحد العوامل المؤثرة فى الانتخابات القادمة.

أنصار كنى لا يعترفون علنا بأن الكاثوليك سينتخبون كنى بصرف النظر عن اتجاههم السياسى . لأن هذا قد يؤدى إلى رد فعل مضاد بين

أفراد الأغلبية البروتستانتية فينتخبون نيكسون.
وأنصار نيكسون لا يستخدمون حكاية الدين علنا ضد كنيدي.. وإلا فسوف يظهر كنيدي في هيئة المضطهد وقد استخدم كنيدي هذا بمهارة في الانتخابات التمهيدية ليحول عواطف الناس إلى جانبه.
ولكن الكثيرين جدا يهملون بها في أحاديثهم.. وما زال هناك شهران كاملا ن قبل يوم الانتخابات !
بعد ذلك يجيء سائر الفئات والأقليات وهنا نلاحظ فرقا بين التكتيك الذي يتبعه نيكسون والتكتيك الذي يتبعه كنيدي.
نيكسون يحاول ابراز نفسه كشخص عام، ليس نصيرا لفئة معينة نجح به ايزنهاور. ولذلك فهو مثلا يضع في «هيئة قيادة» حملته الانتخابية بعض الديمقراطيين الذين يعارضون كنيدي!
أما كنيدي.. فهو يحاول أن يضمن فئات معينة في عمليات حسابية دقيقة. ولذلك فهو أكثر اهتماما بكسب الفئات والطوائف.
وقد كسب كنيدي بالفعل «العمال المنظمون» ورؤساء اتحادات العمال في كل مكان يشنون الحملة من أجل انتخابه.
ومشروعاته الخاصة برفع الحد الأدنى للأجور والرعاية الصحية لكبار السن سوف تكسب له فئات أخرى محددة. يجيء بعد ذلك اليهود..
وبالرغم من أن نيكسون وكنيدي على السواء يهتمان بأصوات اليهود لعددهم أولا ولقوتهم في مجال الاقتصاد والمال والصحافة.. فإن مجهود كنيدي أكبر.. يساعده على ذلك أن نفوذ اليهود في الحزب الديمقراطي أكبر من نفوذهم في الحزب الجمهوري.
واليهود في أغلب الظن - يؤيدون كنيدي، وإن كانوا يهتمون بالأصوات البيضاء كونه في سلة واحدة ! ولذلك فعندما قال بعض المعلقين ان اليهود سيعطون أصواتهم لكنيدي.. وأنهم يريدون نجاح رجل من الأقلية الكاثوليكية لأن هذا يعني ، من حيث المبدأ ، انه يمكن أن يتولى رئاسة الجمهورية ، ذات يوم ، رجل من الأقلية اليهودية.. عندما قيل هذا ثاروا.. واحتجوا .. إن اليهود ليسوا «كتلة انتخابية» واحدة.. وأنهم سيعطون أصواتهم كأفراد .

لماذا ثاروا؟

لأن اليهود حريصون على ألا يشعروا سائر الأمريكيان بأنهم يكونون تكتلا خاصا له سياسة خاصة في داخل البلاد إنما هم مواطنون متفرقون. وهذا طبعا غير صحيح وولاؤهم للحركة الصهيونية ولمصالح إسرائيل لا شك فيه. ولكن ظهور هذه الحقيقة يضرهم كثيرا فهم يعملون دائما على اخفائها؟

الزنج والافريقيا والانتخابات

وأخيرا يأتي الزنج.

والكلام عن مشكلة الزنج طويل.. يحتاج إلى حديث مستقل. والصعوبة التي تواجه كلا من الحزبين هي: كيف يمكن ارضاء الزنج وكسب أصواتهم دون أن يؤدي هذا إلى فقد أصوات الولايات الجنوبية، المحافظة، التي مازالت تعارض أى سياسة تحررية إزاء الزنج. ولذلك فزعماء كل من الحزبين يتحدثون عن هذه المشكلة وكأنهم يسرون على حبل رفيع.

ولكن ظهور مشكلة افريقيا كان فرصة لكي يثبت كل من الحزبين أنه مهتم بقضية افريقيا.. وهي ناحية حساسة في نفس كل زنجي. آخر حكاية من هذا النوع أن الحكومة الأمريكية اعطت منذ مدة ٢٥٠ منحة دراسية لـ ٢٥٠ طالبا من كينيا. ولكن بقيت مشكلة نقلهم إلى أمريكا الأمر الذي يتكلف حوالي ١٠٠ ألف دولار.

وقالت وزارة الخارجية الأمريكية أنه ليس لديها اعتمادات لدفع هذا المبلغ.

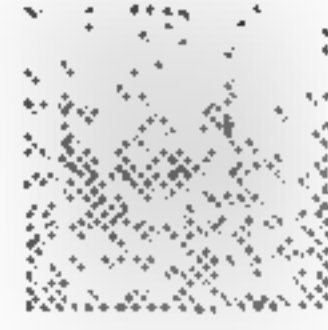
وأسرعت «مؤسسة كنيدي» التي أنشأتها أسرة جون كنيدي للأعمال الخيرية، وأعلنت أنها مستعدة لدفع هذا المبلغ إذا لم تدفعه وزارة الخارجية. وأرسل نيكسون أحد رجاله.. «جون شلبي» المحرر في مجلة تايم إلى وزارة الخارجية يوعدز إليهم بأن يدفعوا المبلغ بأي شكل، حتى لا يدفعه كنيدي.. فغيرت الخارجية رأيها ووافقت على الدفع.

وثار الديمقراطيون وقالوا ان نيكسون يستخدم أموال الدولة في أغراض انتخابية. وان الخارجية إنما غيرت رأيها بناء على تدخله.. وتطور

الأمر إلى معركة عنيفة بين الجانبين.
أما آخر من دخلوا المعركة فهم نجوم السينما في هوليوود.
والديقراطيون هناك يتزعمهم النجم الشهير فرانك سينا ترا.. وقد
ظهروا في مؤتمرات الحزب فعلا.
وقد رد الجمهوريون على ذلك بتكوين فرقة من نجوم السينما تدعو إلى
نيكسون.. أو مهمتها كما قالوا «خلق صورة دافئة لنيكسون في قلوب
الناس».. ومن أبرز أعضاء هذه الفرقة والتر بيدجون وماري بيكفورد
وايرين دن وجون وايرين.. أغلبهم كما ترى من الممثلين العواجيز.
وقد كتب أحد المعلقين في ذلك يقول: إن الممثلات قد نجحن دائما في
ترويج البضاعة التي يدعون لها.. ولكن يجب أن نحذر هذه المرة..
فالبضاعة هذه المرة سوف تجلس في البيت الأبيض!

قررت أن أركب القطار من دنفر (كولورادو) إلى سان فرانسيسكو. صحيح أن الطائرة تقطع المسافة في ثلاث ساعات فقط بينما يقطعها القطار في ثلاثين ساعة كاملة. ولكن هذا القطار بالذات يشق أجمل مناطق أمريكا وأكثرها تنوعا.

القطار فيه عربات نوم، وفيه صالونات أنيقة، وغرف تدخين ومطعم، وبار، ودكان صغير لبيع السجائر والأمشاط وأمواس الحلاقة والصحف التي يلتقطها القطار من



المحطات التي يتوقف عندها. وبعض عربات القطار لها طابق ثان، زجاجي، يصعد إليه المسافرون لكي يتمتعوا برؤية مشاهد الطبيعة الجميلة التي يمر بها القطار. والقطار كله مكيف الهواء.. وفيه مضيفة حسنة تشرح من حين لآخر، في ميكروفون، قصة الأماكن التي يمر بها القطار.. وتمر بالركاب لتسألهم في أي ساعة سوف يتناولون الغداء أو العشاء لكي تحجز لهم مكانا في المطعم.

أغلب ركاب القطار كانوا من السياح.. وكلمة السياح هنا لا تعني انهم أجانب. فالواقع انني ربما كنت الأجنبي الوحيد في القطار كله. ان السياح في

نهر

الزيبش

والمكة

الجبال !

أخبار اليوم .. في

٦٠ / ٩ / ١٧

أمريكا أغلبهم من الأمريكيان.. والخدمات السياحية كلها تعتمد على السياح الأمريكيان.. فالأمريكي لا يكف عن السفر والتنقل. وببلاده أشبه بقارة واسعة، إذا كان الجو بارداً في مكان فهو دافئ في مكان آخر. أما ركاب هذا القطار فقد كانوا هاربين من جهنم الحر والرطوبة في شيكاغو والولايات الوسطى إلى كاليفورنيا، إلى شاطئ المحيط الهادى .

وأغلب ركاب القطار كانوا من العواجيز.. ان العواجيز في هذه البلاد يتمتعون بشبابهم حقاً! لديهم المال الذى جمعه طوال العمر.. ولديهم الفراغ.. وبعكس العواجيز عندنا الذين يرون الشيخوخة سكوناً وركونا إلى الاستقرار وعدم الحركة، إلا حين يعترضون على الشباب.. وجدت أن العواجيز هنا يأخذون الشيخوخة على أنها حركة وانطلاق وسياحة، وفرجة على خلق الله وبلاد الله! في القطار كان يوجد ٢٠ امرأة على الأقل فوق السبعين من العمر.. كل واحدة منهن تحمل كاميرا، وتقفز إلى النافذة لتسجل هذا المنظر أو ذاك في استمتاع عميق. إن الانسان يسجل أيامه لكي يسترجعها بعد حين.. وكل واحدة منهن تحس انها - وهى فوق السبعين - مازال أمامها وقت طويل لكي (تسترجع) فيه!

وكان في القطار أيضاً بعض الأزواج والزوجات من الشباب.. بعضهم كانوا يتبادلون الاهتمام لدرجة تثير الشك في انهم ما زالوا في شهر العسل! ثم كانت هناك (الأسر الكبيرة) الأب والأم يبحثان دائماً عن خمسة أو ستة أطفال يبرطعون في انحاء القطار.. بالبيجامات وقمصان النوم في الليل وعند الفجر.. ثم بنات في العشرين يلبسن ثياباً وجودية وبنطلونات قصيرة هستيرية.. وواحدة منهن على الأقل كانت تحب أن تمشى حافية.. لا تلبس الحذاء إلا إذا دخلت غرفة الطعام في ساعة العشاء!

ووجدت أن هذا القطار فرصة فذة لكي أقرأ بعض ما معى من الكتب ففى كل مكان أنزل فيه كنت أشتري بعض الكتب وأقرأها، ثم أشحنها بالبريد إلى القاهرة لكي اتخلص من حملها. ولكن بعض المدن كانت تمنعنى من القراءة. ووجدت أن ثلاثين ساعة كاملة بلا عمل ولا نشاط فرصة نادرة وأخذت مقعداً وثيراً في أحد الصالونات بجوار نافذة كبيرة. هنا سأقرأ، واتفرج على المناطق الطبيعية الباهرة، وأتمتع بالشمس وأنا جالس

في قطار مكيف الهواء ! وبدأ لي هذا رائعا حقا .

وجلست بجوار رجل في حوالى الخمسين في يده كأس من المارمكيف وفي عينيه دعوة إلى الكلام يوجهها إلى كل من يقع نظره عليه.. زوجته العجوز تجرى بالكاميرا بين النوافذ، وهو يشجعها على أن تنصرف إلى التصوير، ويريد أن يحتفى منها بالانهماك في أى حديث مع أى رجل ! وكنت أنا الفريسة ! وبعد كلمات قليلة عرف اننى من القاهرة. وكأنه وجد متعة لم يكن يحلم بها ! كان أقصى أمله أن يجد رجلا يحدثه عن انتخابات أمريكا مثلا أو عن مزارع القمح التى يملك مساحات شاسعة منها.. وهاهو يجد رجلا سيحدثه عن افريقيا ونهر النيل والتماسيح والجمال والصحارى ! وفي تلك اللحظة جاءت المضيفة مرجريت تسألنا عن الوقت الذى نفضله للعشاء وأسرع فقدمنى لها على أننى شاب قادم من وادى النيل ! وتفتحت عينا الفتاة دهشة وترحيبا ! ان الناس في هذه المناطق النائية لا يرون الأجانب بكثرة. وإذا كان الأجنبى من الشرق الغامض الاسطورى يزيد دهشتهم.. دهشة أحيانا تصل إلى حد يشعر انك مخلوق غريب واقترح عليها العجوز الأحقق أن تعلن في الميكروفون أن في القطار شابا من وادى النيل، قائلا انه متأكد أن كثيرين سيحبون أن يسألوننى أسئلة كثيرة وقالت المضيفة إنه لا مانع لديها إذا كان هذا لا يزعجنى !

وقلت لها انه بالطبع يزعجنى جدا ! واننى سأبدو كأننى سأقدم لركاب القطار برنامجا مسليا نظرا لعدم وجود تليفزيون!. وضحكت الفتاة وانصرفت بسلام .

ولكننى من تلك اللحظة، فقدت حريتى ! فالنساء والرجال الذين كانوا في الصالون على الأقل سمعوا هذا الجوار وشاهدوه كله وعرفوا اننى قادم من بعيد.. ولم يعد ممكنا بعد ذلك أن اتمتع بالقراءة أو الوحدة أو التأمل ! .

إذا قرأت في كتاب.. فلا شك اننى أقرأ لكى أدفع الوحدة والملل.. وتتقدم عجوز شهمة لكى تسلينى بحديثها الممتع ..

إذا جلست أكتب على المكتب الصغير، يتجمع حوالى ثلاثة أو أربعة يتعجبون: كيف أكتب من اليمين إلى الشمال !

إذا طلبت زجاجة كوكاكولا قبل الطعام.. قال لي رجل: أه ! لقد سمعت

مرة أن بلادكم تمنع شرب الويسكى أو البيرة ! ماذا يصنع السياح إذن ؟
واضطر أنا أن أشرح له أن هذا ليس ممنوعا.. وأن السياح يأتون
ويشربون ما يشاءون !

ورغم أنني لا أجد ولا أصبر على مداعبة الأطفال وملاطفتهم.. فقد
وجدت أنني أصبحت أشبه بالمرشحين في الانتخابات هنا.. لا بد أن أثبت لهم
إنسانيتي.. بأن أداعب الأطفال، وأسأل عن المريض منهم في الصباح..
أسوة بسائر أهل القطار!.

وقد غمرني عطف العواجيز لدرجة لم تترك مجالا لأي عطف من البنات
ذوات الثياب الوجودية أو البنت التي تمشي حافية القدمين .

والواقع أن الأمريكي العادي طيب وعطوف. ولكن معلوماته عن العالم
الخارجي باهتة شاحبة إلى أقصى الحدود. وأحيانا مضحكة. وهو مستعد
للتصديق بسرعة إذا عرفت كيف تجعل له أي مسألة تبدو بسيطة غير
معقدة. وإذا افترضت أنه ليس لديه معلومات كثيرة سابقة عما تشرحه له.
والصحف في هذه البلاد إذا تركت نيويورك وواشنطن وتوغلت في قلب
القارة، لا تزود قراءها بأي ثقافة عن العالم الخارجي. فرغم أنها صحف
كبرى ولديها أموال طائلة وتوزع أرقاما ضخمة فإن اهتماماتها محلية إلى
أقصى الحدود. أخبار أمريكا السياسية نفسها لا تحظى بنفس الاهتمام
الذي تحظى به الأخبار المحلية للولاية أو المدينة .

وفي بعض ما قرأت خلال الرحلة من أدب أمريكي.. إشارات طريفة إلى
هذا.

فجريدة النيويورك تايمز هي التي تعد جريدة سياسية كبرى. لأنها
تركز اهتمامها في القضايا السياسية المحلية والعالمية على السواء. ولذلك
فإن قراءها محدودون.

في مسرحية «منظر من الكوبري» لارثر ميلر.. حوار بين فتاة كبيرة
وشباب في السادسة عشرة يعمل معها في متجر كبير.. تقول له الفتاة
«لا تحزن! لا يهمك سخرية زملائك لأنك تختلف عنهم ! اقرأ النيويورك
تايمز كما تشاء ولا تكف عن أحلامك في أن تدخر نقودا وتدخل الجامعة !» .
وفي قصة «عشاء في بروكلين» للكاتب الأمريكي «أناتول بروبارد»

يصف ميدانا مزدحما فيقول «انه غاص بكل أنواع الناس.. رجال الأعمال والاولاد والمجرمين والعاهرات والذين يقرأون النيويورك تايمز والسكيرين و.. و..» فالذين يقرأون النيويورك تايمز هم نوع من الناس.. يريد بذلك طبعا الذين يهتمون بالمسائل العامة !

.. والقطار ساعة ينطلق بسرعة هائلة في وديان عميقة.. تحف بها تحف بها جبال شامخة مكللة بالثلوج في هذا الصيف اللافح مغطاة بالأشجار.. وساعة يتلوى كالثعبان على السفوح المنحدرة، يسير ببطء شديد كأنه يتشبث بالسفح ويخاف السقوط.

وفي بعض الأحيان كان القطار يسير في أخاديد عميقة وحشية.. تحف به صخور عارية تماما.. ليس فيها ورقة خضراء واحدة.. صخور حمراء اللون.. وصخور في لون البن المحروق.. كأن الطبيعة هنا تظهر عضلاتها القوية الصماء.. الجارحة !.

وأجمل المناطق يمر بها القطار عندما يصل إلى نهر الريش ! أطلق عليه هذا الاسم أول من اكتشفه .. حين وجده مغطى بريش الطيور.. انه ليس نهرا بمعنى الكلمة. ولكنه مجرد خط رفيع ضحل من الماء يترنح على صخور وعرة في واد ضيق كثيف الأشجار..

ومن هذه الفجوة في جذر الطبيعة انطلق المهاجرون منذ مائة سنة بحثا عن الذهب.. فاكتشفوا كاليفورنيا ووصلوا إلى المحيط .

وكلنا قرأنا ونحن صغار قصة الرجل العجوز الذي قال لابنائه وهو على فراش الموت انه دفن في الحقل كنزا من الذهب وأوصاهم أن يقلبوا الأرض حتى يعثروا عليه، ولما مات أخذ أولاده يقلبون الأرض ويحراثونها فتزداد خصبا ويزداد ثمرها.. حتى عرفوا أن هذه الثمار هي الكنز الذهبي الذي أشار إليه أبوهم .

وهذا ما حدث للذين ساروا بجوار نهر الريش بحثا عن الذهب. لقد اغرتهم مناجم الذهب القليلة في أول الطريق بالاندفاع.. ولكنهم لم يجدوا ذهباً فيما وراء ذلك، وإنما وجدوا أرضا نادرة في خصبها، وفي تمتعها بأجمل جو طوال السنة.. فانطلقوا يزرعونها ويقيمون فيها، حتى أصبحت كاليفورنيا.. كنز أمريكا وربيعها الدائم وبستانها المثقل بالفواكه !.

وعندما وصلوا إلى المحيط.. أقاموا أجمل مدن أمريكا كلها.. وعلى رأسها سان فرانسيسكو.. أقاموها على أحد عشر جبلا تحيط بها المياه. وأطلقوا عليها اسم: ملكة الجبال !

قصص أمريكية

حدث هذا في أمريكا .

● ملعب هائل .. ومباراة حامية في البيسبول .. وعشرات الآلاف من المتفرجين .

وتظهر في الأفق طائرة.. تهبط فوق الملعب حتى تكاد تلمس رؤوس المتفرجين. وتقف آلاف من المنشورات عنوان المنشورات «قد يحدث هذا لك! ماذا تصنع إذا عدت إلى البيت ووجدت أحد المحامين في فراش زوجتك؟» ثم يروى المنشور كيف أن كاتبه وجد محاميا مشهورا في فراش زوجته. المحامي عضو في مؤسسة كبيرة قوية للمحاماة . وبذلك فهو يكرس المحاماة والقضاء للحيلولة دون الزوج وأخذ حقه عن طريق القضاء ! كما يكرس نفوذه لمنع الصحف من نشر اتهامه وشكواه ! ولذلك لجأ الزوج إلى هذه الطريقة ليفضح بها المحامي الكبير !!

● في شيكاغو.. خرج رجل من السجن بعد أن قضى فيه أكثر من عشرين سنة. الرجل مجرم سابق ومن خصوم آل كابوني زعيم العصابات المشهور منذ ٣٠ سنة. كان أحد الذين اعترفوا على آل كابوني ووشى بأعضاء عصابته في بعض القضايا .

ركب الرجل سيارة إلى بيت أخته وهو يتفرج على الدنيا التي تغيرت بعد ربع قرن من دخوله السجن . وعلى باب بيت أخته انهال عليه الرصاص كالطر من مدفع رشاش.. وسقط ميتا.. وهرب القتل !

قالت الصحف انه تأر.. عمره ربع قرن من بعض الذين اعترف عليهم من العصابات الأخرى القديمة !

● أول سائق سيارة في العالم يصبح لديه سائق خاص به !

زنجي يعمل سائق سيارة تاكسي في نيويورك. اقتصد مبلغا من المال واشترى سيارة رولز رويس فاخرة بحوالي أربعة آلاف جنيه ! ثم استعملها كتاكسي يستأجره زوار المدينة باليوم أو بالساعة !

التاكسى الوحيد للرولرزويس.. وليس له عداد وليس له لون شركات
التاكسى !

زوار المدينة من هواة الفخفخة والظهور كتنجوم السينما وكبار
الفلاحين وملوك البترول، يستأجرون السيارة بسائقها الزنجى بأسعار
تصل إلى ٢٠ جنيها فى اليوم الواحد! عندما جاء خروشوف إلى المدينة،
استأجرت له البلدية هذه السيارة الفاخرة !

زاد الضغط على السائق الزنجى فاشتري لنفسه سيارة أخرى عادية
واستأجر سائقا لكى يوصله كل يوم إلى مقر السيارة الرولرزويس ويعيده
منها إلى البيت !

قال سائق السيارة انه يتقاضى من مخدمه جوالى ١٠٠ جنيه فى
الشهر !

● أكاديمية العلوم الطبية أعلنت أن شابا وشابة عمر كل منهما لا يزيد
على ١٧ سنة توصلا إلى اكتشاف علمى خطير قد يقود إلى اكتشاف أول
علاج للسرطان !.

الشاب أمريكى أبيض والشابة أمريكية زنجية.. كلاهما يدرس فى أحد
المستشفيات.. قررت الاكاديمية تزويدهما بكل ما تستلزمه مواصلة
ابحاثهما !.

سافر توفيق الحكيم إلى باريس حيث عاش أكثر من سنة . وقبل سفره أعلن انه يذهب إلى هناك ليرى ويحس آخر التطورات والتيارات التي تعصف بهذا العالم .. وليسجل هذا كله في عمل فنى كبير ، يتفرغ له هناك ، بعيدا عن الأضواء .

وقد ظهر في السوق أمس هذا العمل الفنى الذى وعده به توفيق الحكيم .. وقد جاء هذا العمل مسرحية جديدة اسمها « السلطان الحائر » .. وقالت لنا المقدمة إن

توفيق الحكيم طبعها باللغة الفرنسية أولا ، فى باريس، تحت اسم « اخترت ! »

أما المشكلة التى اختارها توفيق الحكيم من بين المشاكل العالمية ، بكلمات المقدمة . « عندما كان المؤلف فى باريس يقضى فترة يشهد فيها ما يجرى فى عالم اليوم » فإن وحيها هو ذلك السؤال الذى يقف عالما اليوم حائرا أمامه : هل حل مشكلات العالم هو الاحتكام إلى السيف أم إلى القانون ؟ فى الالتجاء إلى القوة أو إلى المبدأ ؟ .. ان أصحاب السلطان يقفون الآن وفى يمتناهم القنبلة الذرية أو الهيدروجينية وفى يسراهم القانون أو المبادئ .. فى

المسرحية

الجديدة

لتوفيق

الحكيم

أخبار اليوم .. فى

٦٠/١١/١٢

جانب القواعد الصاروخية وفي الجانب الآخر هيئة الأمم ، وهم حائرون خائفون لا يدرون .. أو هم لا يجرؤون على اتخاذ القرار الحاسم : أيهما يطرحون وأيهما يستبقون ؟ أيهما يطرحون وأيهما يحتاج إلى شجاعة أكبر أيهما يعرض لخطورة أفدح ! . هذا الموقف الحائر الخائف من مسئولية الاختيار النهائي بين السيف والقانون قد جر العالم كله معه إلى هذه الحيرة الشاملة والاضطراب العام .

ولابران هذا المعنى .. اختار توفيق الحكيم إطارا شرقيا قديما هو عصر المماليك ..

قفى ساحة المدينة نجد رجلا مربوطا إلى عمود ، وبجواره جلاد ، مكلف بأن ينفذ فيه حكم الاعدام إذا أذن المؤذن لصلاة الفجر .. ولكن غانية تسكن البيت المقابل في الساحة تستطيع أن تؤخر المؤذن عن مواعده فلا ينفذ حكم الاعدام .. إلى أن يستطيع المحكوم عليه ان يرفع شكواه إلى السلطان الذي يجيء إلى الساحة ومعه الوزير وقاضى القضاء لمحاكمة الرجل ..

ويظهر ان تهمة الرجل هي أنه قال في الأسواق ان السلطان عبد رقيق كان مملوكا من ممالك السلطان المتوفى ، ولكن السلطان المتوفى لم يعتقه قبل أن يموت كما يحدث عادة .. ولذلك فالسلطان مازال عبدا .. وبالتالي فهو لا يستحق أن يكون حاكما شرعيا للبلاد ..

لقد علم الوزير بما يقوله هذا الرجل فقرر ان يعدمه . ولكن السلطان حين جاء وعلم بالأمر سخر منه ..

فالأمر ليس سوى إشاعة سخيقة .. ويكفى ان ينشر على الناس بيانا بنص وثيقة العتق التي حررتها من ملكية السلطان المتوفى كسائر المماليك ولكن الوزير يضطرب ويصارع السلطان لأول مرة بأن السلطان المتوفى - فعلا - قد نسى أن يعتق السلطان الحال قبل أن يموت ، وأنه لا توجد وثيقة بهذا المعنى في خزائن الدولة ..

ونحن بذلك نواجه موقفا غريباً ..

ان السلطان رجل عظيم وحاكم عادل محبوب . والبلاد كلها تتمنى بقاءه . ولكن ها هو ذا قد اعترضت طريقه مشكلة قانونية غريبة .. فما العمل ؟ ..

ان الوزير يقول للسلطان انه لاجل لهذه المشكلة إلا السيف . يكفى ان يقطع السلطان رقبة هذا الرجل لكى تخرس اللسنة فى المدينة ، وينتهى الأمر ، وما هذا إلا لمصلحة البلاد التى تحتاج إلى هذا السلطان ..
أما قاضى القضاة فله رأى آخر لابد من تنفيذ حكم القانون مهما كان سخيفاً . فبهذا تتحقق المصلحة الحقيقية للسلطان ، وللبلاد ، وفى المدى الطويل ! وحكم القانون هنا سخييف حقاً ! فحيث ان السلطان كان من ممتلكات السلطان الراحل .. وحيث ان السلطان الراحل ليس له وريث .. اذن فالسلطان الحالى من ممتلكات الدولة ! وحيث انه بهذا الوصف لا فائدة منه للدولة بل انه يكلفها أموالاً فالقانون يقضى بأن يباع السلطان فى المزاد العلنى .

ويقترح قاضى القضاة .. ان يباع السلطان فى المزاد العلنى فعلاً كما يقضى القانون .. ولكن بشرط أن يتعهد من يشتري السلطان مقدماً بأن يعتقه فوراً بمجرد شرائه .. وبذلك يصبح السلطان حراً ، ويصبح حائراً للشروط القانونية التى تخوله تولى الحكم !
ولكن من الذى سيدفع ثمن السلطان ثم يعتقه ؟ يقول القاضى انهم كثيرون وان السلطان رجل عادل مصلح محبوب .. وسوف يقبل الناس على شرائه وعتقه كعمل وطنى !

ويسخر السلطان أولاً من هذا الاقتراح ! خصوصاً عندما يتصور كل ما يمكن أن يحل بهيبة الدولة عندما يباع سلطانها فى المزاد ! ان السلطان حائر « بين القانون الذى يظهره ضعيفاً ويصيره أضحوكة أو السيف الذى يصمه بالوحشية ويجعله بغيضاً ! » والقاضى يقول له « انى معترف بما للسيف من قوة أكيدة ومن فعل جاسم وأثر سريع . ولكن السيف يعطى الحق للأقوى ، ومن يدرى غداً من يكون الأقوى ، فقد يبرز من الأقوياء من ترجح كفته عليك ! أما القانون فهو يحمى حقوقك من كل عدوان ، لأنه لا يعترف بالأقوى .. انه يعترف بالأحق ! .. والآن ، فما عليك يا مولاي سوى الاختيار بين السيف الذى يفرضك ولكنه يعرضك (بفتح العين وتشديد الراء) وبين القانون الذى يتحداك ولكنه يحميك .
وبعد حيرة طريفة يختار السلطان حكم القانون ويعرض السلطان فى

الفصل الثاني في المزاد ! ولكن الذى يشتريه هو الغانية ! وبعد أن تشتريه تعلن أن الشرط الذى يحتم عليها أن تعتق السلطان بمجرد شرائه باطل لأنه مناف لعقد البيع ! ويثور القاضى .. ولكن أليس هذا هو حكم القانون ! انه آخر من يحق له أن يثور بعد أن كان متحمسا للقانون !

ويحاول القاضى أن يجد تفسيرات للقانون .. فيسخر منه السلطان هذه المرة « خيبت ظنى فيك يا قاضى القضاء ! أهذا هو القانون فى رأيك ؟ اجتهاد وبراعة فى التحايل والتلاعب ؟! » .. وهنا يلمس الحكيم ناحية هامة خطيرة فى القانون : ان القانون نفسه شىء والتلاعب والتحايل على حكمته شىء آخر ! « مع القانون هناك دائماً حجة تقارع حجة ، وكلها لا تخلو من العقل والمنطق ! »

ومرة أخرى تثبت فكرة السيف مستحيل أن يتحول السلطان إلى عبد مملوك لغانية ! ولكن السلطان يريد أن يمضى مع حكم القانون إلى النهاية .. وتقول الغانية له أنها لا تريد أن تملكه إلا ليلة واحدة فقط .. وأنها سوف تطلق سراحه وتعتقه إذا أذن المؤذن لصلاة الفجر ! ويقبل السلطان !

ونعرف بعد ذلك أن هذه السيدة ليست غانية ! وإنما اشترت السلطان ليلة واحدة بكل ما تملك لا لشيء إلا لتكسب احترام المدينة ، وهى لا تريد منه أكثر من أن يجلس فى بيتها ويحدثها حتى يطلع الفجر !

وعندما تنتهى المسرحية .. ويعود السلطان إلى عرشه نعرف أن الذى خلصه وحماه هو احترامه للقانون .. ويقول السلطان « لم أكن أعرف أن احترام القانون يحتاج إلى شجاعة أكثر من استخدام السيف ! »

ولاشك أن المسرحية على هذا النحو أقرب إلى الصراع بين السيف والقانون فى مجتمع البلد الواحد .. منها إلى مشكلة السيف والقانون فى المجتمع الدولى .. فالصراع بين الحق والقوة فى المجال الدولى له فيما يخيلى لي صورة أخرى تماماً ..

ومع ذلك فالسؤال الذى اختاره مؤلفنا الكبير هام حقاً .. والنقطة التى تقلل من قوة إقناعها للقارىء هى : ان النصر الحقيقى أو الحل الحقيقى للمؤلف لم يجرى عن طريق السيف أو عن طريق القانون .. لقد كان كل طريق يحمل فى طياته مخاطرة خاصة به ..

ان السلطان رجل صالح عادل محبوب ولكنه لو كان قد بدأ باستخدام
السيف، حتى لتدعيم سلطته العادلة ، لقاده هذا السيف إلى سفك الدم مرة
بعد أخرى .. ولربما كان هذا نقطة تحول تغيره من سلطان عادل محبوب
إلى طاغية مكروه واستخدام القانون كان يحمل أيضا مخاطرة ، إذ كان
ممكنا أن يقع السلطان فعلا في يد مشتر جاهل أو معرض أو سخييف ..
ويضيع السلطان العادل المرتجى ويموت متكفنا بنصوص القانون ما الذي
حمى السلطان اذن من هذا المصير ؟

حماه ولاشك رأى الشعب فيه واحترامه له .. فهذا هو الذي جعل ضياع
السلطان على هذا النحو مستحيلا .. وضد طبيعة الامور .. فالقانون في حد
ذاته «شكل» فحسب .. لا بد ان يكون له «موضوع» جيد ..

ولا أدري هل طاف هذا المعنى بذهن توفيق الحكيم أم لا ، ولكننى على
أى حال لم أجده واضحا في سطور المسرحية ..

هذا عن المسرحية من الناحية «الموضوعية» .. أما من ناحيتها الفنية ..
فإننى أتمنى أن أراها أولا على خشبة المسرح حتى تتوافر عناصر الحكم
عليها .

عدت إلى القاهرة بعد أن قضيت
شهرين كاملين في أمريكا كانا أول
زيارة أقوم بها إلى هذا « العالم
الجديد » .

والانطباعات التي عدت بها من
هذين الشهرين ، يمكن أن أنفق في
كتابتها وتسجيلها وتحليلها شهورا
طويلة ، وهو ما لا أنوى أن أقوم به
طبعا . ان أهمية مثل هذه الزيارة هي
أن انطباعاتها تظل مخزونة دائما في
ذهن الكاتب كلما قرأ أو كلما كتب عن
البلد الذي زاره وتعرف عليه..

ولكني أريد أن أكتب مقالا واحدا ، أسجل فيه
انطباعاتي سريعا ، عاما ، عن هذه البلاد الهائلة التي
تشغل مثل هذا الحيز الضخم من اهتمام العالم ومن
تفكيره ومن التأثير في مصيره.

وسوف أستبعد من هذا المقال بالذات، الجانب
السياسي. ان رأيي في السياسة الأمريكية يشتمل
فروعها معروف، وأنا أكتبه كلما جاءت المناسبة..
وزيارتي لأمريكا لم تغير رأيي فيما أرى أنه خطأ أو
صواب في سياستها. وان كانت هذه الزيارة قد
أعطتني تفسيرات جديدة بسبب الخطأ والصواب في
هذه السياسة.

رأيت

في

أمريكا

أخبار اليوم : في

٦٠ / ١٠ / ١٥

والمصاعب التي تواجه من يريد الكتابة عن أمريكا - حتى كمجتمع فقط - كثيرة جدا، وهي مصاعب ومزالق أحب أن أسجلها مقدما.. حتى لا أقع فيها وأنا أكتب.. وحتى لا يقع فيها القارئ وهو يقرأ..

مشاكل الكتابة عن أمريكا !

أول صعوبة هي ان أمريكا بلد قوى جدا وإذا أخذنا بأرقام الانتاج فهي أقوى دولة في العالم كله، وبعض ولاياتها أقوى من دول عظمى مثل ألمانيا الغربية أو بريطانيا أو فرنسا. فهي بلد قوى جدا وضخم جدا، والقوة في حد ذاتها كثيرا ما تضلل. فالناس بفطرتهم ميالون إلى اعتبار القوة في حد ذاتها دليلا على الصواب ودليلا على النجاح. وهذا افتراض خاطيء. لقد كان هتلر مثلا قويا. وكانت ألمانيا في عهده قوية جدا. ولكن هذا لا يعنى ان هتلر كان على صواب أو أن الشعب الألماني كان يعيش ويفكر كما يجب أن تعيش الشعوب وتفكر. لابد اذن من ادراك أسباب القوة وتحليلها قبل اتخاذها دليلا على الصواب وعلى النجاح..

الصعوبة الثانية في الكتابة عن أمريكا هي أنها قارة شديدة التنوع. عندما تكون الدولة صغيرة.. مناخها واحد، مساحاتها متقاربة، شعبها من أصل واحد، يكون من السهل الوصول إلى أحكام عامة على هذا الشعب، ولكن أمريكا قادرة شديدة التنوع، مساحتها هائلة. مناخها مختلف، شعبها كله مهاجر من مختلف أنحاء العالم هجرات ليست بعيدة في بطون التاريخ. لا يمكن مثلا أن تزور نيويورك وتخالط أهلها وتقرأ صحفها ثم تحكم على أمريكا. ان واشنطن شيء آخر. وشيكاغو شيء آخر. وكاليفورنيا. وتكساس. وكولورادو.. وعشرات المناطق الأخرى.. كل واحدة لها صحفها ولها ناسها ولها آراؤها ولها مناخها ولها مصالحها. فمن الصعب اذن اطلاق أحكام عامة مختصرة على أمريكا. التبسيط هنا صعب وخطر ويمكن أن يضللنا إلى حد بعيد..

الصعوبة الثالثة التي أحب أن أسجلها هنا، هي أن أمريكا لها صورة سابقة راسخة إلى حد بعيد في أذهان الناس. ومن السهل - والخطأ - أن يذهب الزائر فيقع تحت تأثير الصورة السابقة في ذهنه عن أمريكا. وإذا به يبحث هناك عما يؤكد هذه الصورة الراسخة في ذهنه، بدلا من أن ينظر إلى

الأشياء نظرة متحررة من كل قيد. والصورة المرسومة لأمريكا رسمتها لها السينما الأمريكية والبضائع الأمريكية. انها بلد السابحات الفاتنات والسيارات الكبيرة الملونة ورعاة البقر والعصابات والرقص واللهو والحياة السهلة وأصحاب الملايين والسذاجة الشديدة. وكثير من هذا صحيح ولا شك. وفي أمريكا بالفعل كميات هائلة من ناطحات السحاب والسيارات الكبيرة والسابحات الفاتنات والعصابات والسذاجات الشديدة. ولكن هذا ليس كل شيء. وأضرب لذلك مثلاً بالجامعات، وهى من الأماكن التى اهتمت بزيارتها..

بين الجد واللعب !

لقد رأينا كلنا هنا أفلاما كثيرة تدور حوادثها فى الجامعات، والصورة التى تعطىها هذه الأفلام هى ان الجامعات فى أمريكا أماكن يتطارح فيها الشباب الهوى، ويحاصر فيها الطلبة بيوت الطالبات، وأنها أماكن للرقص والتهريج ولبس الطراير، وأن الأساتذة فى هذه الجامعات لا هم لهم إلا حل المشاكل العاطفية للطلبة والطالبات. ولكن هذا ليس كل شيء. ان الجامعات الكبرى فى أمريكا من أكثر الجامعات فى العالم دراسة وجهدا وارهاقا. البرامج صعبة ومرهقة وفترات العمل طويلة وصارمة، وقد قال لى كثير من طلبتنا وطالباتنا الذين يدرسون هناك انهم يكدحوا كدحا لى يكونوا فى مستوى الدراسة المتقدمة هناك. وقد أطلعونى على برامجهم وجداولهم وتمارينهم. ومن المؤكد أن طالب الجامعة فى أمريكا يبذل ضعف جهد الطالب عندنا على الأقل !

هذا نموذج بسيط، وانى لا سمح لنفسى فى هذه المناسبة، أن أوجه نقدا إلى كثير جدا من الكتابات الصحفية التى نقرأها فى صحفنا لكتابنا الذين يزورون العالم الخارجى ويكتبون عن الحياة فيه. اننا نقرأ على الأغلب الجانب الظاهر من هذه الحياة بما فيها من مرح أو رخاء أو تقدم. ولكن قراءنا لا يجدون الكفاية عن الجانب الآخر. عن الجهد الذى أنتج هذا الرخاء. عن التعب الذى يسبق هذا المرح. وتكون النتيجة أن القارئ كثيرا ما يتوهم أن هناك أبسطة سحرية تحمل الناس والمجتمعات إلى هذه النتيجة. ولكن الحقيقة هى أن البساط السحري الوحيد هو العمل..

والشعب الأمريكي مثلاً من أكثر الشعوب التي زرتها عملاً.. وهو يعمل عملاً شاقاً ومرهقاً وعنيفاً. إن رخاءه جاء بعد صراع عنيف ضد الطبيعة لاستخراج فحمها وحديدتها ولضاعفة محصولاتها ولترويض جبالها وغاباتها وتلويجها. ناطحات السحاب والسيارات الملونة والسباحات الفاتنات ليست أمريكاً. إنها أفران الصلب ومصانع الطائرات والحقول التي تجرى فيها التجارب لزيادة طول كيزان الذرة، وسائقو اللوريات الذين يقودون السيارات طوال الليل حاملين أطنان المواد الخطرة والمكاتب الهندسية التي تسهر في حساب ملايين المكعبات لأقامة المباني العجيبة. إن الناس هناك يتمتعون بحياتهم حقاً. ولكنهم يسفحون آخر قطرة من عرقهم قبل أن يتمتعوا بهذه الحياة. إن البيت المتوسط فيه الثلاجة الكهربائية والفرن الكهربائي والحلة التي تطبخ في دقائق والغسالة الكهربائية التي تغسل الأطباق.. إلى آخره. ولكن هذه الأشياء لم توجد في البيت لكي تجلس المرأة على الشلّة طول النهار أو لتثرثر مع الجيران، إنما وجدت لكي تجرى المرأة إلى عمل تقوم به وتكسب منه. ولكي توفر المرأة أجر الخادمة والطباخ والغسالة والمكوي.

وأول ما يلفت النظر في أمريكا بالطبع هو الرخاء العريض والتقدم المادي الذي لا عهد للمجتمعات البشرية بمثله من قبل. ولست في حاجة هنا إلى أن أسرد أرقام الانتاج الضخمة التي تقول إن أمريكا تستهلك ٧٠٪ مثلاً من الورق الذي يستهلكه العالم كله.. إلى آخر هذه الاحصاءات. ولكننا إذا أخذنا السيارة مثلاً كنموذج فسوف نجد أن الولايات المتحدة يجري على أرضها ٨٥ مليون سيارة خاصة، أي بمعدل سيارة لكل شخصين. وانتاج أمريكا المطرد من السيارات الخاصة يصل إلى ٢٠٠٠٠ سيارة في اليوم الواحد. وإذا كانت السيارة الجديدة الكبيرة يصل ثمنها إلى آلاف الدولارات، فإن أي طالب من طلبتنا هناك مثلاً يدخر من مرتبه ويشترى سيارة قديمة بمائة أو بمائتي دولار.

هل عندهم «صفة» سحرية؟

وعدد الذين «يعملون» ويكسبون في الولايات المتحدة يزيد على ٦٠ مليوناً، أي أكثر من ثلث عدد السكان جميعاً. وهي نسبة عالية جداً ولا شك. لأن الذي يعمل هناك ليس رب الأسرة وحده. فالرجل يعمل

وزوجته تعمل وأولاده وبناته يعملون ولو في أوقات الفراغ وأيام الاجازات. والقانون يحدد الحد الأدنى للأجر بدولار في الساعة أى حوالى ٢٠٠ دولار في الشهر. وهذا الحد الأدنى يزيد عنه بكثير أغلب الذين يعملون في الصناعات والتجارات الناجحة بالطبع.

الثراء المادى اذن هو أبرز ما في أمريكا. هو صفتها التى تشتهر بها في العالم كله. وهو الرد الذى ترد به أمريكا على كل من ينتقدها أو ينتقد أنظمتها. وهذه الدرجة العالية من الثراء هي (السبب - في رأى - في كثير جدا من الأخطاء التى يأخذها العالم الخارجى على أمريكا. ذلك أن هذا النجاح الكبير الذى حققوه في فترة قصيرة نسبية جعلهم يعتقدون انهم قد وجدوا «الوصفة» السحرية التى يكفى أن يطبقها أى بلد آخر لكى يصل إلى هذه الدرجة من الثراء. وكثيرا ما يقابل الزائر، حتى بين المواطنين العاديين، من يتعصبون لهذا الموقف تعصبا شديدا. فكل من لا يسلك طريقهم لا بد أنه يسلك الطريق الخطأ.. أو كما قال أحد كتابهم الساخرين مرة «انهم يرون كل أجناس المهاجرين يأتون إلى بلادكم لكى يتأمرکوا.. ولذلك فانهم يدهشون أحيانا حين يجدون كثيرا من بلاد العالم لا تريد أن تتأمرک!!».

ولكن الاعتقاد في امكانية تطبيق الأسلوب الأمريكى في أى مكان آخر، خطأ بالطبع.. تماما كالخطأ الذى يرتكبه من يحاول تفسير أمريكا بالظروف القائمة في بلاد أخرى غيرها. فلا شك ان هناك ظروفًا كثيرة خاصة بأمريكا ساهمت في تحقيق هذا النجاح السريع. من هذه الظروف ولاشك اتساع البلاد وتنوع ثرواتها الطبيعية تنوعا هائلا.. لكل المعادن وكل النباتات وكل أنواع المناخ تتوافر فيها.. ولو أن الولايات التى تكونت منها الدولة أثرت الانفصال ولم تتحد في وطن واحد كبير، لما وصلت كل ولاية منها إلى الثراء الذى بلغته الآن. ولكنها حين آثرت الوحدة في كيان كبير، انما اتخذت أهم قرار في حياتها. وكل ولاية تحتفل إلى الآن كل سنة بذكرى انضمامها إلى الاتحاد احتفالا شعبيا كبيرا.

ومن هذه الظروف أن هذه البلاد بدأت بداية جديدة تماما. التطور فيها بدأ حرا، في أرض جديدة، ولم يولد في بيت قديم فيه كل أفكار البيت القديم وقيوده ومشاكله. فهذه البلاد أقامها مهاجرون مغامرون أقوياء، جاءوا

اليها من أوروبا فرارا من كثير من أثقال الماضي التي كانت تضغط على كاهل التقدم الصناعى فى أوروبا وتعديه بكل أمراض الوراثة. بعضهم جاء فرارا من الاضطهاد، وبعضهم جاء فرارا من الاضطهاد الطبقي والاجتماعى. وبعضهم جاء فرارا من نظام الاقطاع. وبعضهم جاء ليتخلص من الاضطهاد الدينى ومن تدخل الكنيسة فى شئون الدولة وشئون التعليم والبحث العلمى.

وبعضهم جاء فرارا من زحام العالم القديم أو من فقر الطبيعة فى هذا المكان أو ذاك. كلهم جاءوا إلى هذه الأرض العذراء الخصبة وكل واحد جاء مصمما على أن يقيم هنا عالمه الخاص به. ان يصنع الرخاء والثراء الذى يحلم به. هنا لا توجد حروب ولا امبراطوريات ولا نزاع على حدود ولا حرب بين أديان ولا قوميات ولا أحلام وطنية، لا شىء هنا يشغل المهاجر الفرد عن الانصراف إلى هدف أساسى له وهو: الرخاء المادى.. الحياة الوفيرة.. السمن والعسل!

الشباب فى أوروبا منذ قرنين مثلا كان يولد ليجد أمامه أشياء كثيرة تشغله: الأسرة، الحواجز الطبقية، المنازعات الفلسفية والدينية، الحروب، العصبية الوطنية، الحركات السياسية.. إلى آخره. أما الشاب فى أمريكا فكان يولد لكى لا يجد أمامه إلا مهمة واحدة تنتظره: أن يعمل وينتج ويكسب.

أن يفلح أرضا، أن يهاجر إلى منطقة ظهرت فيها مناجم جديدة أو يفتح دكانا صغيرا. كان كل ما يريده المهاجرون ألا يتدخل أحد فى شئونهم. ألا يقول لهم أحد كيف يجب أن يعبدوا الله.. ولا تطالبهم حكومة بضريبة ولا يدعواهم قائد إلى القتال ولا يجدوا فى طريقهم حواجز جمركية. ومن هذا كله ولد النظام الفردى والعقيدة الفردية وكرامية أى نشاط حكومى، وولد الانكباب على تحقيق التقدم المادى ورفاهية الحياة الشخصية.. هذا وحده هو مجال الغزو، ومجال الطموح، ومجال الفكر، وكانت الأرض الشاسعة الغنية تسمح لهذا النشاط كله بأن يتزايد دون أن يصطدم أو يتزاحم بالمناكب لفترة طويلة.. كانت هى فترة وضع الأساس فى بناء هذا المجتمع المتنوع الكبير..

المثل الأعلى

يقول المفكر الأمريكي «ماكس ليرنر»: ان الرجل الذي كان يعد مثلاً أعلى في حضارة اليونان هو المفكر الثرى المتفرغ للفلسفة.. وفي الحضارة الرومانية هو الجندي الإدارى الحاكم.. وفي ألمانيا كان الضابط الكفء من أسر اليونكرز، وفي إنجلترا كان المغامرون بناة الامبراطورية.. وفي الشيوعية هو العامل العقائدى العضو فى الحزب.. أما فى أمريكا فالرجل الذى يعد مثلاً أعلى هو «رجل الأعمال»! وهذا صحيح! ان الأبطال فى حياة أمريكا الذين تحس ببطولتهم بين الناس هناك ليسوا مبشرين دينيين ولا قادة عسكريين ولا مفكرين سياسيين.. انهم روكفلر وفورد وكارنيجى وفاندربيلت وديبون!! كل واحد يحلم لبضاعته وتجارته بامبراطورية كما كان يحلم دزرائيلي بامبراطورية بريطانيا مثلاً!!..

هذا التصوير الخاطف لتاريخ أمريكا ونشأتها ونفسيته، هو الذى يفسر لنا مثلاً «سياسة العزلة» التى كانت أمريكا تدين بها وتعتبرها أساساً لكيانها إلى ثلاثين سنة مضت! فحتى بعد أن حاربت أمريكا فى الحرب العالمية الأولى قررت سنة ١٩٢٠ أن ينسحب من عصبة الأمم وتعود إلى سياسة العزلة عن العالم ومشاكله، وكانت هذه السياسة ترجمة لاحساس الفرد المهاجر الذى جاء ليبنى رخاء مادياً ولا يريد أن يعود إلى مشاكل العالم القديم، وفى رأى أن روزفلت بالذات لعب دوراً كبيراً فى اقناع أمريكا بالخروج عن سياسة العزلة نهائياً. صحيح ان هناك أسباباً كثيرة موضوعية لذلك منها نمو مصالح أمريكا الاقتصادية وحرص أقطاب الرأسمالية فيها على مكافحة الشيوعية والمذاهب غير الفردية، ولكن روزفلت أيضاً استطاع أن يوقظ فى الشعب الأمريكى عاطفة جديدة نحو أوروبا.. أشبه بعاطفة ساكن المدينة حين يحن إلى القرية التى أنجبته.. فهو يحب أن يساعد ما وينفق فيها بعض ثرائه!

العلماء .. العلماء!

ولا يمكن أن نفهم التقدم الذى حققته أمريكا دون أن نذكر دور العلم والتكنيك. فأمريكا كما هاجر إليها ملايين الذين لا يجدون الرزق، هاجر إليها أيضاً آلاف من خيرة علماء أوروبا ونوابغها، وفى فترة ما بين الحربين،

وبعد الحربين، هاجر العلماء الذين وجدوا أن أبحاثهم العلمية التي تحتاج إلى المال والاستقرار والهدوء لا تجد مجالها في حروب أوروبا وصراعتها ونظمها العنصرية. وإذا كان اينشتين وفون براون مثلاً من الأسماء التي اشتهرت بحكم اتصالها بالأبحاث الذرية والصواريخ، فإن كثيرين جداً غيرهما ممن يعملون في مجالات أخرى هاجروا ووجدوا التربة الخصبة التي يريدونها هناك، وفي قوانين الهجرة تجعل أمريكا الأولوية لذوى الدرجات العالية في الفروع العلمية بالذات، والظروف التي جذبت العلماء من الخارج أنجبت بالطبع علماء كثيرين من الداخل.

والعلم البارز في أمريكا علم تطبيقي، علم يرتبط بالفائدة العملية. لم تشتهر أمريكا بالأبحاث الفلسفية أو العلمية المجردة، فالنظريات العلمية التي تولد في أوروبا مثلاً كمجرد نظريات، تتحول في أمريكا إلى تجارب وتحسين واتقان ومخترعات عملية. تتحول إلى تليفون وتليفزيون ونفاثات ومصانع تسير بالأوتوميشن. فهو العمل الذي يصنع سلعة تباع وتدرربحاً. لأن الأمريكي، بحكم كل ما سبق، يؤمن بالأشياء لا بالأفكار. يؤمن بالأشياء التي تتحقق مادياً لا بالتمرينات العقلية!

هذا التقدم الهائل قد اكتسح الفقر في الولايات المتحدة كما لم يحدث للفقر في أى مكان آخر. ولكن ليس معنى هذا أنه لا يوجد في أمريكا فقراء.. فما زال هناك فقراء. وما زالت هناك مناطق تملؤها الأكواخ، وقد تعودنا أن نجد الفقراء أغلبية مما يساعدهم على رفع أصواتهم، ولكن الفقراء في أمريكا أقلية، وهذا مما يضاعف أزمته. ففي المجتمع الذي يأخذ بالنظام الديمقراطي الرأسمالي تصبح الأقلية الفقيرة ضعيفة قضية اجتماعية كبيرة تشغل المجتمع وتثير قلقه واهتمامه..

المفاجأة!

على أن لكل مجتمع مشاكله وأمراضه، وهذا الثراء المادى الكبير، والحرية الاقتصادية الواسعة، لهما أمراضهما التي بدأت تقلق المثقفين بالذات، خصوصاً في هذا العالم المتغير المتطور بسرعة كبيرة..

ولا شك أن الذى رفع موجة القلق والنقد هذه إلى قممها أمران: الأمر الأول هو الصدمات التي منيت بها السياسة الأمريكية الخارجية في مناطق

كثيرة، والأمير الثاني هو القمر الصناعي السوفيتي وتقوم الاتحاد السوفيتي المفاجيء في ميدان علمي دقيق، هو الصواريخ. لقد هزت هذه الأحداث ثقة الأمريكي المطلق في أن نظامه - كما هو - هو الطريق الوحيد، وفي أن المسافة بينه وبين سائر جهات العالم لا يمكن أن يقطعها أحد! لقد كان إطلاق القمر السوفيتي مفاجأة تامة للشعب الأمريكي.. لأن الدعاية الصحفية الأمريكية في الداخل - وهي فيما يتعلق بالعالم الخارجى ضيقة الأفق إلى أقصى الحدود - كانت توهم الشعب الأمريكي بأن الاتحاد السوفيتي متخلف ويزداد تخلفاً.. أو كما قال دكتور جالبريث: ان في أمريكا صناعة نشيطة.. هي صناعة اثبات أن التقدم السوفيتي غير صحيح!

تصوروا مثلاً المفاجأة التي نحس بها لو ظهر أن القمر مثلاً فيه سكان.. وأنهم متحضرون.. وأنهم قد تفوقوا علينا نحن سكان الأرض في شيء ما! هذه المفاجأة هي نفس المفاجأة التي شعرت بها أمريكا إزاء القمر السوفيتي الأول..

وفي الولايات المتحدة الآن سيل من الكتب والأبحاث والخطب والمناقشات عن المشاكل التي تواجه أمريكا.. وعن النقائص التي يجب أن تعترف بها وتواجهها.. مشاكل المجتمع الثرى.. وأظن أن كريستيان هيرتر وزير خارجية أمريكا هو الذى قال مرة: ان المجتمع الأمريكى أصبح «ناعماً» أكثر مما يجب..

الدكاكين معابد.. والاعلانات أناشيد!

مثلاً.. هذا الرخاء المادى الكبير، هذه الثروة الانتاجية التي لا مثيل لها، تقاسى من المبالغة في المنافسة التجارية الشديدة، ومن الجرى المستمر وراء زيادة المبيعات، باقناع المستهلك دائماً بأن يلقى ما لديه ويشترى غيره.. مدفوعاً بكرابيج الاعلانات التي تلهب ظهره وبأن اقتناء آخر طراز هو دليل النجاح والتقدم والتمتع بالحياة.. هو رمز مضى الزمن إلى الأمام في نظر المواطن الأمريكى.. وليس أبلغ في نقد هذه المبالغة من كلمة ادلاى ستيفنسون اللاذعة «لقد أصبحت محال البضائع معابدنا، وأغانى الاعلانات أناشيدنا القومية!»

لقد قال ادلاى ستيفنسون كلمته هذه في مقال هام، اشترك به في مناقشة كبيرة استغرقت شهورا. مع عدد كبير من أبرز مفكرى أمريكا، أشرفت عليها مجلة «لايف». كان موضوع المناقشة «هل للشعب الأمريكى هدف قومى؟...»

وقدم هنرى لوس رئيس تحرير «المجلة» هذه المناقشة قائلا: «ان الشعب الأمريكى شعب عظيم.. ولكن هل هو النوع الصحيح من العظمة؟ اننا نريد الحرية مثلا.. ولكن هل نعرف تماما ماذا نريد أن نصنع بهذه الحرية؟...»

والإشارة إلى بعض ما جاء في مقال ادلاى ستيفنسون في هذه المناقشة اليمة حقا، وتعطى صورة لما يحسه كثير من الأمريكيين الآن.

لقد تحدث ستيفنسون عن القطاع الخاص والقطاع العام في الحياة الاقتصادية. وقال: ان أمريكا يجب أن تعترف أن لكل قطاع مهمته. وان تحقيق القطاع العام ومهاجمته واقصاءه أمر ليس سليما «فمجرد السعى وراء المصلحة الخاصة لا يؤدي دائما إلى الخير العام كما كان أهل القرن الثامن عشر يعتقدون. أن كثيرا من المشاكل الاجتماعية تتراكم حين تنفرد المصالح الخاصة بتقرير صورة المجتمع. وعلى أحسن الفروض، تتحول الدولة إلى «مجموعات مصالحية» تضغط لمصلحة نفسها، على حساب الضعفاء والمعزولين وغير المنظمين. ان الصورة التى يراها العالم للأسرة الأمريكية هى صورة وحدة ذات قدرة استهلاكية عالية، مع حد أدنى من المسئولية والرابطة الاجتماعية.. صورة أب سعيد وهو يشرب بيرته المفضلة، وأم تلبس ثيابا فاخرة من أحدث طراز، وأطفال ضاحكين يلثمون سندويتشات غنية، وخلفهم بالطبع سيارة ممشوقة فارهة! ولا شك أن كل شعب فى العالم يريد أن يكون لديه كل هذا. ولكن كل هذا.. ليس هو كل ما يريدونه. ان الدرجة العالية من الاستهلاك الشخصى ليست الهدف الوحيد فى الحياة، ولا يمكن أن تكون الاجابة الوحيدة التى نقدمها للتطور الثورى الحادث فى أنحاء العالم! ان جوا من عدم الاهتمام وعدم الالتزام يحوم فوق أقوى وأغنى مجتمعات العالم».

انتهى كلام ادلاى ستيفنسون. وادلاى ستيفنسون ليس مفكرا بارزا له

تأييد كبير بين المثقفين في أمريكا فحسب، ولكنه زعيم سياسى، رشح لرئاسة الجمهورية مرتين، ومازال من أبرز أقطاب الحزب الديمقراطى. وإشارة ستيفنسون إلى «الجماعات الضاغطة Pressure groups» تحتاج إلى تفسير سريع. فقد شهدت مناقشة للكونجرس حول رفع أجور العمال.. فكان بعض النواب مثلاً يتحدث باسم شركات الفنادق وآخر باسم شركات السيارات وهكذا، وهو أمر مشروع في أمريكا وإن كان الكثيرون قد بدأوا يثورون عليه. والصهيونيون إحدى هذه الجماعات الضاغطة..

الدولة .. والفردية !

ومن الأشياء التى تتعرض للنقد الشديد في أمريكا مثلاً: التعليم. فالرخاء الشديد يغرى الشباب هناك بعدم الاستمرار طويلاً في التعليم، لأنهم يستطيعون دائماً العمل في أى شىء والحصول على مرتبات كبيرة يعيشون بها ويسهزون ويلهون ويتزوجون. وفي أول السنة الدراسية رأيت وزراء أمريكا يتحدثون في التليفزيون مناشدين الطلبة الذين عملوا في الاجازات أن يعودوا إلى مدارسهم وجامعاتهم ولا يغريهم الربح السريع! يضاف إلى هذا أن اعتماد التعليم كله على الأموال الخاصة والمحلية، وانعدام أى توجيه من الدولة، جعل أمريكا تخرج من العلماء الآن عدداً أقل بكثير من العدد الذى يخرج الاتحاد السوفيتى. وكيندى في المعركة الانتخابية يطالب بتدخل الدولة في هذا المجال بأموالها وتوجيهها، في حين يعارضه نيكسون وكل رجال الأعمال.. فإنهم يكرهون أى تدخل من الدولة..

ونفس الشىء مثلاً بالنسبة للعلاج والرعاية الصحية. فالعلاج الطبى من أغلى الأشياء في أمريكا. أسعاره مرتفعة جداً حتى بالنسبة لمستوى المعيشة الأمريكى المرتفع. ولذلك بدأ الكثيرون يدعون إلى ضرورة توسيع التأمين الاجتماعى والرعاية الصحية المجانية أو نظير اشتراك معقول. ومرة أخرى، شنت نقابات الأطباء حملة واسعة ضد هذه الاتجاهات، وشن الزعماء المحافظون مثل بارى جولدروتر حملات صليبية ضدها، ووصفوها بأنها «وصاية» و«إهانة للنشاط الفردى والاعتماد على النفس» بل قالوا إنها «اشتراكية متسللة»..

وبعد..

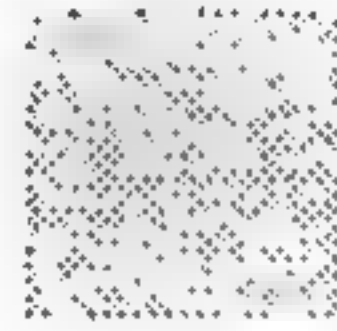
هذا هو انطباع سريع جدا عن شعب طيب نشيط يتمتع بحيوية كبيرة. صنع معجزة ولاشك بهذا المستوى المادى العالى الذى اتسع حتى شمل قاعدة عريضة جدا من الشعب.

ان النضج الاقتصادى والانتاجى فى أمريكا قد سبق النضج السياسى بوقت طويل. وقد بدأت الطليعة فى هذا الشعب تحس بذلك.. وبدأت ترى انه لابد من استكمال كثير من مقومات «الدولة» والتوجيه القومى.. مقومات لم يكن الشعب يشعر بالحاجة اليها فيما سبق من السنين.. ولكنه الآن بدأ يشعر أن المصالح الخاصة كثيرا ما تتعارض مع المصلحة العامة.. وان شعار «كل ما يفيد شركة جنرال موتورز يفيد أمريكا» ليس صحيحا على الدوام..

وفى تقديرى ان هذا التطور حين يندفع إلى الأمام، سوف يترك أثارا عميقة حتى على السياسة الأمريكية الخارجية نفسها.

مازال مصرع جريدة «النيوزكرونكل» البريطانية يثير ضجة ومناقشة وقلقا كبيرا في جميع الدوائر الصحفية في العالم.. وبالتالي بين جمهور القراء، أى بين كل من تعود أن يتنفس ويتصل بالعالم من خلال ذلك الشريان المتدفق بالحياة اليومية «هو الجريدة».

وليس اغلاق أى جريدة في حد ذاته أمرا نادرا لا يحدث. ولكن كثيرا من الظروف التي اقترنت باغلاق هذه الجريدة الكبرى، جعل الناس



يتنبهون فجأة إلى اخطار كثيرة اصبحت تحيط بمهنة الصحافة في أنحاء مختلفة من العالم.. وجعلت الناس يطرحون أسئلة كثيرة.. بعضها خاص بالصحافة في حد ذاتها كمهنة، وبعضها خاص بالصحافة كأداة أساسية من أدوات الديمقراطية والوعى الشعبى ونفوذ الرأى العام.

وقبل أن نطرح هذه الأسئلة، نعرف ماذا حدث باختصار.

إن جريدة «النيوزكرونكل» كانت جريدة حزب الاحرار. وليس معنى ذلك انها كانت مملوكة للحزب، فقد كانت مملوكة لأحد أصحاب الملايين وهو

مصرع

جريدة !

أخبار اليوم .. في

٦٠ / ١٠ / ٢٩

«كادبورى» واسرته التى تمتلك مصانع الشيكولاتة العالمية المعروفة بهذا الاسم. كانت الجريدة مملوكة لأسرة كادبورى ولكنها كانت خلال ما يقرب من مائة سنة لسان حزب الأحرار، والخصم القديم العنيد لحزب المحافظين ولسياسة حزب المحافظين..

وفى ذات صباح فوجئ الناس.. وفوجئ بصفة خاصة المليون ونصف المليون قارئ الذين يشترون «النيوز كرونيكل»، فوجئوا بأنها باعت نفسها لجريدة «الديلى ميل».. لسان حال حزب المحافظين !
تماما كما لو فوجئ الناس مثلاً بأن جيتسكيل قد باع حزب العمال لها ولداً ماكمبلان زعيم حزب المحافظين !

صحيح ان أهم ما فى الجريدة هو قراؤها. والقراء لا يمكن أن يباعوا. وصحيح أن شراء مطابع الجريدة واسمها ومبانيها لا يعنى بالضرورة شراء قرائها. ولكن عملية الشراء مع ذلك لها آثار كثيرة حتى بالنسبة للقراء..

فجريدة «الديلى ميل» صدرت وتحت اسمها اسم جريدة «النيوز كرونيكل» التى كانت معارضة لها، وفى رأسها شعار «النيوز كرونيكل» المعروف لدى القراء وهو : يد ممدودة تحمل مشعلاً أحمر اللون! وسرية الصفقة أتاحت للديلى ميل أن تشتري أيضاً أكبر عدد من الكتاب اللامعين فى الجريدة المقتولة وتضمهم إلى أسرته وكل هذا سيجذب ولا شك عدداً لا بأس به من القراء إلى معسكر قرائها الأصليين يضاف إلى هذا أن توزيع الصحف فى بريطانيا يتم فى الأغلب من طريق الاشتراك عند بائع صحف معين، يوصل الجريدة إلى البيت. وقد كان معنى البيع أن بائع الجريدة سيضع عند باب كل زبون للنيوز كرونيكل نسخة من الجريدة التى اندمجت فيها وهى «الديلى ميل». صحيح أيضاً أن القارئ يستطيع أن يطلب من بائع الصحف أن يضع له جريدة أخرى. ولكن إلى أن يتخذ القارئ قراراً.. سيكون قد وقع إلى حد ما تحت تأثير الجريدة التى يجدها على بابه وفيها رائحة ولو ضئيلة من جريدته المفضلة التى اندثرت، الأمر الذى سيجعل نسبة كبيرة من القراء يستسلمون لهذا «القدر»!
وقد كان البائع والمشتري يعلمان ذلك جيداً قبل النشر

«النيوز كرونكل» في آخر أعدادها مثلاً أنها سوف تحتجب كجريدة مستقلة وتنتج في «الديلي ميل». كلاً.. لقد قالت الجريدة في آخر عدد لها: أنها ستشرعاً بياناً هاماً. وفي اليوم التالي نشرت البيان الهام في الجريدة التي التهمت بها.. في «الديلي ميل».. أمعانا في محاولة فر القارئ واستدراجه إلى ساحة الجريدة الأخرى التي دفع صاحبها مليون ونصف مليون جنيه لهذه الصفقة.

ولم يكن القراء وحدهم هم الذين فوجئوا بالنبا الكبير. لقد فوجئ به أيضاً المحررون والموظفون والعمال الذين كانوا يعملون في هذه المؤسسة الصحفية وعددهم ثلاثمائة صحفي وثلاثة آلاف عامل وموظف. وأعلن صاحب الجريدة الذي باعها أنه سيدفع لكل من فقد عمله (لأن الديلي ميل لم تأخذه معها) تعويضاً يساوي مرتب أسبوع عن كل سنة من مدة الخدمة (في بلادنا التعويض يساوي مرتب شهر عن كل سنة.. أي أربعة أمثال التعويض الذي أخذه الصحفيون البريطانيون) !

ولم يبع مستر كاديوري «النيوز كرونكل» وحدها. ولكنه باع أيضاً مجلة «ستار» المسائية إلى نفس المؤسسة. وكما اندمجت «النيوز كرونكل» في الديلي ميل اندمجت «ستار» في «ايفنتج نيوز».

وقد نشرت جريدة «الديلي اكسبريس» في اليوم التالي لبيع الصحيفتين خبراً له مغزى.. يقول. أن مستر كاديوري سوف يشتري هذا الشهر مصانع شيكولاتة ألمانية جديدة بخوالي مليون جنيه !!

ولم يكن هذا البيع سرا على القراء فقط.. ولا على المحررين وحدهم. لقد كان سرا كذلك على حزب الأحرار أيضاً !

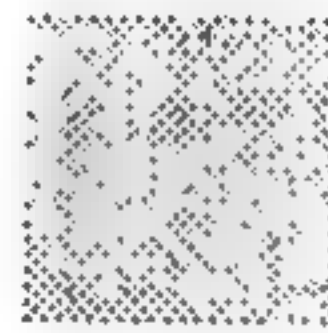
وقد هاجم قادة حزب الأحرار هذا البيع الغادر بشدة. قالوا أنهم لو علموا مقدماً بأن الجريدة تشكو متاعب مالية لتقدموا لإنقاذها ومساعدتها. وقالت صحف أخرى من خصوم حزب المحافظين أنه كان من الممكن أن يبيع كاديوري جرائده لصحف أقرب إلى لون جريدته، كجريدة «الديلي هيرالد» مثلاً لسان حزب العمال أو «الديلي ميرور» العمالية المستقلة، بدلاً من أن يصير الطريق رأساً إلى الطرف المقابل، المعادي، ويبيع جريدته لخصومها في الرأي بالتحديد.

ولكن طريقة البيع تتم عن أن المالك لم يفكر في أي اعتبار سياسي. كانت الجريدة عنده دكانا يبيع أي نوع من السلع، فلما بدأت فيه بعض المتاعب قرر أن يستبدل به مزيدا من مصانع الشيكولاته الاضمن ربحا. وقد اختار المشتري الذي يعقد الصفقة ويدفع له أكبر ثمن. لانه لو أعلن عن عزمه فلربما اخرجته الرأي العام في أن يبيع لرفاق الرأي بسعر أقل أو بشروط أكثر تساهلا .

اليابان في أذهاننا هي بلد فتيات
الجيشا ، وفن تنسيق الزهور ،
وحداثق الكرايزانتيم الخلابة ..

والملاح التي نعرفها عن اليابان
كلها ملامح رقيقة ناعمة .. سواء في
ذلك « الكيمونو » الحريري الزاهي
الذي تلبسه المرأة ، أو المظلات
المزخرفة بالورد أو تحية الضيف
التي يؤدونها وهم راكعون . -

إن هذه الشهرة بالرقعة والنعومة
في محلها تماما .. وأغلب الظن ان أهل
اليابان كانوا في حاجة شديدة الى هذا



الجانب الرقيق الناعم الهادئ في حياتهم ، لكي
يوازنوا به الجانب الآخر من هذه الحياة ، الجانب
القاسي العنيف .

إن شعب اليابان في الحقيقة يعيش فوق سقف
من صفيح ساخن !

إن الطريقة التي يعلمون بها الأفيال الرقص ..
هي ان يجعلوها تقف فوق صفيح ساخن ملتهب ،
فتضطر الفيلة الى القفز !

وهذه الأرض من الصفيح الساخن قد علمت
شعب اليابان القفز ! علمته ان تكون له هذه الطاقة
الحيوية العجيبة على العمل وسرعة المحاكاة
والالتقاط والابتكار !

عشرة أيام

.. بين

القديم

والجديد ..

في

اليابان !

أخبار اليوم .. في

٦٠ / ١٢ / ٢٧

إن هذه الشريحة الصغيرة من الأرض .. العائمة في المحيط ، على هامش آسيا .. يحاصرها الماء من كل جانب ، وتنصب عليها الزوايح والأنواء ، دون أن يطفىء هذا كله سخونة أرضها الملتهبة ، ولسع صفيحها الساخن .. فهي أرض زلازل وبراكين .. كل يوم بدون استثناء يقع فيها زلزال .. ويحس سكان إحدى المناطق بأن الأرض تميد تحت أقدامهم .. وكل ٢٠ أو ٣٠ سنة على الأكثر فيها زلزال .. ويحس سكان إحدى تدمير المدن وتحرق البيوت والمنشآت .. حتى القنابل النووية الوحيدة التي ذاقت طعمها الأرض .. لم تسقط إلا على اليابان . فاليابان هي البلد الوحيد الذي يحمل وشم الانفجار الذري .. وإذا قدر للعالم ألا يعرف القنابل الذرية مرة أخرى .. فسيكون معنى ذلك أن اليابان قد فدت الانسانية كلها بمدينتين كاملتين من مدنها الكبيرة : هيروشيما .. ونجازاكي !

ومع ذلك فهذه الشريحة الصغيرة العائمة في البحر يعيش فوقها ٩٤ مليوناً من البشر .. أي نصف عدد سكان قارة افريقيا كلها .. ومع أن هذه الجزر هي أكثر جزر آسيا كلها ازدحاماً ، فهي أكثرها فقراً في المواد الخام ، ليس فيها سهول شاسعة مزروعة ، وليس فيها مناجم فحم ولا حديد ، وليس فيها آبار بترول . ولم تكن لها مستعمرات شاسعة خلال مدة طويلة ، كالمستعمرات التي تمتعت بها بريطانيا أو فرنسا أو هولندا زمننا طويلاً حتى اكتنزت شحماً ولحماً .

حتى التاريخ الحضاري الطويل ، نجد اليابان فقيرة فيه .. فهي لم تبدأ في معرفة العلم الحديث والحضارة الحديثة منذ زمن طويل ، إنما بدأت تتعلم حروف الهجاء في الحضارة الصناعية منذ أقل من مائة سنة .

عصر الترانزيستور !

أليس غريباً بعد هذا كله ، أن نجد اليابان اليوم تقف في الصف الأول من دول الفن الصناعي والانتاجي !

أن هذه الأرض من الصفيح الساخن قد علمت شعب اليابان القفز !
إن اليابان في قاموس سنة ١٩٦٠ ليست بلاد الجيشا وحدائق الكريزانتيم وصناعة الحرير الطبيعي ولعب الأطفال فقط .
ولكنها أيضاً بلد الكاميرا والراديو الترانزيستور والتلفزيون والسفن

وناقلات البترول . إن الأرقام هي أقصر الطرق الى كبد الحقيقة .. ومن بين الأرقام اليابانية نقرأ .

١,٨٤٠,٠٠٠ كاميرا .

٣,٦٠٠,٠٠٠ تليفزيون .

٦,٥٠٠,٠٠٠ راديو ترانزيستور

٤,٠٠٠,٠٠٠ راديو عادى .

١٦,٠٠٠,٠٠٠ طن حديد .

١,٧٠٠,٠٠٠ طن سفن ، فى شكل ٥١٤ سفينة ، من بينها ١٢٤ ناقلة

بترول ، أى بمعدل ناقلة بترول كل ثلاثة أيام .. خلاف الأنواع الأخرى من السفن والبواخر

ونلاحظ على عدد أجهزة التليفزيون ان صناعة التليفزيون هناك بدأت منذ خمس سنوات فقط !

ونلاحظ على رقم انتاج الحديد ان اليابان ليس فيها منجم حديد واحد ، وان هذا الرقم هو انتاج أفرانها .. وانها تستورد كل خامات الحديد من الخارج .

ونلاحظ على رقم انتاج السفن .. ان اليابان كانت خلال السنوات الأربع الماضية الدولة الأولى فى انتاج السفن فى العالم .. وانها الآن تبنى اكبر ناقلة بترول حملها الماء .. وحمولتها ٨٧,٠٠٠ طن لحساب دولة صناعية كبرى ، هى الولايات المتحدة الأمريكية .

العلم .. العلم !

وليس معنى هذا ان هذه الأرقام هامة فى حد ذاتها ، أو ان المواطن يستطيع ان يتغدى بكاميرا ويتعشى بتليفزيون ، ولكن أهمية هذه الأرقام هى فى تسجيل درجة التقدم العلمى الذى وصلت اليه اليابان ..

ان القبض على ناصية العلم والاتقان الفنى هو القبض على ناصية المستقبل . العلم اليوم هو الذى يصنع التاريخ قبل ان تصنعه أى نظرية سياسية أو اجتماعية . العلم هو الذى يقلب وجه الحياة .. يحل مشاكل الحياة يخلق مشاكل جديدة للحياة .. اما النظريات السياسية فهى مجرد محاولات لمواجهة الواقع الجديد الذى يفرضه تقدم العلم .

هذه هي الدلالة الكبرى في حياة اليابان . ان مستوى المعيشة العام ليس مرتفعا . وما زال في اليابان أغلبية فقيرة ، ولكن تفوقهم في كل هذه المجالات العلمية والانتاجية هو بمثابة العثور على المفتاح الأساسي لباب التقدم والانطلاق .

والتفوق في الانتاج الصناعي بالنسبة لليابان هو مسألة حياة أو موت .. ان اليابان ليس لديها أى موارد طبيعية تستطيع ان تعيش عليها .. ليس لديها إلا عقول الناس وأيديهم ونشاطهم .

في الحقل .. استطاع اليابانيون ان يختصروا المدة اللازمة لنضج المحاصيل الأساسية كالأرز بحيث يستطيعون استغلال الأرض في زراعة محاصيل أكثر . وقد رأيت حقولا كثيرة يغطيها الفلاحون بسقف من القماش ، لأنهم يزرعون محاصيل تحتاج الى جو أدفأ من الطقس الطبيعي .

وفي المصنع .. على اليابان ان تشتري كل خامات الصناعة من الخارج ، وتصنعها ثم تعيد تصديرها ، وتعيش من الفرق بين ثمن شراء الخامات و ثمن بيعها مصنوعة ! لذلك فهم محتاجون الى الاتقان لكي يستطيعوا البيع في الخارج ضد منافسة بلاد أخرى تملك الخامات كأمریکا وألمانيا ، وهم محتاجون الى تخفيض السعر رغم انهم يتكفون أكثر من غيرهم .. وهم محتاجون الى تصغير حجم الأشياء المصنوعة وتركيزها حتى لا تستهلك خامات أكثر يحتاج نقلها الى مصاريف أكثر !

والقصة في كل صناعة هي نفس القصة اكتساب الخبرة العلمية الكاملة معرفة أحسن ما لدى الغير نقله . ثم الانطلاق الى تجويده وتحسينه والتفوق فيه .

اشترت اليابان من أمريكا أول آلة تصوير للتليفزيون الملون . ثم فحصوها جيدا ووجدوا ان مشكلة آلات التصوير للتليفزيون الملون هي ضخامة حجمها وبالتالي صعوبة حركتها في الاستوديو المكتظ عادة بالأسلاك والكشافات والمعدات والناس . فانطلقوا يبحثون ويدرسون من اجل هدف محدد هو تخفيض حجم آلة التصوير الضخمة بنسبة ٣٠٪ .

ومنذ شهور نجحوا في انتاجها وقد رأيتها في مصانعهم وفي ستوديوهات التليفزيون . ثم بدأوا يبيعونها لمحطات التليفزيون في أمريكا !

الراديو في حجم الزرار!

وكلنا نعرف ان الراديو الترانزيستور الياباني ، في حجم علبة السجاير قد غزا أسواق العالم ، وان التليفزيون الترانزيستور ، في حجم آلة التليفون فقط ، قد بدأ أيضا ينتشر ، ولكنني عندما زرت مصانعها في اليابان قالوا لي : بعد ثلاث سنوات سوف تكون هذه الأجهزة « موضة قديمة » ..

— كيف !

— لأن هذا كله من الانتاج الالكتروني .. ولكن بعد ثلاث سنوات على الأكثر سوف يبدأ الانتاج الواسع للمصنوعات « المولكترونية » .. التي امكن بوساطتها صنع جهاز راديو في حجم زرار هذا المعطف الذي تلبسه .. وتليفزيون في حجم علبة السجائر المصرية التي تحملها !

وقلت لهم ضاحكا : معنى هذا ان الواحد منا سيضع يده في جيبه ويخرج ما فيها من نقود ومفاتيح ويبحث بينها عن الراديو !

وقد شرحوا لي طويلا الفرق بين الالكتروني والمولكترون ، ولم أفهم الفرق بالطبع الى درجة تجعلني قادرا على ان أشرحه للقارىء ! ولكن العبرة على أي حال هو ان الأمر ليس فيه اكتشاف مادة جديدة مثلا .. ولكنه اكتشاف « معرفة » جديدة و « خبرة » جديدة ! وهذا هو المهم .

وعندما ذهبت في تلك الزيارة لمصنع « توشيباي » للتليفزيون كنت أظن أني سأجد أمام الآلات في المصنع رجالا قد شابت رؤوسهم .. خصوصا انني مازلت عاجزا عن ان اضبط بمفردي جهاز التليفزيون الموجود في بيتي .. فلما دخلت المكان الذي يتم فيه صنع أجهزة التليفزيون دهشت !

ان العاملات كلهن بنات .. وبنات في سن الثامنة عشرة على اكثر تقدير! أما عن كونهن بنات فقد قال لي مدير المصنع ، ان صناعة التليفزيون بالذات تحتاج الى أنامل دقيقة ومزاج دقيق .. وقد ثبت بالتجربة ان البنات اصلح لها من الرجال .. فهي مثل أشغال الابرّة والتركيب !

وأما عن كونهن صغيرات .. فقد قال لي المدير : ان البنت تصبح صالحة للعمل في المصنع بعد تدريب أربعة عشر يوما فقط لا غير !!

— بشرط ان يكون لديها شهادات معينة سابقة طبعا ؟

— أبدا .. بدون أي شروط !! إلا معرفة القراءة والكتابة طبعا .

ذلك ان الجزء الصعب والدقيق في هذه الصناعات في الواقع هو الجزء الذي يتم في معامل الأبحاث والتجارب الجزء الخاص بالدراسة المتصلة ، وتوفير الامكانيات وشروط العمل اللازمة للخبراء في هذه المعامل والمجهود في تلك المعامل لا ينصب فقط على تصميم السلعة التي ستصنع فقط .. ولكنه ينصب على تصميم « عملية الانتاج » نفسها في المصنع بحيث يتم إنتاج السلعة بأسهل طريقة وأدقها وأرخصها وأسرعها في نفس الوقت . وهكذا فالبنت - بنت ١٧ سنة - القادمة من البيت أو من الحقل ، لا يلزمها إلا ان تتعلم جزءا صغيرا جدا من العملية مسمار واحد أو بطارية واحدة تقوم بتركيبها في مكان واحد . ويمر جهاز التليفزيون بالمئات على مائدة متحركة أمام الفتيات ذوات القفازات البيضاء كل واحدة تضيف شيئا .. فإذا وصل الى آخر الخط كان قد أصبح جهازا كاملا مستعدا للعمل فوراً !

الأحزاب

والتحول الكبير في حياة الصناعة اليابانية بدأ في السنوات الخمس الأخيرة فقط . الى ما قبل ذلك كانت اليابان تسترد قوتها واعصابها ودراساتها بعد كارثة الحرب العالمية والهزيمة . ولاشك ان الانطلاق الصناعي الهائل في السنوات الخمس الأخيرة قد بدأ يرفع مستوى المعيشة لعامة الشعب الى أعلى بسرعة . وهذا هو السبب الرئيسي في انتصار حزب الأحرار ، وهو حزب الحكومة في الانتخابات الأخيرة وفوزه بأكبر رقم ناله منذ نهاية الحرب ، رغم اشتداد معارضة الحزب الاشتراكي القوي له ، ورغم المعركة الشهيرة حول معاهدة الأمن الأمريكية التي انتهت بسقوط كيشي زعيم حزب الحكومة واغتيال أسانوما زعيم حزب المعارضة .

وبالرغم من ان حزب الحكومة قد فاز وزاد من عدد مقاعده في البرلمان ، فإن الحزب الاشتراكي قد زاد عدد مقاعده أيضا ثلاثة وعشرين مقعدا نالها في الواقع على حساب حزب اشتراكي آخر معتدل ، اسمه الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، الذي اندثر تقريبا في الانتخابات الأخيرة .. فلم يعد في الميدان إلا حزبان يؤبه لهما حقهما حزب الحكومة والحزب الاشتراكي المعارض .. وعيب الحزب الاشتراكي هو انه ركز معركته على قضية معاهدة الأمن الأمريكية ، ولم يكن لديه في الداخل برنامج اقتصادي محدد . والناخبون

بوجه عام أكثر اهتماما بالطبع بالقضايا الداخلية .
والحزب الاشتراكي الياباني يتبنى سياسة الحياد الايجابي تبنيها كاملا
وهو بهذا الحزب الكبير الوحيد في الدول الرأسمالية الكبرى الذي يؤمن
بهذه السياسة .

وفي خلال المعركة الانتخابية الأخيرة أجرى اليابانيون مناقشات في
التليفزيون بين رؤساء الأحزاب المتصارعة أسوة بأمريكا .. وفي إحدى
المناقشات سأل أكيدا رئيس الوزراء سكرتير عام الحزب الاشتراكي : ماذا
تقصد بسياسة الحياد الايجابي ، لماذا لا تشرح لنا هذا الشيء الذي
لا شرح له ؟ .. فقال له سكرتير الحزب الاشتراكي . ان الحياد مشروح بما
فيه الكفاية انها السياسة التي يمارسها بالفعل نهرو وعبدالناصر وتيتو !
والأغلبية الساحقة من الشعب الياباني تفضل ولاشك اي سياسة تبعد
اليابان عن الحرب . وعواطفه ضد الحرب والتسليح قوية جدا منذ ذكريات
الحكومات العسكرية والقنابل الذرية على السواء .. وعندما أعلن عن
مناورات للجيش في إحدى المناطق خلال وجودي في اليابان .. زحف جمع
كبير من الفلاحين القريبين الى منطقة المناورات ليحولوا دون قيامها .
ولكن المشكلة ان الحياد في اليابان له معنى اقتصادي أقوى من معناه
السياسي . فالصناعة اليابانية تستند الى رؤوس الأموال الأمريكية بكثرة ،
وأمريكا هي أكبر سوق تبيع فيه اليابان منتجاتها . ولذلك فالناس حين
يفكرون في الحياد يفكرون أيضا فيما قد يكون له من عواقب اقتصادية ..
وهناك بالطبع ضغط كبير لاعادة العلاقات الاقتصادية الكاملة مع
الصين .. كبديل يمكن ان يوازن اعتماد اليابان على سوق أمريكا ولكن
سوق الصين حتى الآن مازال غير محدد وغير معروف بالضبط .. اذا
قورن في ذهن الياباني بسوق أمريكا المعروف الجارى العمل فيه منذ
سنوات .. والجمع بين السوقين طبعاً هو المثل الأعلى !

كان شعار الحزب الاشتراكي هو : الحياد الايجابي .
وقد قابل رئيس الحكومة هذا الشعار بشعار آخر هو بالحرف الواحد :
مضاعفة الدخل في عشر سنوات !

والواقع ان معدل الزيادة في الدخل في اليابان الآن هو اكبر معدل زيادة

في البلاد الرأسمالية كلها . اذ يصل الى حوالى ٩٪ كل سنة حاليا .. ومعنى هذا ان مضاعفة الدخل في عشر سنوات في حد ذاتها كهدف ليس من الصعب تحقيقه على الاطلاق بل انه يكاد يكون طبيعيا لأن اليابان لديها بالفعل الأساس الصناعى والعلمى والفنى اللازم لتحقيق الغاية ، فمهمتها في مضاعفة الدخل هناك أسهل بكثير جدا من مهمتنا نحن في الجمهورية العربية المتحدة ، حيث لا يبلغ عمر اتجاهنا الجدى الى الصناعة اكثر من سبع سنوات .

على ان مجرد مضاعفة الدخل لم يعد هدفا كافيا في حد ذاته ، فالخدمات الاجتماعية في اليابان قليلة ، وفي تقرير هام أصدرته وزارة الرفاهية في اليابان خلال وجودى هناك .. جاء ان الخدمات الاجتماعية التى ينالها الفرد العادى أقل بكثير من مثيلاتها في دول غرب أوروبا مثلا .. وجاء في التقرير انه رغم زيادة الدخل فإن الهوة بين دخل الأغنياء ودخل الفقراء قد ازادت اتساعا .

وسبب هذا يرجع ولاشك الى انعدام الأخذ بأسلوب التخطيط الاجتماعى الذى تقوم به الدولة ان اليابان جنة للاستثمار الفردى الحر ، والمؤسسات الفردية هناك هائلة في قوتها وفي ضخامتها ولا يقابل هذه الفكرة الهائلة تدخل كامل من الدولة ، حتى في نطاق الاقتصاد الحر يجعل هذا التقدم ، حقاً ، لحساب الجميع .

وابسط مثل على ذلك هو الطرق . فالزائر يدهش من فوضى الشوارع في مدينة هائلة مثل طوكيو .. ويدهش من تدهور حالة الشوارع في بلد صناعى قوى بدأ يكتظ بالسيارات اكتظاظا رهيبا . لأن الطرق استثمار عام . ولأنها تحتاج الى أموال عامة ولأنها تحتاج الى تخطيط .

ولاشك ان الحزب الاشتراكى القوى ونقابات العمال القوية والضغط الشعبى العام ، كل ذلك قد بدأ يأتى أثره .. اذ بدأت دوائر الحكومة نفسها حكومة الاقتصاد الحر وحماية النشاط الفردى تحس بأن ثمة واجبا عاجلا في هذه الميادين ..

واذا لم تقم الحكومة بخطوات هامة في ميدان عدالة التوزيع الى جانب ميدان زيادة الدخل خلال السنوات الأربع المقبلة ، فإنها يمكن ان تصاب

بهزيمة كبيرة في الانتخابات المقبلة .. اذا احسن الحزب الاشتراكي تنظيم نفسه ، واذا استطاع ان يوضح اهدافه بطريقة تلائم ظروف اليابان الكثيرة المعقدة !.

وانه لغريب حقا ان يرى المرء هذا الانبعاث الحديث الهائل .. ويرى الى جانبه كل اشكال الحياة اليابانية التقليدية حية محيية .. فالبيت مازال أغلبه على الطراز الياباني .. والكيمونو لم يندثر تماما إزاء زحفت الجونلة والبنطلون .. وكل يابانية تستعمل الاثني على الأغلب . فهي تذهب الى المصنع أو المكتب بالفستان العادي ولكنها تذهب الى السينما أو المسرح مثلا بالكيمونو الزاهي ..

ولعلني اثرت ان اتحدث هنا عن جانب من اليابان هو الجانب الذي تتناوله فيه كل المجتمعات .. وهو الصناعة والزراعة والصراع السياسي .. أما الجانب الياباني الذي لا يشارك فيه اليابان احد .. فله حديث آخر .

العالم يتحدث عن هذه الرواية التي أصبحت مشهورة باسم «رباعية الاسكندرية».. لأنها تتكون من أربعة أجزاء كبيرة.. ولأن حداثها كلها تدور في مدينة الاسكندرية.. وهي رواية تقدم صورة غريبة من بلادنا!

والأجزاء الأربعة لهذه الرواية يقع كل منها في حوالى ٣٠٠ صفحة.. أى أن عدد صفحات الرواية يصل إلى حوالى ١٢٠٠ صفحة.. وكل جزء من الأجزاء الأربعة يحمل اسما مستقلا

هو اسم أحد أبطال الرواية.. وأسماء هذه الأجزاء بالترتيب هى: «جوستين» و«بلتازار» و«مونتوليف» و«كليا».

أسماء غريبة على الأذن!

وسيقول القارئ: أنها ليست أسماء شائعة في مدينة الاسكندرية! ولهذا تفسير سوف يرد بعد قليل.. فقبل ذلك لابد أن أقول كلمة سريعة عن المؤلف نفسه.. ان الصحف والمجلات الأدبية في العالم تقول عنه الآن أنه أعظم كاتب قصة ظهر في السنوات الأخيرة. وتقول عن هذه الرواية الضخمة أنها عمل شامخ خطير.

رواية

غريبة

تدور

حداثها

فى مصر

بطولة :

السفير

البريطاني!

أخبار اليوم .. فى

٦٠ / ١٢ / ٢١

ومع ذلك فالمؤلف كان قبل ظهور هذا العمل مجهول الاسم تماما.. انه الانجليزى يعيش في ريف فرنسا منذ سنوات واسمه «لورنس دوريل». وهو عندما أخرج هذه الرواية لم يكن شابا. أما شبابه فقد قضاه في السلك السياسى البريطانى وفي المخابرات البريطانية. وبحكم وظيفته في السلك السياسى جاء إلى مصر قبل الحرب الماضية وفي خلالها. اشتغل فترة في السفارة البريطانية هنا، بين القاهرة والاسكندرية. ولذلك فإن من بين أبطال هذه الرواية الحسية الجنسية: السفير البريطانى في القاهرة، وعدد كبير من موظفى السفارة! وكثير من حوادثها يجرى في مبنى السفارة البريطانية في جاردن سيتى، ومبناها الصيفى على كورنيش الاسكندرية. ولكن المؤلف لم يلبث أن اعتزل السلك السياسى والمخابرات الانجليزية بعد الحرب ببضع سنوات... وعكف على تأليف الكتب، وأصدر بالفعل عدة كتب لم تنجح في أن تصنع له أى اسم مذكور... حتى أخرج هذه الرواية الطويلة الغريبة، وإذا به يجد نفسه فجأة فوق قمة الشهرة العالمية.. الناشرون يتهافتون على نشر روايته، والمجلات تلاحقه بالصور والأحاديث وسيكوراس ملك السينما يشتري منه القصة ليحولها إلى فيلم على الشاشة.

ولا أنكر أننى وجدت صعوبة في تقديم أحد الكتب أو الروايات كالصعوبة التى أجدها في تقديم هذه الرواية... وليس السبب فقط هو طولها.. البالغ ١٢٠٠ صفحة! وبالتالى كثرة الحوادث وتشابكها الشديد.. ولكن الأسباب التى تجعل تقديمها صعبا تكمن في موضوع القصة نفسها.. وفي أسلوب كتابتها. أسلوب الكاتب - أولا - محير جدا! فأحيانا تصادفك صفحات ركيكة ضعيفة.. عشرات من الصفحات المملة الجرداء تتوالى كالصحراء التى ليس فيها إلا كثبان من الرمل تجعل خطواتك ثقيلة مرهقة. وصفحات أخرى جذابة باهرة.. فيها كل مقومات الكاتب الماهر في صنعة.. من حبكة وإثارة وتشويق وتأمل عميق.. إلى صور خلابة يرسمها للإسكندرية حتى لتشعر أنك تتنفس في المدينة حقا.. وأن الكاتب قد أدخلك فعلا في الجو والرائحة واللون والحالة النفسية التى يعيش فيها أبطال القصة.

وطريقة الكاتب في السرد صعبة جدا.. فهو لا يروى لك خيطا واحدا من الأحداث.. أو لا يروى لك الأحداث في سلسلة متتابعة الحلقات.. ولكنه في كل جزء يروى القصة كلها تقريبا، من جانب معين.. وفي الجزء التالي يروى لك نفس الأحداث ولكن من جانب آخر.. وفي كل مرة تتكشف لك حقائق جديدة.. ويبدو لك نفس الأفراد في ضوء جديد يختلف عن الضوء الذي رأيتهم فيه أول مرة.. ولا أذكر الآن أين قرأت لأحد النقاد قوله: انها كالورقة المطبقة حين تفتحها. انك ترى دائما نفس الورقة، ولكنها كلما انفتحت أمامك، رأيت مساحات جديدة منها!

فالمؤلف لا يقف في أول أحداث القصة ثم يسير بها إلى نهايتها.. كلا.. ولكنه واقف في وسطها. أحيانا يسير إلى الأمام، وأحيانا يعود إلى الوراء ليروى ما حدث من سنوات. وأحيانا يخطو إلى اليمين.. أو يخطو إلى اليسار، ليتطلع إلى زوايا وجوانب أخرى لا يراها من مكانه الأول..

شخصية «بيرسواردن» مثلا. موظف السفارة البريطانية بالقاهرة، الفنان، الحساس.. وأخته العمياء التي يرأسها في لندن.. ثم اختلافه مع قسم المخابرات السرية في السفارة: فقسم المخابرات يقول أن الشاب المصري «نسيم» مشترك مع عصابة يهودية تعمل على تهريب الأسلحة من أوروبا إلى فلسطين «وكان هذا قبل الحرب العالمية أيام كانت عصابات اليهود تقود حركة سرية ضد البريطانيين» ومعنى هذا أنه أيضا يخون قضية العرب في فلسطين... أما بيرسواردن.. فهو يعارض هذا الرأي.. انه يعرف نسيم وهو صديقه الحميم ومستحيل أن يصنع هذا ولكنه بعد أن ينتصر على المخابرات البريطانية يكتشف بالصدفة أن هذه الواقعة صحيحة. وينتحر بيرسواردن. وينزعج السفير البريطاني الذي كان معجبا به. وتأتي أخته العمياء الباهرة الجمال إلى القاهرة والاسكندرية لتصفى أوراقه. ولكننا في جزء آخر نرى واقعة انتحاره خلال ضوء جديد.. لقد كانت بين بيرسواردن وأخته العمياء علاقة شاذة، وقد أنجب منها طفلة ميتة وبرغم نقله إلى مصر فقد ظل بينهما حب غريب عميق لا علاج له. وفجأة ظهر في حياة هذه الأخت «ليزا» رجل آخر... وكانت هذه هي النهاية بالنسبة لبيرسواردن.. فانتحر.

وفي مكان ثالث.. نعرف أن هذا الرجل الآخر الذي ظهر في حياة ليزا في لندن هو «مونتوليف» السفير البريطاني في مصر، وذلك حين تعرف عليها في لندن قبل نقله إلى القاهرة وقد عرف بيرسواردن ذلك بعد قدوم مونتوليف بمدة.. فانتحر.. أما حضور ليزا بعد موت أخيها إلى القاهرة فلم يكن لتصفية أوراق أخيها كما فهمنا من قبل.. ولكن لكي تعيش مع عشيقها السفير!

نسيم !

نموذج آخر

في الأجزاء الأولى نرى شخصية «نسيم» الشاب المصري الواسع الثراء، وزوجته «جوستين» اليهودية الغامضة الحسناء، ذات المغامرات التي تتهاوس بها المدينة، والشهوات التي تلهث حولها. ونستمع إلى قصة «دارلي»، وهو الراوى الذي يروى جزءا كبيرا من الرواية. ودوره في الرواية دور رجل انجليزى يقوم بتدريس اللغة الانجليزية في إحدى مدارس الاسكندرية وهو الدور الذى يبدو أن المؤلف يتقمصه كثيرا في الرواية، خصوصا اذا لاحظنا أن اسم البطل «دارلي»، واسم المؤلف «دوريل».. أقول نستمع إلى قصة غرام دارلي هذا بجوستين زوجة نسيم. وهواه العميق لها. وهجره صاحبتة الراقصة اليونانية «ميليسا» من أجلها.

ولكننا حين نصل إلى الجزء الثالث نكتشف عن نسيم وعن زوجته جوستين أشياء غريبة. فنسيم، كما ذكرت من قبل، كان مشتركا في عمليات تهريب سرية لصالح العصابات الصهيونية في فلسطين. وقد حار كيف يظفر بقلب اليهودية الغامضة جوستين.. فلم يجد بدا آخر الأمر من أن يعترف لها بحياته السرية ونشاطه الخطير. وتعجب به جوستين وتتزوج. زواجا فيه من وحدة الهدف أكثر مما فيه من الغرام. وقد كان في المدينة يهودى آخر عجوز اسمه كوهين، كان مشتركا مع نسيم في عمليات التهريب، ثم مات. وكان كوهين هذا عشيقا لميليسا، الراقصة التي هي عشيقة دارلي. وقد خاف نسيم أن يعرف دارلي شيئا عنه من ميليسا فاتفق مع زوجته جوستين أن تقنع دارلي بأنها تحبه ولو أعطته كل شيء.. لكي تعرف منه هل عرف شيئا من «ميليسا» أم لا.. أى أن الهوى كان حقيقيا

من ناحية دارلى ومصطنعا من ناحية جوستين.
ولكن ميليسا كانت قد فقدت حبها لدارلى من زمن وأصبحت صديقة
بيرسواردن. وتحدث زلة اللسان المنتظرة أمام بيرسواردن لا أمام دارلى.
فيعرف بيرسواردن أن نسيم جاسوس ومهرب.
وعندما ينتحر بيرسواردن - سواء بسبب حادث الجاسوسية أو بسبب
حادث أخته - ويكتب إلى السفير مونتوليف خطابا يحيطه فيه بأن اتهام
نسيم - صديقه وصديق السفير - بالتجسس صحيح. يقع السفير
مونتوليف في مأزق حرج. لأن السفير أيضا له قصة قديمة غريبة.

السفير!

لقد جاء «مونتوليف» إلى مصر مرة كشاب مبتدئ في السلك السياسى
البريطانى، قبل أن يجيئها كسفير. وفي المرة الأولى كان موظفا تحت التمرين
وكان قد تعلم اللغة العربية جيدا. فأرسلته السفارة إلى بيت أسرة مصرية
ليتقن اللغة العربية، وكانت الأسرة قبطية وهى أسرة نسيم: أب مقعد
مريض، أم شابة جميلة اسمها ليلي.. متعلمة سافرت إلى أوروبا كثيرا
وتثقت ثقافة واسعة ولكنهم زوجها لهذا الرجل الذى اختارته الأسرة
طبقا للطريقة القديمة. ولداها وهما نسيم ونيروز.

• وفي تلك الأيام وقعت الأم الشاببة ليلي في غرام الشاب الانجليزى
مونتوليف.. جذبها إليه شبابه. وجذبها إليه أكثر «العالم الذى ينتمى إليه».
إنها منذ عادت من أوروبا حبيسة هذا البيت الريفى فى «أبى جرج» حيث
توجد عزبة زوجها. نافذتها الوحيدة على العالم الذى تحبه هو الصحف
والمجلات الأوروبية التى تشترك فيها بكثرة والأوراق التى تكتب فيها
خواتمها من حين لآخر والزوج المقعد العاجز يحس بهذا وإن كان لا يظهر
علمه إلا على شكل انفجارات سياسية أمام مونتوليف يقول فيها ان
الانجليز سيئون إلى الأقباط فى مصر، فقد كان الأقباط دائما يعيشون فى
سلام ويتولون أبرز المناصب ولكن الانجليز هم الذين يحاولون إظهار
الغيرة على الأقباط لا لشيء إلا لمجرد التفريق بين الطوائف.

وينقل مونتوليف من مصر فلا يعود إليها الا سفيراً. ولكنه طوال هذه
السنين كان يربطه بالأسرة شيئان: الأول هو صداقة نمت بينه وبين نسيم.

الذى كان يلقاه خلال رحلاته إلى أوروبا والثانى هو الخطابات التى كان يتبادلها مع ليلى بلا انقطاع طول هذه السنوات. أصبح هو روحها المتجولة خارج حدود (أبوجرج).. يرى لها المتاحف ويشاهد لها المسرحيات ويكتب لها عن كل شىء.. ويرسل لها الكتب التى تحب أن تطلع عليها. وهاهو يعود إلى مصر سفيرا وقد توثقت صداقته بنسيم.. ليجد أنه يقوم بعملية تهريب أسلحة ضد سياسة بريطانيا فى ذلك الوقت!

ويواجه مونتوليف الأمر الواقع ويبلغ الأمر إلى وزارة الداخلية المصرية. وعندما تقوم الحرب تصدر الحكومة أموال نسيم وتحدد إقامة زوجته جوستين فى أبوجرج بعد أن مات أبوه وأرغم أمه على أن تهاجر إلى الخارج خشية أن يصيبها شىء بعد أن انكشف تأمره..

هذه الأحداث - وغيرها - ليست هى القصة. والقصة على أى حال فيها أكثر من ألف صفحة من مثل هذه الأحداث. ومع ذلك فالشخصيات الهامة فى القصة تعتبر قليلة نسبيا. اذا قيست بطول الرواية وكثرة زواياها. فالمؤلف قد اختار طريقة خاصة هى: انتخاب عدد قليل من الشخصيات، ثم «تقليب» هذه الشخصيات على مختلف الجوانب ووضعها فى شتى المواقف والأوضاع، وكل وضع أو موقف يعطيها جانبا آخر أو ينزع عنها فكرة سابقة... وكأن المؤلف يمسك بكل شخصية ويقول لك: هذه الشخصية يمكن أن تكون هكذا.. ويمكن أن تكون هكذا.. يمكن أن تكون عادية.. ويمكن أن تكون شاذة.. يمكن أن تكون طيبة ويمكن أن تكون خسيصة.. وهكذا! فهى لعبة من قطع قليلة يمكن أن تبتكر منها آلاف الأشكال كلما غيرت فى طريقة ترتيبها وتكوينها!

اسكندرية : كليوباترا !

ولكن...

أين «الاسكندرية» فى هذه القصة وأين «مصر» التى تقع فيها هذه الاسكندرية؟

هذا السؤال قد لا يخطر على بال قارئ يقرأ القصة فى أى مكان من العالم. أما اذا كان من مصر فالسؤال يبدو ملحا وقويا، وأساسيا. لقد اختار المؤلف شخصياته كلها من جو الأقليات المهاجرة إلى

الإسكندرية، واليهود واليونان والانجليز والأرمن والإيطاليين والفرنسيين وغيرهم. ومع ذلك فهو لم يختار ذلك الفريق من المهاجرين الذين يندمجون في البلد الذي يعيشون فيه، أو الذين يعرقون ويتعبون سواء ظلوا بعد ذلك فقراء أو أصبحوا أغنياء.. ولكنه اختار فئة مغلقة على نفسها تماما. تعيش في الاسكندرية «كمكان» دون أن تتفاعل معها كشعب أو كمدينة. وهذا صحيح في بعض الحالات وليس في كلها فلاشك أن بعض الأجانب المهاجرين تكون مأساتهم في أنهم يظلون أجانب مهاجرين إلى الأبد، منعزلين دائما عن العالم الذي جاءوا إليه. يدورون حول أنفسهم.

وقد ملأ المؤلف هذه البيئة التي اختارها بأنواع من الشذوذ لا أول لها ولا آخر. ولا أدري بأية نفسية جعل المؤلف هذه الحالة من الشذوذ الجنسي تغمر الجميع.. ولكنني أجد أنها تعبير عن السوس الذي ينخر في كيان هذه الفئة، وعن الانهيار الداخلي فيها. وعجزها التام عن أن تخرج عن حلقة ضيقة صنعتها لنفسها فقط عن المدينة التي يعيشون فيها. بل وغرباء حتى عن مدنهم الأصلية التي قذفتهم إلى الاسكندرية. فهم بدون جذور، في أي مكان من الأرض و«المصريون» الذين يحتكون بأبطال القصة لا يظهرون إلا في صورة خادم أو سائق أو بواب. تماما كما يذهب السائح إلى بلد فينزل في فندق لا يبرحه، فلا يرى من أهل البلد إلا خدم الفندق وموظفيه.

الشخصيتان المصريتان الوحيدتان اللتان لهما بعض الدلالة هما: ليلي ونسيم...

أما ليلي، فقد رسم بها صورة للمصرية التي تعلمت في وقت لم ينتشر فيه التعليم. وشقاء من تعيش بثقافتها العصرية في جو غير مثقف. على أن «نسيم» هو الشخصية المصرية الهامة في الرواية، وعندما نتأمل الأسباب التي نسجها المؤلف لكي تؤدي إلى انحراف نسيم ودخوله في حركة سرية لحساب العصابات الصهيونية.. نجد أنه كان موفقا في بعضها، وكان غير موفق في بعضها الآخر..

فقد اختار المؤلف أن يكون نسيم من الأقباط، في محاولة لإدراج الأقباط بين سائر الفئات الأخرى المهاجرة.. وهذه فكرة خبيثة وغير صحيحة،

فالوطنيون الذين سقطوا برصاص الاستعمار كانوا من جميع الطوائف، والذين قبض عليهم في قضايا خيانة أو جاسوسية كانوا أيضا من جميع الطوائف. وأنه لمن الطريف أن نلاحظ جملة سجلها المؤلف على أنها من الخطط التقليدية للسياسة البريطانية في أي بلد وهي «التركيز على الأقليات التي تكون مستعدة لأن تناضل».

فمحاولة استثارة الأقليات أسلوب سياسي بريطاني في كل بلد. ومع أن المؤلف يسجلها متهمًا، فهو كموظف سابق في السلك السياسي البريطاني لم يستطع أن يتأثر بهذا الأسلوب.

على أننا يجب أن نسجل أن محاولته هذه ليست كاملة. فإن نيروز شقيق نسيم في القصة كان خطرا على نسيم. وقد أغتيل نيروز في ظروف توحي بأن شقيقه نسيم وزوجته جوستين هما اللذان حرضا على قتله خشية أن يفتضح أمرهما. وهذا يجعل الخيانة محصورة في نسيم كفرد. فإذا نظرنا إلى نسيم كفرد، نجد أن المؤلف كان ناجحا في وضع الملامح التي تجعله في النهاية قابلا للخيانة. فالبيئة النازحة التي عاش فيها. هجرته من عالم بلاده إلى عالم «المهاجرين» إلى بلاده. ضعف شخصيته وخستها في الأصل وهو ما نلاحظه في كونه كان يعلم من البداية بعلاقة أمه بمونتوليف، وتسهيله لهذه العلاقة بعكس أخيه نيروز الذي كان يقف إلى جانب أبيه المخدوع..

هذه البذور الضعيفة في تكوينه هي التي جعلته كما قال المؤلف منتما إلى هؤلاء الغرباء، أصبح معاديا لبيئته من باطنه. وهذا هو السبب الحقيقي لخيانته، وليس السبب هو التبريرات النظرية السخيفة التي قالها لجوستين وهو يعترف لها بدوره في المؤامرة.

وخارج هذه الشخصيات الرئيسية التي تتخبط داخل هذه الدائرة المغلقة، كانت الاسكندرية تبدو أحيانا — على دقة الوصف التفصيلي — وكأنها ليست الاسكندرية بالذات... إنما هي مكان «مجرد» يمكن أن يكون أي ميناء آخر في العالم.. يمكن أن يكون هونج كونج أو نابولي أو طنجة:

وفي كثير من الأحيان كنت أشعر أن المؤلف يتحدث عن اسكندرية عصر كليوباترا.. اسكندرية البطالسة.. أو الاسكندرية التي نجدها في رواية

«تاييس» لأنتول فرانس مثلا.

ومن أجل ذلك كان المؤلف يحاول أن يفصل الاسكندرية عن مصر.. انها اسكندرية يونانية رومانية تنتمي للبحر الأبيض لا للقطر المصري فحين انكشف نسيم يقول المؤلف مثلا: «حين ضيق المصريون عليه الخناق خف أهل الاسكندرية لنجدته... فاشترى أصحابه ممتلكاته لكيلا تصدر على أن يعيدوها له فيما بعد»... فالمصريون عنده شيء.. وأهل الاسكندرية شيء آخر. وأهل الاسكندرية الذين يقصدهم طبعاً هم تلك الدائرة الأجنبية التي «هاجر» إليها نسيم.

أما مصر.. وعالم «المصريين»، فان يبدو كأنه عالم سحيق متخلف، ومختلف تماماً أية خطوة يخطوها أحد أبطال القصة إلى بيئة محلية أو شخصيات محلية، كانت تبدو كأنها رحلة إلى عالم غامض غريب. وقد كان المؤلف يرسم هذا العالم دائماً رسماً بشعاً كريهاً.. صحيح أنه اختار فترة ضعف وانحيار في تاريخ مصر.. وهي فترة قبل الحرب العالمية الثانية وأثناءها حين ملأت جنود الحلفاء البلاد... ولكن صورته البشعة كانت أبعد من ذلك أيضاً.

إذا ذهب إلى الريف: فهناك يروى أشياء غريبة.. كمشهد الأعراب يأكلون جملاً.. اذ يقول أنهم يجعلون الجمل «يبرك» وهو حي، ثم يهجمون عليه بالسواطير والسكاكين، كل واحد يقطع جزءاً منه، والجمل رافع رقبتة الطويلة والدم يتدفق من فتحات جسده كالنوافير وكل ألم الدنيا في عينينه!

أو يصف كيف أن نيروز نادى مرتين على خادم من أبناء الفلاحين في عزبته فلم يحضر.. فأمسكه وقطع له أذنه بسكين عقاباً له.. وأمسك الطفل الطفل بالأذن المقطوعة في يده وجرى إلى أبيه باكياً والدم يسيل منه!

أشياء وحشية لا ظل لها من حقيقة.. كأنها تحدث في أعماق الغابات! وإذا ذهب إلى الأحياء البلدية في الاسكندرية.. فهو يصف بيوت دعارة للطفلات الصغيرات.. ويرسم لها صورة بشعة تثر الغثيان.. ويكرر الرحلة إلى هذه البيوت كثيراً. كأنها من الملامح الأساسية.. فالسفير ذهب.. وجوستين ذهبت.. ودارلى ذهب!

الرشوة

وإذا ذهب إلى «الجهاز الحكومي» المحلى.. فهو يصف لنا صورة الدولة المتعفنة التي كانت موجودة في مصر قبيل الحرب. الوزراء الذين يرتعدون من الملك أو من السفير البريطاني.. والوزراء المرتشون.. والركود والخمود والفوضى والخوف والإهمال..

رمز هذارجل اسمه «مملوك باشا» جعله المؤلف وزيرا للداخلية.. فحين أحس نسيم أن السفارة البريطانية ستبلغ وزارة الداخلية عنه، بدأ يبحث كيف يتلافى القبض عليه.. فأرشدوه إلى «المفتاح» إلى قلب مملوك باشا وهو الرشوة!

ثم يصف لنا طريقة الرشوة:

كان مملوك باشا يجلس في غرفة الصالون يستقبل الزوار، فيقول له الراغب في رشوته أنه قد عشر على مصحف نادر رأى أنه جدير بأن ينضم إلى مجموعة المصاحف النادرة التي اشتهر مملوك باشا باقتنائها. ويقول مملوك باشا أنه سيصعد بالمصحف إلى الطابق الثاني ليرى هل لديه مثله أم لا. وهناك يفتح المصحف ويعد النقود. فإذا كانت الرشوة كافية، احتفظ بالمصحف وعاد يقول أنه فعلا نادر، وإذا كانت غير كافية أعاد المصحف إلى صاحبه قائلا: انه وجد أن لديه مثله!

وبهذه الطريقة استطاع نسيم أن ينجو!

وفي نهاية الجزء الرابع من الرواية، وقد انتهت الحرب، نجد أن جوستين قد أطلق سراحها، ونجدها تسير في شارع سعد زغلول هي ومملوك باشا ونسيم. لقد رفع الحجر عن نسيم أيضا. وسياسا هو وجوستين إلى سويسرا حيث يقومان بنشاط أوسع في التآمر.. أما كيف استولت جوستين على مملوك باشا: انه جوعان للاختلاط بالمجتمع الراقى.. جوعان إلى التعرف بنساء بيض.. وهذا ما تحققه له جوستين!!

وقد أحسست عندما انتهيت من قراءة الرواية أن المؤلف يشبه الرجل الذي افتتح محلا وأراد أن يجلب له أكبر عدد من الزبائن، فقرر أن يعرض فيه كل أنواع السلع الممكن بيعها للناس!

كذلك فإن لورنس دوريل جمع في قصته كل أنواع المقارقات وكل أنواع

القصص وكل أنواع المدارس الفنية والقصصية المعروفة..
وماذا تريد مثلاً؟

مغامرات؟ هناك مغامرات جاسوسية وتهريب أسلحة واغتيال في
الظلام ومسدسات.

غرام عذري؟ هناك قصص حب بالمراسلات التي تستمر عشر سنوات
لا يلتقى فيها العاشقان.

شذوذ وجنس؟.. انه موجود في أكثر من نصف صفحات الرواية!
هناك أيضاً حفلات تنكرية تحدث فيها مفارقات غريبة كالقصص
الخيالية القديمة..

هناك أيضاً فتاة يقع في غرامها رجل وتختفى سنة ثم يجدها الرجل
فيجد أنها بدون أنف، فينفق عمره في البحث عن أنف لها.. والبحث عن
أطباء يركبونه لها..

هناك أيضاً جو الموالد والمجاذيب والسحرة والمشعوذين.
هناك كذلك قصة ضابط بوليس انجليزى شاذ، مات.. وتحول قبره
بمجموعة مصادفات إلى أسطورة تقول أنه من الأولياء.. له مولد وله مقام
يزار!

كل حيل كتاب القصة وكل مفاجآتهم التي عرفت في آلاف القصص..
جمعها لورنس دوريل في روايته بدون استثناء تقريباً!
وبعد..

ان المؤلف لورنس دوريل يرسم للاسكندرية صورة بنفسجية بديعة،
بكل ما فيها من تفاصيل وضواح وأسماء. محطة الرمل وشوارع سعد
زغلول والنبى دانيال والسبع بنات وفندق سيسيل ومطاعم المكس المطلة
على البحر ورمال العجمى البيضاء. ولكنه يرسم للمجتمع صورة جارحة
هابطة تنزف بالصدید، ويرسم «للمهاجرين» صورة تنزف بالصدید،
لا يكاد المرء يعثر في روايته على شخصية فيها ولو قليل من مقومات القوة،
أو حتى على شخصية فيها صراع بين القوة والضعف. كل البشر عنده
تقريباً مشوهون من الداخل، مستسلمون تماماً للضعف والنقائص بدون
أية مقاومة أو صراع. واستكمالاً لهذا الإحساس حشد في قصته عدداً لا

مثيل له من ذوى العاهات. ليذا الجميلة الفاتنة عمياء. سميرة عذراء الاسكندرية بدون أنف. نيروز شقيق نسيم مشقوق الشفتين. نسيم نفسه يفقد إحدى عينيه خلال الغارات. وتنتهى القصة، وهو بعين واحدة. و«كلية» الرسامة، تنتهى القصة ويدها التى ترسم بها مصابة! وبعد..

هل هو كاتب «عظيم»؟

أعتقد أن التاريخ الأدبى لن يضعه فى مصاب الأدياء العظماء. لأن كاتب القصة العظيم لابد أن تكون فيه صفة هامة جدا، وهى: إحساسك بأنه يتعاطف مع الانسانية الممتلئة فى أبطال قصصه كلهم.. أو بعضهم. وهذا ما يفتقده «لورنس دوريل». انه لا يروى قصة الحياة ولكنه يروى «فضيحتها». وهو يحاول أن يدس فى نفسك احساسا بالشماتة لا بالعطف.

هل صحيح أن عاطفة العربي
أقوى من عقله؟.. هل صحيح أن
العربي حزين.. يخل من السعادة
ويعتبر الفرح ضعفاً؟.. ما معنى
كلمات الشرف والعرض والنخوة؟..
ما هو سبب الشك الغريزي بين
الرعية والحكام في المجتمع العربي؟..
ما هو سر فساد الإدارة وفشل
البرلمانات؟..

هل صحيح أن كل عربي -
وعربية - له حياة خاصة به.. وحياة
يتظاهر بها أمام الناس؟!..

كيف يحب العربي وكيف يكره؟ كيف يثور
وكيف يهدأ؟ متى يكون صريحا ومتى يكون مأكرا؟..
إن معرفة الجانب المعنوي عن أنفسنا لا تقل
أهمية عن معرفة الجانب المادي. اننا نهتم بأن نعرف
طبيعة بلادنا، وثرواتها، جبالها ووهادها، بترونها
وحديدتها.. ولكننا يجب أن نهتم بأن نعرف نفسية
شعوبنا.. بقوتها وضعفها، بثروتها وفقرها،
بمرتفعاتها ومنخفضاتها!.

يجب أن نعرف أخلاقنا.. نحن أبناء الأمة
العربية..
أخلاقنا الفردية..

السراج

العربي !

أخبار اليوم .. في

٦١ / ٢ / ٤

وأخلاقنا الاجتماعية ..

وأخلاقنا السياسية !

ويجب ، قبل أن نخوض هذا البحر ، أن نكون واسعي الصدر.. وأن نكون أقوى من أن نخالف هذا «النقد الذاتي»..

إن في يدي كتابا ممتعا، كتبته باللغة الانجليزية استاذة لبنانية، اسمها الدكتورة سنية حمادي ، تعمل مدرسة في إحدى جامعات أمريكا.. موضوعه «مزاج العرب وشخصيتهم!»..

والكتاب فيه حق كثير.. ولكن فيه أحيانا قسوة كبيرة تخرج عن نطاق الحق. ومن الصعب أن يفصل القارئ بين ما في الكتاب من حق وبين ما فيه من مبالغة.. لأن الاثنين كثيرا ما يختلطان إلى درجة كبيرة..

عاطفة العربي

من اللمحات التي تقولها المؤلفة مثلا .. قولها :

« عندما يريد العربي أن يشرح رأيه للأجنبي مثلا.. نرى أنه يرفع صوته، وينفعل، ويستعمل عبارات التأكيد، والتجسيم، والمبالغة، في اندفاع عاطفي شديد.. ويظن الأجنبي أن الموقف خطير. وأنه مشحون بالغضب والخلاف. وهذا غير صحيح طبعاً. فإن هذه هي طريقة العربي في التفاهم حتى مع أخيه. أما العربي فإنه في هذا الموقف قد يفسر سكون الأجنبي وهدوؤه على أنه نوع من عدم التجاوب أو عدم الاهتمام! وسوف يدهش العربي حين يجد أن الأجنبي لا يقدر «فصاحته» في حد ذاتها بصرف النظر عن رأيه في الموضوع ذاته. ولكن الأجنبي لا يستطيع أن يفصل بين «الفصاحة» في حد ذاته وبين الموضوع نفسه ..

والعربي حين يتحدث إلى أحد ويريد أن يؤثر عليه، يعمد إلى أسلوب من الاتصال الجسدي بمن يحدثه. فهو يربت على كتفه، أو يمسك بذراعه، أو يقرب وجهه من محدثه قريباً شديداً.. أما الأجنبي فإنه يبتعد إزاء هذا الاقتراب.. لأنه تعود على وجود مسافة ملحوظة بينه وبين محدثه. وقد ينزعج كل منهما لسلوك الآخر دون أن يدرك السبب..

والعربي يحب دائماً أن يكون «شخصه» محل رعاية خاصة.. يجب أن يشعر أن هناك معاملة خاصة به هو شخصياً حتى في أبسط الأمور.. سواء

كان فى مكتب أو فى ضيافة.. فالعاملة الحسنة عنده لاتكون إلا إذا اقترنت بدرجة من الانتباه الشخصى له أو «بعمل خاطر» خاص له. فى حين أن الأجنبى لايتوقع عادة إلا معاملة عادية طيبة له وللآخرين على السواء، ولايتوقع هذا التفضيل الشخصى له.

والعربى لايحب أن يقول صراحة انه جوعان مثلاً، حتى مع أعز أصدقائه. إنه يحب أن يبتعد عن الطعام مرارا بحجة أنه شبعان . لأن المفروض أن «يعزم» عليه صاحب البيت مرة ومرتين حتى يكاد يرغمه على الأكل إرغاماً، ليأكل، حتى ولو كان جوعان، فمن سوء التهذيب عنده أن يقول إنه جوعان ويأكل مباشرة. بعكس الأجنبى. وكثيرا ما يقوم الضيف العربى من أمام مائدة الأجنبى جوعان، لأنه عندما قال لمضيفه «لا، شكراً» صدقه صاحب البيت ولم يعزم أو يحلف عليه من جديد !

والعربى يحب أن يلقي اللوم فى مشاكله وأخطائه على عاتق سبب خارجى عنه. فغضب العربى يتجه إلى الخارج لا إلى الداخل، إلى الغير لا إلى النفس . ولذلك كان غضب العربى دائماً على الصوت، أكثر مما هو عميق فى النفس !.

العقل العربى

ومن النماذج الطريفة فى كتاب الدكتور سنية حمادى، فصل عقده للحديث عن «العقل العربى».. تقول فيه المؤلفة أن العربى لديه ثروة ضخمة من الكلمات والعبارات الشفوية والنطق الفصيح المنغم والأمثال والاستشهادات والحكم والأقوال المأثورة، فاللغة فى حد ذاتها - كمجرد لغة - لها أثر على عقل العربى أكثر من أثرها على أبناء الأمم الأخرى !

وفى رأيها أن سبب هذا يرجع إلى نشأة اللغة، لقد بدأت الفصاحة عند العرب بإنشاء الشعر. كان الشاعر فى وقت من الأوقات هو الساحر فى المجتمع.. هو الزعيم والمفكر والداعية. هو سلاح القبيلة ضد خصومها . هو مؤرخ القبيلة لأحفادها. أى أن الشاعر كان الرجل الذى يصنع للناس عقليتهم ونفسياتهم وأفكارهم. ولذلك كانت دراسة الشعر عند العرب علماً من أروع علومهم وأكثرها تقدماً ..

وعقل العربى فى رأيها يتميز بأنه لامع، سريع جداً فى رد فعله، وأن

العربي له خيال حي متوثب، وذاكرة قوية لا يتمتع بها أى شعب آخر. وتستشهد هنا بقول المؤرخ الأجنبى «هوكنج» — «إن العربى لا يحمل فلسفته فى المكتبات. إنه يحملها فى نفسه، سواء كان بدويا أو فلاحا أو تاجرا أو ناشرا. ان العربى لم يبيع نفسه للكتب. إنه لا يضيع بدونها. إن بئر عقله فيها ماء خاص به يستطيع أن يغترف منه فى أى وقت يشاء!». .

ولكنها تقول ان العقل العربى فيه ثلاث نقاط من نقاط الضعف ..

النقطة الأولى : أن العقل العربى ليس فيه مكان المزال. ان الحقيقة دائما معقدة فيها أبيض وأسود وفيها أيضا تفاصيل وظلال كثيرة. ولكن العربى لا يرى هذا دائما. ان عقل العربى لا يعترف بالألوان الواضحة. الشئ إما أبيض أو أسود. الانسان إما خير تماما أو شرير تماما الموضوع إما صدق أو كذب. إما أن يقبله كله أو يرفضه كله. فهو عقل لا يتردد إزاء فحص الظلال والتفاصيل الدقيقة فى أى أمر. إنه عقل يستريح إلى أحد الطرفين النهائيين للموضوع .

نقطة الضعف الثانية : هى ما سبق ذكره من اهتمامه باللغة والفصاحة فى حد ذاتها. فالكاتب العربى فى رأيها يهتم بوقع «كلماته» أكثر مما يهتم بوقع «أفكاره». وهو بدلا من أن يحاول تطويع لغته بحيث تتسع لأفكاره، يعتمد بسرعة إلى الاكتفاء بإدخال أفكاره فى قوالب اللغة الجاهزة الفصيحة، بدليل أننا الآن نجد العرب أحيانا يستخدمون كلمات قديمة للتعبير عن معان جديدة فى حياتهم. ومن هنا نجد هذه الكلمات تبدو فى بعض الأحيان غير دقيقة ونجد أن كل واحد يستعمل نفس الكلمة.. وفى عقله معنى خاص لها يختلف عن معناها عند الآخر .

نقطة الضعف الثالثة : إن العقل العربى يقسم الكل إلى أجزاء .. ولكنه لا يضم الأجزاء فى كل واحد فهو يكون رأيه بعد دراسة الجزئيات الخاصة بالموضوع، دون أن يعلم أن جميع هذه الجزئيات فى كل واحد قد يودى إلى نتيجة مختلفة تماما.

والفن العربى فى رأيها دليل على هذا «التجزىء» ..

فالشعر العربى يقوم على أساس وحدة كل بيت من الشعر، لا على أساس وحدة القصيدة كلها. كل بيت من الشعر يقتنص جزءا من الحقيقة بدقة وبراعة غريبة. ولكن تجمع الأبيات كلها حول صورة واحدة معدوم

(هذا شىء يتلافاه الشعر العربى الحديث !)
والموسيقى العربية تقوم على أساس نغمات وحركات متوالية متغيرة،
وليس فيها عنصر «الهارمونى» .

والرسم العربى القديم مدهش فى دقته وتفصيله. ولكنه عبارة عن
وحدة متكررة. فالمساحة الكبيرة تملأها وحدات مكررة من نفس الرسم،
وليس فيها تكوين شامل لموضوع واحد كبير !

وتقول الدكتور سنية أخيرا عن العقل العربى أنه نادر فى ذكائه.. ولكنه
يضعف مفعول ذكائه هذا بعاطفيته. فهو لا يجمع الحقائق المجردة ولكنه
يميل تلقائيا إلى أن يجمع الحقائق التى ترضيه عاطفيا. وهو قد يجمع
الحقائق فى أسلوب فنى بديع.. وليس فى أسلوب حسابى علمى صارم !
هذه نماذج من الكتاب، عرضتها كما هى تقريبا، لتوضيح موقف المؤلف
وطريقته. وأما إذا أردنا أن نحصر فكرة الثلاثمائة صفحة التى يضمها
الكتاب بوجه عام.. فيمكن القول أنها تحدثت عن مزاج العربى وأخلاقه
وشخصيته من ثلاث نواح :

أخلاقه الفردية، وأخلاقه الاجتماعية ، وأخلاقه السياسية ..
والأخلاق واحدة بالطبع. بمعنى أن أخلاق الشخص وطباعه تترك أثرها
الواحد فى سلوكه الفردى والاجتماعى والسياسى على السواء.. والأخلاق
من نواحيها الثلاث - الفردية والاجتماعية والسياسية - هى بالطبع نتيجة
واحدة لظروف وعوامل واحدة.. فتقسيم أخلاق العربى ومزاجه إلى أخلاق
فردية وأخلاق اجتماعية وأخلاق سياسية، هو تقسيم يقصد به التبسيط
وسهولة الفهم ، ولا يقصد به الفصل بينها بأى شكل من الأشكال .

كلام الناس !

فى مجال الأخلاق الشخصية - مثلا - تشرح الكاتبة معنى كلمات
«المروءة» و«الوفاء» و«النخوة» و«الحمية» والمعونة» و«رد الجميل» وهى
كلها كلمات هامة فى قاموس الأخلاق العربية .

ثم تنقل قول أحد العلماء الأجانب «أن العرب تحكمهم كبرياء غريبة
اسمها الشرف.. وأن العربى قد يقتلك إذا خدشت»..

وتلاحظ المؤلفة أن الشرف له جانب جنسى هام.. يتبلور فى كلمة

«العرض». فالعلاقة بين الرجل والمرأة يحكمها تأكيد قوى بطهارة المرأة ونقاء سيرتها قبل الزواج وبعده على السواء. وأن العرض بالنسبة للرجل هو حسن سمعة نسائه، ولذلك كان أقسى ما يمكن أن يوجه من إهانة إلى العربي هو إهانة عرضه.. أى توجيه التهمة إلى نسائه .

ومن الكلمات الهامة جدا فى قاموس الاخلاق العربى «الحشمة».. والحشمة هى السلوك العلنى للفرد، ذلك أن ضغط الرأى العام على الفرد العربى قوى جدا. و«كلام الناس» من أقوى العوامل التى تحدد سلوكه وتؤثر فى تفكيره. خصوصا فى المجتمعات الصغيرة حيث كل الناس تعرف دخائل بعضها البعض. فالحشمة عند العربى هى ألا يشرب علنا . وهى أن يتجاهل زوجته علنا. والمرأة العربية المتحجبة تكشف وجهها إذا سافرت إلى بلاد غريبة، أما فى بلدها فهى تعود إلى وضع الحجاب على وجهها.

والعربى كتوم منطو. فبالرغم من أن يبالغ فى إظهار بعض العواطف كالترحيب أو الحزن أو الغضب أو الحماسة، فإن له فى الواقع حياة أخرى باطنية خاصة به. فى قراره نفسه أشياء لا يطلع عليها أحد قط. وهو حريص على اخفاء نقط ضعفه بالذات. وجزء من هذا الكتمان والانطواء مرجعه إلى الخوف. فبعد سنوات طويلة من القهر والاستبداد والكبت الاستعماري، تعلم العربى أن يكتُم كراهية الحكام أو المسيطرين. وتعود أن يخفى هذا الشك بالاكتمار من القاء القسم والأيمان والحلف بالله وبغير الله بمناسبة وبغير مناسبة .

والعربى، فى أعماق نفسه الغامضة، حزين. فالرجل بين العرب محترم بقدر ما يتمكن من اخفاء فرحة بالأشياء المفرحة والكبار لا يقبل منهم أن يظهرُوا المرح والضحك والاستمتاع بالحياة، لأن هذا يقلل من شأنهم. وأى إظهار علنى للحب أو الشوق بين الرجل وزوجته أو بين الأب وأبنائه ليس مقبولا ، لذلك فهم حريصون على إخفائه ، والفتاة بالذات مطلوب منها هذا السلوك بشدة ، فليس عيباً أن تبكى الفتاة مثلاً إذا عرض أهلها عليها عريسا لا تريده ، ولكنه عيب كبير، إذا عرض عليها عريس تريده ، وأن تبدى فرحها وابتهاجها الشديد! فالعرب أكثر تقبلا لفكرة إظهار الحزن من فكرة إظهار الفرح. وما يباح للنساء فى الجنازات من صراخ وعويل ورفع للصوت وظهور على الرجال، لا يباح لهن مثله فى الأفراح !

والعربي سريع الذهن. حساس جدا، وقد يحكم على انسان ما حكما نهائيا من مجرد تصرف واحد أو خبر واحد سمعه عنه، ربما يكون إشاعة لاغير .

أم فلان !

وفي ميدان الاخلاق الاجتماعية، تلاحظ المؤلفة أن الوحدة في المجتمع العربي ليست «الفرد» ولكنها «الأسرة» والأسرة أو العائلة أو الأهل في المجتمع العربي أكبر من معناها في العالم الخارجي. فالأسرة في الخارج قد تكون الزوج والزوجة والأولاد فقط، ولكنها عندنا تشمل دائرة أوسع من ذلك قليلا .

وفي البيئات العربية التقليدية يعرف الفرد بأهله. فهو يقدم إلى الناس على أنه فلان ابن فلان. وبمجرد أن ينجب الرجل أو المرأة يصبح اسمه أبا فلان أو أم فلان. وأكثر مدح يقال عن فتى أو فتاة هو أنه «ابن ناس طيبين» أو أنها بنت ناس طيبين. فنحن نعتقد أن الصلة العائلية قوية الأثر جدا. لانؤمن بأن الفرد وحدة قائمة بذاتها.. قد يكون خيرا أو شريرا بصرف النظر عن ناسه وأهله .

وهذا يقودنا - قبل الأوان - إلى الأخلاق السياسية.. فالأهل والأسرة عنصر هام في الحياة الاجتماعية والسياسية.. ففي المستوى القومي، كان من عيوب النهضة القومية دائما أن ولاء الفرد كثيرا ما كان ينصرف إلى الأسرة أو القبيلة أو العشيرة أو الطائفة التي ينتمي إليها . فعوامل التجزئة قد تركت آثارها العميقة على مر السنين والقرون والأجيال.. ومن أهم الآثار التي تتركها حركة القومية العربية الآن هي أنها تذيب هذه العوامل البالية.. وتصهر الشعور القومي الشامل من جديد.. ليعود الولاء الكامل إلى الأمة كلها ككيان واحد كبير ..

ومناصب الحكم والإدارة في الدول العربية تتأثر إلى حد كبير بالأوضاع العائلية الموروثة. والأحزاب السياسية التي قامت في المنطقة قامت إلى حد كبير على أسس عائلية أو طائفية. وقد كان النفوذ الأجنبي يشجع هذا باستمرار.. لأن ابقاء روح التفرقة والتجزئة يجعل الأجنبي دائما في مركز أقوى، مركز الذي يختار ويجمع أو يحل ..

وعندما قامت البرلمانات في البلاد العربية على نمط البرلمانات الغربية، كان المفروض أن النائب - بعد انتخابه - يصبح ممثلاً للشعب كله. ولكن الأوضاع السابقة في المجتمع العربي جعلت هذا مستحيلاً، فقد كان النائب يتصرف على أنه ممثل أسرة أو طائفة أو منطقة ما. وبالتالي كان البرلمان لا يمثل إلا فئة قليلة من مجموع الشعب.

وقد كان النواب كلهم بالطبع من الأسر التي تتمتع بالملكية الزراعية بالذات. كان الناخب لا ينتخب مرشحاً بل المرشح الذي يفرضه رئيس القبيلة أو المالك الزراعي، حتى في المدن الصغيرة تلعب الأسرة المعروفة القوية دوراً أساسياً وتتمتع بفرصة خاصة.

وقد أدى هذا إلى أن النظم البرلمانية في الشرق العربي لما تأت بجديد. فقد سقطت البرلمانات في أيدي نفس الطبقات والأسر التي كانت تحكم وتسيطر وتثري من قبل ظهور البرلمانات. وقد رحبت الدول الاستعمارية - كما تقول المؤلفة بحق - بهذا الوضع.. لأن هذه الطبقات هي التي تعودت الحكم من قبل، ولأنها أكثر تقبلاً لأفكار الغرب من غيرها.

وتقول المؤلفة إن السخط الشعبي العام على البرلمانات من هذا النوع في البلاد العربية ليس مصدره عدم الموافقة على فكرة الحكم الدستوري في ذاتها، ولكن مصدره الاقتناع بأن هذه البرلمانات فشلت في أداء ما كان مطلوباً منها. فهي أبقت على نفس الاستغلال القديم.

الرعية والحكام !

ومن النقاط الهامة التي تثيرها المؤلفة علاقة الناس بالحكومة.. وفكرة الحكم وأسلوبه..

وتسرد المؤلفة هنا تاريخ تلك العلاقة منذ كان الحاكم هو شيخ القبيلة.. ثم ظهور الاسلام.. ثم الامبراطوريات الاموية والعباسية وما بعدها إلى أن جاء الغزو التركي واجتاح البلاد العربية كلها..

وتقول المؤلفة أن «الشرخ» العميق بين «الرعية» و «الحكام» في المجتمع العربي بدأ قبل الاتراك بكثير. وإن كان الاتراك قد زادوه حتى تفاقم تماماً.. بدأ هذا الشرخ.. منذ تكونت الامبراطوريات الاسلامية.. منذ تحولت «الخلافة» من الانتخاب إلى الوراثة.. وبدأ بالتالي الانفصال بين السلطة

وبين المعنى الحقيقي للدين. أصبح الحكم وراثته ومحسوبية وفسادا ورشوة. ابتعدت المسافة بين الله وبين الحكام إلى درجة أصابت «الرعية» بخيبة أمل عميقة جدا. كان يأسهم هائلا بقدر ما كان أملهم عظيما.

ومع مرور الأيام، وقدم الاتراك، تحولت فكرة الدولة كلها إلى فكرة استغلال الناس، كما هو معروف حتى أصبحت وظيفة حاكم القطر نفسها صفقة يشتريها صاحبها بالمال ليكسب منها. وزرع ذلك في نفوس الناس كراهية أصبحت طبيعية ضد كل من هو حاكم وكل ما هو حكومة. فالحكم هو اغتصاب وامتنياز وضرائب وفساد.

ومن ذلك الوقت اقترن منطق الحكم بالفظاظة والتعالى والعنف. أصبح مظهر السلطة هو العنف. وأسلوبها هو الخشونة والفظاظة وازدراء الرعية. اختفت فكرة «المسؤولية» في الوظيفة العامة وحلت محلها فكرة «السلطة».

وعندما نرى ما يتميز به الفلاح المسكين مثلاً من شك وتزلف وكتمان وخوف.. فهو إنما يعتبر عما أصابه خلال مئات السنين، إنه يشك في الحكومة ويرتاب في الأغنياء والأقوياء مهما كانوا لأنهم تعودوا اغتصابه. وهو يتزلف للسلطة. وهو حتى إذا فرح كتم فرحته. وإذا ادخر دفن ادخاره. وإذا رزق رزقا سعيدا أخفاه خشية الحسد.. كأن الحدث السعيد شيء لا يقع وإذا وقع فهو ضد القاعدة وضد ما يتوقعه الناس من دنياهم!

هذه لمحات سريعة من كتاب Temperament and character of the arabs وهذه اللوحات تختلف عن الكتاب نفسه.. في أن الكتاب أكثر حدة في النقد، والهجوم، والتشريح. وفي هذا المجال وقعت المؤلفة في بعض أخطاء هامة..

فمن الصحيح ولاشك أن كل شعب له خصائص تميزه وصفات خاصة به. ولكن من الصحيح أيضا أن هناك كثيرا من الأمراض الاجتماعية ليس مرتبطة بطبيعة أى شعب، بقدر ما هو مرتبط بالظروف التاريخية والمادية والمعنوية التى يمر بها هذا الشعب.

نكثير من العيوب التى ذكرتها الدكتور سنية عن العرب.. هو فى الواقع العيوب المرتبطة بالمجتمع القبلى.. المجتمع الاقطاعى.. المجتمع المظلوم

المقهور.. وهو بالتالي عيوب موجودة في أى شعب يمر بهذه المرحلة وهذه الظروف ولعل المؤلفة أشارت إلى شىء من هذا في بعض الأجزاء.. ولكن هذا لا يكفي إذا كان يجب تقرير هذا المبدأ كقاعدة أساسية في الكتاب.. لا تتعارض طبعاً مع وجود خصائص متميزة للشعب العربى بالذات ..

العيب الثانى أن الدكتوراة المؤلفة كانت تلجأ دائماً إلى التصميم الشديد. فكل صفة تذكرها - في مقام المدح أو الذم على السواء - تذكرها مطلقة.. على أساس أنها تشمل كل العرب.. أو أنها الطابع الغالب للعرب. في حين أننا نعرف أن الأمة العربية، وإن كانت لها خصائص واحدة، إلا أن ظروفها الثقافية والمادية متباينة إلى حد كبير، فبعض أجزاء الوطن العربى مستقل، وبعضها محتل، وبعضها شبه مستقل فقط. وبعض الأجزاء يعيش في القرن العشرين وبعضها يعيش في القرن العاشر وبعضها بدوى وبعضها زراعى وبعضها تنمو فيه بيئات صناعية هامة..

ومن هنا ينجم العيب الثالث وهو أن المؤلفة - رغم أن كتابها صدر سنة ١٩٦٠ - فإنها لم تأخذ في حسابها التطورات الخطيرة التى حدثت في حياة العرب في السنوات الأخيرة. فبدت الصفات التى تحدثت عنها كأنها صفات أبدية، وأزلية في نفس الوقت.. وبدت العيوب كأنها عيوب جامدة.. لا تتحول ولا تتبدل !.

ولكن الكتاب، رغم ما فيه من بعض الإندفاعات مجهود يستحق التقدير.. في حقل يستحق منا مزيد البحث والعناية والاهتمام : حقل دراسة النفس العربية.. والشخصية العربية .. في ماضيها، وحاضرها، تمهيدا لمستقبلها !

أعلن يوجين بلاك ، مدير البنك الدولي ، مولد مهنة جديدة !
أعلن ظهور « دبلوماسي التنمية » و « دبلوماسية التنمية » .. وهى مهنة تختلف عن مهنة الدبلوماسي السياسي كما عرفها العالم قبل ذلك ..

قال يوجين بلاك فى كتاب أصدره من أسابيع : ان العالم قد عرف السياسي الذى لا ينظر إلا الى الاعتبارات السياسية .. كما عرف التاجر والمستثمر اللذين لا يعرفان إلا التجارة والربح والخسارة .. ولكن بين الاثنين فجوة واسعة ظهرت الآن ليملاها نوع جديد هو : الدبلوماسي الاقتصادي .. أو دبلوماسي التنمية !
اسم الكتاب هو « دبلوماسية التنمية الاقتصادية » ..

والذى أوحى له تأليفه بالطبع هو منصبه كمدير للبنك الدولي .. والنماذج التى أضاءت له الفكرة نموذجان :

الأول - الدور الذى قام به بعد حرب السويس ، مع الجمهورية العربية المتحدة ، لتصفية الآثار الاقتصادية للمشكلة .

ثورة

الأموال

الكبيرة !

أخبار اليوم .. فى

٦١ / ٢ / ١١

والثانى الدور الذى قام به لحل الخلاف بين الهند وباكستان حول استغلال نهر السند .

يقول يوجين بلاك ان هذه « الدبلوماسية الاقتصادية » الجديدة هى التى تصنع الآن أكبر الأنباء .. وان كانت هذه الأنباء ليست من النوع الذى تنشره الصحف فى صفحاتها الأولى .

ويطالب يوجين بلاك بأن يكون لهذه الدبلوماسية كيان قائم بذاته مستقل عن الجهاز الدبلوماسى السياسى المعروف ..

يقول يوجين بلاك ان دبلوماسية التنمية الاقتصادية هى فن تحقيق التنمية بأقل قدر ممكن من الصراع . ذلك ان كل تطوير اقتصادى ينطوى حتما على تغيير اجتماعى . والتغيير لا يتم بسهولة . ومن هنا كانت التنمية مهمة دقيقة وخطرة .

ويقول يوجين بلاك ان الناس فى البلاد الفقيرة بدأوا يرفضون الاعتراف بأن فقرهم حظ لا مفر منه ، ويؤمنون ان الانسان يستطيع ان يسيطر على حياته ويغيرها . وقد وجد هذا التغيير الشعبى قادة يعبرون عنه ، وزعماء يريدون ان يحققوا لشعوبهم فى أجيال قليلة كل ما وصلت اليه الحضارة عبر قرون طويلة . ويطلق يوجين بلاك على هذا اسم : ثورة الآمال الكبيرة ! ودبلوماسية التنمية الاقتصادية عليها ان تواجه هذه الآمال المتحمسة ، فالدبلوماسية السياسية منذ قرون تعرف عملية « توازن القوى » .. أما الدبلوماسية الاقتصادية فعليها ان تواجه عملية جديدة يمكن ان تسمى « توازن الآمال » .. أى : كيف تكون للبلاد المتخلفة اقتصادياً آمال متوازنة .

الاقلية المتعلمة فى أزمة نفسية !

ويركز يوجين بلاك على موقف البلاد الناشئة فى أن مشكلتها الكبرى هى الفقر وازدياد عدد السكان . وهذه الزيادة فى السكان قضت على الأمل التقليدى للمواطن فى تلك البلاد ، وهو امتلاك قطعة خاصة به من الأرض ، لأن الأرض لا تكفى . فنحن هنا نواجه حالة « انهيار الآمال القديمة » . وهذا الفلاح نفسه اذا اضطر للهجرة الى المدينة فإنه يحس - أول الأمر على الأقل - بالضيق وعدم الأمن إزاء هذا الشكل الجديد للحياة والعمل والعلاقات . أما الآمال الجديدة فهى فى الواقع مركزة فى الاقلية المتعلمة هى أبرز

عوامل الخطر في البلاد المتخلفة اقتصاديا . انها تواجه أزمة نفسية حادة .
فالثقافة اعطتها من الآمال والاحساسات اكثر مما قدمت لها من فرص
مادية لتحقيق هذه الآمال الطبيب الذي يعرف ماذا يستطيع الطب ان يصنع
من معجزات ، ولكنه لا يجد الأدوات . المهندس الذي لا يجد المصانع .
المدرس الذي لا يجد المدارس والكتب . السياسى الذى لا يجد الاتباع الذين
يفهمون ما يريد ان يصنعه من أجلهم .

هذه الفئات المرهقة نفسيا التى قادت ثورات التحرر الوطنى فى البلاد
المتخلفة . وهى التى عليها الآن مهمة اعداد بلادها لنظم اقتصادية حديثة .
ان يوجين بلاك يعتقد ان الزعماء فى تلك البلاد يواجهون مهمة من
أقسى وأصعب ما واجه الزعماء من مهمات فى جميع مراحل التاريخ ! .
انهم يعرفون ان شعوبهم لابد ان تضحى ، لكى تتخلص من فقرها
وتخلفها .

والسؤال الخطير هو : هل يستطيع مجتمع فقير ان يتطور ، دون ان
يضطر الى الأخذ بنظم قاسية ، أو غير عادلة ؟ .

وفى الفصل الثانى من هذا الكتاب وعنوانه « دبلوماسية المساعدات
الاقتصادية » يبدو يوجين بلاك أكثر فهما لمشاكل البلاد الناشئة من
مواطنيه الأمريكان ، أو من السياسة الأمريكية التى عرفناها الى الآن .
فهو يعترف بالدور القيادى الذى يجب ان تقوم به « الدولة » فى عملية
التنمية الاقتصادية .. ولا يتشبت بفكرة اعطاء كل شىء للاقتصاد الفردى
كما يطالب عادة الاقتصاديون الرأسماليون .

وهو يعترف بأهمية أسلوب « التخطيط » فى انهاض البلاد الناشئة .. بل
ويطالب بالتخطيط كسلاح أساسى فى هذه المعركة .. فالتنمية الاقتصادية
ليست مجرد اقامة سلسلة من المشروعات . بل لابد ان تكون هذه
المشروعات داخلية فى إطار خطة عامة اقتصادية .. وهذه الخطة الاقتصادية
لابد ان تكون جزءا من السياسة القومية للبلاد .

وهو يطلق على التخطيط تعريف طريف فيقول : التخطيط معناه ان
يعرف السياسى نتائج القرار الذى يتخذه ، قبل ان يتخذ هذا القرار ، وليس
بعد ذلك . والتخطيط معناه ايجاد صلة وتجاوب مستمر بين الذين يتخذون

قرارات الخطة ، والذين يتولون تنفيذها .

وهو بعد ذلك يحذر بشدة من وضع خطة شاملة بشكل أكاديمي على أساس ما يتمناه الناس ، لا على أساس الحقائق . لأن مثل هذه الخطة غير الواقعية ، اذ تصبح قانونا للبلاد قد تؤدي الى عواقب وخيمة .

ولكن يوجين بلاك — وهو يسجل أهمية دور الدولة وأهمية أسلوب التخطيط — يقول ان الأخذ بهذا الأسلوب لا يحتاج الى عقيدة معينة أى «ايدولوجية» معينة . فهو يعترف بهذه الأساليب ، لأسباب عملية محضة . والمعنى من هذا الكلام واضح فهو يريد ان يستبعد أى فكرة اشتراكية — أو شيوعية طبعاً — من الموضوع . انه ، كمؤمن بالنظام الاقتصادى الغربى ، يعترف بدور الدولة وبأسلوب التخطيط ، ولكنه يرفض فكرة ان هذه الأساليب جزء من عقيدة اشتراكية ، انه يرفض فكرة ان الاشتراكية قد تكون اكثر فهما لمشاكل الدول الناشئة وأكثر ملاءمة للنهوض بها .

ولذلك فهو يستبعد من الموضوع كله أى لون عقائدى . ويقول ان الاعتراف بدور الدولة القيادى فى التنمية وبضرورة التخطيط الشامل لا يحتاج الى عقيدة معينة .

فهو يحاول إقامة « جسر » بين هذه الاتجاهات وبين الدول الرأسمالية بدلا من ان يقوم جسر آخر بينه وبين الشيوعية !.

وهو فى هذا يسير فى الواقع عالم نهج نظرية الاقتصادى الأمريكى الكبير « والت ويتمان روستو » صاحب النظرية التى سبق ان قدمتها عن مراحل النمو الاقتصادى .

وليس هذا استنتاجا محضا فالمؤلف نفسه ، فى الصفحات الأولى .

من الكتاب ، يذكر هذا البحث لروستو بالتقدير الكبير ..

ثم يعود يوجين بلاك الى إظهار تقديره للصعوبات الجمة التى تواجه البلاد الناشئة ، فى هذا المجال .. فيقول فى صفحات بليغة ان عملية التنمية تصطدم كل يوم وكل ساعة باعتبارات كثيرة .

فهناك صراع دائم بين مطالب التنمية ، ومطالب الناس العادية ورفاهيتهم .

وهناك صراع دائم بين مطالب التنمية ومطالب الأمن والدفاع الوطنى .

وهناك صراع بين مطالب التنمية وبين الرغبة في تشغيل أكبر عدد . كل هذه صراع من الصراع تواجهها خطة التنمية ، كل لحظة يواجهه المسئول عنها موقفا يحتاج الى اختيار .. والقاعدة ان أى انفاق فى أى شىء آخر ، يعد ضارا بمصلحة التنمية وبالتالى يؤجل حل مشكلة الفقر ، ولكن الزعيم السياسى لا يستطيع ان يلغى كل شىء فى سبيل التنمية فحسب .. ان عليه ان يوازن بين أشياء كثيرة .. بين مصالح البلاد السياسية ، وظروفها الدفاعية ، ورغبات الناس العادية ، واتجاهات الفئات المحافظة التى لا تتلاءم بسرعة ، وعشرات أخرى من الظروف . ويقول يوجين بلاك ان « دبلوماسى التنمية الاقتصادية » يجب ان يعترف بأهمية هذه الظروف كلها ويدركها . فلا يمتحن كل شىء على ضوء الربح والخسارة فقط .

نقطة الخلاف

ونقطة الخلاف الأساسية مع يوجين بلاك هى أنه بعد ان يسرد فى فهم دقيق كل ظروف البلاد الناشئة .. لا يصل الى النتيجة المنطقية لذلك وهى : أهمية العقيدة فى الموضوع . فبغير العقيدة فى الواقع لا يمكن ربط هذه الأشياء كلها فى حركة متناسقة مندفعة الى الأمام .

وقد ركز يوجين بلاك حديثه على ناحية رفع الانتاج ، ولم يشر بشىء الى عدالة التوزيع وقد يقال ان هذا موضوع خارج عن اختصاصه كمدير بنك لا شأن له بالسياسة الداخلية لأى بلد ولكن اذا كان المجال مجال دراسة لوجهة نظر متكاملة .. فلا بد من القول بأن عملية رفع الانتاج لا بد ان يراعى فيها « إعادة التوزيع » تدريجا . وهذا فى الواقع هو أهم ما أراد يوجين بلاك ان يستبعده من دراسته ، وهو من أهم ما نؤمن بضرورة وجوده فى أى خطة اقتصادية للتنمية .

أذيعت لأول مرة ، القصة الحقيقية لحادث خطف أدولف ايخمان من الأرجنتين بواسطة مخابرات إسرائيل ، ونقله الى إسرائيل سرا تمهيدا لمحاكمته هناك .. وهي المحاكمة التي سوف تجرى بعد أسبوعين ..

وقد أذاع القصة مستشار بن جوريون الخاص لشئون العلاقات العامة .. « موشي بيرمان » الذي نشرها كاملة في كتاب أصدره بعنوان « خطف ايخمان »

تقول القصة : ان يوم ٢١ مارس هو أول أيام الربيع . ولكنه كان يوما مشئوما بالنسبة لايخمان . ففي يوم ٢١ مارس سنة ١٩٣٥ تزوج ايخمان . وفي يوم ٢١ مارس سنة ١٩٦٠ ، كان اليوم الحاسم في مصيره ، اليوم الذي تقرر فيه اختطافه نهائيا !

لقد كان ايخمان - بعد فراره من أوروبا - يعيش في ضاحية « سان فرناندو » القريبة من مدينة بوينس ايريس عاصمة الأرجنتين . كان يسكن هو وزوجته وأولاده الثلاثة فيلا فقيرة منعزلة . وكان يعمل في مصانع مرسيدس بنز في الطرف الآخر للمدينة .. فكان عليه ان يسير كل يوم حوالى

بقية ورد

أشترها

ايخمان

لزوجته

هي التي

قصت

عاليه!

أخبار اليوم .. في

٦١ / ٢ / ١٨

٣٠٠ متر الى محطة الأوتوبيس الواقعة على الطريق الزراعى المهجور ،
ليركب الأوتوبيس الذى يوصله الى محل عمله .
ولم يكن احد يعرف أن هذا هو ايخمان . كان المعروف فقط ان السيدة
ربة البيت هى « أرملة ايخمان » .. وان ايخمان نفسه مات أما الرجل الذى
يعيش معها فهو زوجها الثانى ويدعى « ريتشارد كليمنت » هذه هى
القصة التى كان الناس يعرفونها ، والتى عاشت هذه الأسرة بها ثمانى
سنوات كاملة ، من سنة ١٩٥٢ الى سنة ١٩٦٠ ، دون ان يقلقها أحد !

المراقبة !

ولكن فى تلك الشهور الأولى من سنة ١٩٦٠ ، كان هناك من يراقب
ايخمان ، دون ان يشعر ..

لقد استأجرت مخابرات اسرائيل بيتا يقع على بعد ٢٠٠ متر تقريبا من
بيت ايخمان . لا تفصله عنه إلا الحقول . وخلف نافذة مفتوحة لا تنسدل
عليها إلا الستائر المعدنية ، كان يوجد « تليسكوب » قوى جدا ، يستطيع ان
يرى كل شىء فى بيت ايخمان .. ويستطيع الناظر فيه ان يسجل كل حركة
يقوم بها ايخمان من لحظة ان يستقيظ من النوم صباحا الى ان يركب
الأوتوبيس الذى يحمله الى المصنع صباحا .. ومن لحظة نزوله من
الأوتوبيس عصرا ، الى ان يأوى الى فراشه !

كان الذى يجلس وراء هذا التليسكوب يدعى « جاد » وهو ليس اسمه
الحقيقى طبعاً ، ولكنه اسمه المستعار . فإذا انطلق الأوتوبيس حاملا
«ايخمان» الى المصنع . ترك « جاد » التليسكوب ليدق التليفون لرجل آخر
من مخابرات اسرائيل اسمه « دوف » ليقول له كلمة واحدة هى « كاراجيل »
وهى كلمة عبرية معناها « كالعادة » أما دوف هذا الذى يتلقى هذا التليفون
فهو يقيم فى شقة أخرى استأجرتها مخابرات اسرائيل أمام المصنع الذى
يعمل فيه ايخمان ، ومعنى ذلك ان يبدأ فى مراقبته من لحظة نزوله من
الأوتوبيس أمام المصنع الى ان يدخل فيه .. ثم فى اثناء خروجه منه آخر
النهار .

ولم يكن دوف يراقبه من تليسكوب .. إنما كان يأخذ فى يده حقيبة
أوراق عادية وينزل الى الشارع ، ويقف على محطة الأوتوبيس التى سينزل

عندها ايخمان . وعندما ينزل ايخمان يحاول دوف ان يتبعه دون ان يثير شكوكه . ان في حقيبة اليد التي يحملها دوف توجد كاميرا حساسة جدا . عدسة الكاميرا هي زرار الحقيبة . وبينما دوف يسير في براءة ، يضغط دوف بأصبعه على زرارين في يد الحقيبة ، فتلتقط صورة متوالية لايخمان من جميع الزوايا !!.

هل هو ايخمان ؟

ولكن .. لماذا كانوا يحاولون التقاط صورة كل يوم .. ويرسلون هذه الصور الى تل أبيب ؟

السبب هو انهم لم يكونوا متأكدين مائة في المائة ان هذا الرجل هو ايخمان بالفعل !!

فمنذ سنة ١٩٥٢ عندما اختفت زوجته وأولاده من النمسا فجأة ، انقطع خيط المطاردة الاسرائيلية لايخمان . كانوا لا يصدقون ان الرجل قد مات . ولكنهم لا يعثرون له على أثر ..

ويقول المؤلف : ان أهم عناصر المطاردة في هذه المسائل هم أفراد الجاليات اليهودية في شتى بلاد العالم .. ومعنى ذلك ان الجاليات اليهودية في كل بلاد العالم تتجسس مباشرة لحساب اسرائيل ، ولو على البلاد التي تنتمي اليها طبعاً . وفي سنة ١٩٥٩ كان هناك تاجر يهودي استطاع ان يدخل المجتمع الأرجنتيني دون ان يعرف احد انه يهودي . وعلى هذا الأساس اختلط بمجتمع الألمان الذين يعيشون في بوينس ايريس . وعلى أساس هذه الثقة سُمع يوماً ان أرملة ايخمان تعيش في أطراف المدينة مع زوج جديد اسمه ريكاردز كليمنت . وأرسل اليهودي الأرجنتيني المتنكر برقية سريعة بذلك الى مخابرات تل أبيب .. فبدأت المطاردة من جديد لمعرفة هل هذا الزوج حقا اسمه كليمنت ، أم انه ايخمان نفسه ؟ .. ان ايخمان برغم خطورة مركزه أيام هتلر فضوره قليلة . الذين يعرفونه شخصيا قليلون جدا . فقد كان حريصا دائما على ان يبقى في الظل . ومن هنا كانوا يلتقطون له ، سرا ، عشرات الصور من كل الزوايا ويرسلونها الى تل أبيب ، حيث يجري عرضها على كل من عرفه أو رآه أو لديه صور له .

وقد كان المرجح انه هو ايخمان .. ولكن الدليل القاطع لم يكن متوافرا .

باقعة الورد !

ومضت مراقبة ايخمان في دقائق حياته يوما بعد يوم وأسبوعا بعد أسبوع ، لتسجيل كل حركة له . كان منتظما في حياته جدا . لا شيء يتغير أبدا . وفي يوم من الأيام .. حدث تغير بسيط .. لقد اشترى ايخمان عند عودته من المصنع باقة فاخرة من الورد ، حملها معه .. وعندما وصل الى البيت فتحت له زوجته .. واعطاها باقة الورد في إعزاز كبير !

وأخذ الذين يراقبونه يفكرون في السبب . ما هي المناسبة التي تجعله يشتري هذا الورد اليوم ؟ . وأخذوا يراجعون ما لديهم من أوراق تضم كل المعلومات عن حياة ايخمان .. واكتشفوا السر !
ان اليوم هو يوم ٢١ مارس سنة ١٩٦٠ .. !

وقد تزوج ايخمان من زوجته يوم ٢١ مارس سنة ١٩٣٥ !
اذن فلا بد ان هذا الرجل هو ايخمان نفسه . من المستحيل إذا كان زوجاً ثانياً لأرملة ايخمان - ان يحضر لها باقة ورد في ذكرى زواجها الأول ! ومن المستحيل ان يكون شراء الورد يوم ٢١ مارس بالذات ، بعد ٢٥ سنة على الزواج ، مجرد مصادفة .

لقد ارسلوا تلك الليلة برقية الى تل أبيب نصها : « الرجل هو الرجل » .
وعلى الفور بدأ التفكير في الخطوات التالية ..

الخطف !

كيف يمكن - أولا - ان يتم خطفه ؟ واين - ثانيا - ينوضع ايخمان في بوينس ايريس حتى يتم اخراجه من البلاد ؟ وكيف يمكن - ثالثا - تهريبه من الأرجنتين الى اسرائيل ؟ ..

وكان لابد من حل المشكلتين الثانية والثالثة قبل تنفيذ عملية الخطف ..
أما عن المكان الذي يمكن ان يسجن فيه ايخمان بعد خطفه ولو لبضعة أيام .. فكان هناك اقتراحان : الأول هو وضعه في فيلا من الفيلات المنعزلة التي يملكها احد يهود الأرجنتين وهم كثيرون وأغنياء . والاقتراح الثاني هو استئجار فيلا تكون ملائمة لهذا الغرض ، حتى لا يورطوا أحداً من أفراد الجالية اليهودية في مغامرات قد تنكشف ..

ويقول المؤلف انهم اختاروا الحل الثاني واستأجروا بالفعل بيتا

معزولا اعدوه لهذا الغرض . وقد لا يكون كلام المؤلف صحيحا . ولعلمهم ، وهذا مرجح بسبب السرعة وضيق الوقت ، استخدموا بالفعل بيت احد يهود الأرجنتين ولكن المؤلف وهو مستشار بن جوريون للشئون العامة ، يريد ان يبعد عن جاليات اليهود في شتى البلاد شبهة قيامهم بأعمال غير مشروعة لحساب دولة أجنبية .. هي إسرائيل !!

أما عن وسيلة نقله الى الخارج فهي أما البر أو البحر أو الجو .. ان نقله بالبر سهل جدا .. ولكن الى دول أخرى في امريكا اللاتينية وهذا لا يقترب به من إسرائيل ..

ان انسب طريقة هي البحر . بشرط ان تكون الباخرة اسرائيلية . لأن قبطان أى باخرة من جنسية أخرى لو ارتاب في الأمر فسوف يطلق سراح ايخمان وينزله في أول ميناء تمر به السفينة . كذلك يجب ان تكون الباخرة اسرائيلية . لأن قبطان أى باخرة من جنسية أخرى لو ارتاب في الأمر فسوف يطلق سراح ايخمان وينزله في أول ميناء تمر به السفينة . كذلك يجب ان تكون الباخرة الاسرائيلية باخرة بضاعة لا باخرة ركاب . لأن باخرة الركاب سيكون فيها ناس كثيرون من جميع الجنسيات وقد يكتشفون الأمر ويثورون .

ولاشك ان الباخرة اسلم من الطائرة لأن الطائرة لا يمكن ان تطير رأسا الى مطار اللد في إسرائيل . بل انها ستتوقف في عدة مطارات وأحيانا تجرى عمليات تفتيش الطائرات .. ولكن ميزة الطائرة انها تصل بايخمان بعد ٢٤ ساعة فقط أما الباخرة فإنها تستغرق أسابيع وقد يذيع النبأ وتحدث ضجة قبل ان يصبح ايخمان في إسرائيل فعلا . ثم ان حراسته خلال هذه الأسابيع في الباخرة صعبة جدا فمن الممكن أن يقذف بنفسه الى البحر في أى لحظة . وتقرر استخدام الطائرة رغم كل ما فيها من مخاطر . ولا يمكن طبعاً ان تكون طائرة ركاب عادية أى تسير خط طيران عادى . لابد ان تكون طائرة خاصة .

الآن تم كل شيء .. تم استئجار طائرة لا يكشف المؤلف عن شركة الطيران التى قدمتها لهم .. وتم استئجار بيت واعداد غرفة فيه كزنزانة ليس فيها أى أثاث . وتم رسم خط الطيران . فالطائرة ستطير رأسا الى مطار

في غرب افريقيا ، لا يكشف المؤلف عن اسمه . ومن غرب افريقيا الى اسرائيل . وبقاء ايخمان في البيت بعد خطفه لا يجب ان يزيد على ثلاثة ايام . لن تذهب زوجته خلالها الى البوليس وإلا فمعنى ذلك انها تعترف بأن زوجها هو ايخمان . وهي لن تفعل هذا إلا بعد أيام .. أى بعد ان تيأس .

وقصة الخطف نفسها عادية . وقفوا له بسيارة بالقرب من محطة الأوتوبيس التي ينزل فيها وتظاهروا بأن في السيارة عطل حتى لا يثيروا شبهات العابرين . واختاروا ساعة عودته الى البيت لأنها ساعة ما بعد الغروب والنور باهت والطريق لا يمر به احد وعندما اقترب منهم ايخمان هجموا عليه مرة واحدة ، وقفزوا به الى حفرة على جانب الطريق الزراعى حيث أتموا ضربة وربط ايديه دون ان يكونوا عرضة لأن تراهم سيارة عابرة ، ثم صعدوا به الى السيارة .. التي انطلقت بسرعة .. و « اذا تحركت حركة واحدة فسوف تضرب بالرصاص ! » .. وكانوا قد عصبوا عينيه حتى لا يعرف مقر السجن الذاهب اليه ..

وعندما دخلوا به الى البيت .. وأغلقوا الأبواب .. اضاءوا الأنوار القوية ورفعوا العصا عن عينيه .. وسأله واحد منهم : من أنت ؟ وكان قد أدرك كل شيء .. فقال أنا أدولف ايخمان . وجعلوه يخلع ملابسه كلها .. ويقف تحت الضوء عاريا تماما .. وفتشوه وفتشوا ثيابه تفتيشا دقيقا .. خشية ان يكون معه أى شيء يمكن ان ينتحر به .

الوثيقة المزيفة !

وهنا يروى المؤلف قصة مضحكة ساذجة . انه يحاول ايهام العالم ان ايخمان ذهب الى اسرائيل طائعا مختارا فهذا ما قالت حكومت اسرائيل في تبرير عملها الذى هذا بكل قانون دولى أو قانون خاص . فالمؤلف يقول انهم قالوا له انهم سيأخذونه الى اسرائيل حيث تجرى له محاكمة عادلة فهل لديك اعتراض ، فقال : لا !! ثم يقول المؤلف ان ايخمان رحب بالمحاكمة لكي يتخلص من العبء الذى يثقله ضميره !

ومن المضحك طبعاً ان نتصور ان ايخمان كان مختاراً ! وان اسرائيل بعد جهود وترتيبات ومغامرات ونفقات سنة كاملة ، كانت مستعدة ان تتركه لو قال انه يرفض المحاكمة !!

وبالمثل - يحاول المؤلف ان يوهمنا ان الوثيقة التي كتبها ايخمان تبرر - قانونا - عملية الخطف .. وثيقة قال فيها « انا الموقع ادناه ، أدولف ايخمان أعلن بملء حريرتي (!!) حيث ان شخصيتي الحقيقية قد عرفت فلا أجد داعيا لمواصلة تجنب العدالة وأعلن رغبتى فى الذهاب الى اسرائيل لأواجه المحاكمة ! وانتى اكتب هذه الوثيقة بملء حريرتى . دون تهديد أو ترغيب لأننى أريد ان احصل اخيرا على سلام النفس ! »

وتحت ذلك توقيع ايخمان وتاريخ « بوينس ايريس فى مايو ١٩٦٠ » . وغرض اسرائيل من ذلك واضح .. ان محاكمة ايخمان فى أساسها غير شرعية لأن أسلوب خطفه غير شرعى ولأن القانون الذى يحاكمونه به غير شرعى . انه عمل انتقامى سافر متجرد من كل تبرير شرعى . وقد حاولوا تغطية ذلك بإرغام ايخمان طبعا على كتابة هذا الاقرار . ومن المؤكد انه كتبه فى سجون قل أبيب .. ولكنهم أرخوا بتاريخ وجوده فى الأرجنتين ليقولوا انه سافر الى اسرائيل بإرادته وليس خطفا .

ولكن .. اذا كان الأمر كذلك .. فقيم اذن كان كل هذا لمحاولة نقله سرا ؟ .. وجاء يوم نقله .. أعطوه فى الليل قهوة فيما مخدر قوى فنام على الفور ثم خلعوا ملابسه وألبسوه بيجام وروب دى شامبر وعلى الباب كانت تنتظره سيارة فارهة .. فقد قالوا انه رجل غنى مريض جدا ومسافر الى الخارج ليعرض نفسه على طبيب عالمى وهذا يفسر انه فاقد الوعي ، وانه فى ملابس النوم . وانه يستأجر طائرة خاصة ! فى المطار اجتازوا به الجمرك بأوراق مزيفة . ونقلوه فى « نقله » الى الطائرة وهو مخدر تماما وغائب عن الوعي .. ومعه اثنان من مخبرات اسرائيل فى ثياب المرضى ! .. ومعهم كميات من القهوة المزودة بالمخدر يسقونه منها كلما لاح انه على وشك أن يفيق ! ..

وقال ابن جوريون فى البرلمان الاسرائيلى ان ايخمان جاء بملء إرادته .

العملاء !

شئ هام يلوح فى كل سطور القصة .. ولا يمكن تصورها بغيره . هو : العدد الهائل من العملاء الذين يساعدون مخبرات اسرائيل ويعملون لها .. كلهم يهود مواطنون فى بلاد أخرى .. يظهر « الولاء للبلاد التى تطعمهم وتؤويهم .. ولا يبتغون إلا الولاء لاسرائيل ! »

أمامنا فرصة كبيرة يجب أن
نستغلها بسرعة .. هي الأزمة القائمة
في إسرائيل!

وليس المهم هنا هو الأزمة ذاتها ..
ولكن المهم هو سبب هذه الأزمة .
الأزمة سببها ما يسمى « قضية
لافون » .. أو قضية « الكارثة المتعلقة
بالأمن » كما تسميها أحيانا صحافة
إسرائيل أن الأجهزة السياسية
والدعائية عندنا يجب أن تتحرك
بسرعة وبشكل مدروس في نفس
الوقت لاستغلال هذه الأزمة .

لماذا ..

لأن سبب الأزمة هو أكبر نقطة سوداء يمكن أن
تسود صفحة إسرائيل في العالم الخارجي .. وفي
الولايات المتحدة الأمريكية بالذات .
صحيح أن إسرائيل ارتكبت أعمالا وحشية ،
كثيرة مازالت آثارها ماثلة في مليون لاجئ ولكن
القصة الجديدة ، المعاصرة لها دائما وقع أعمق وأكبر
على الرأي العام العالمي .

وإسرائيل تهتم جدا باسمها وسمعتها في الخارج
. انها تبني دعايتها على أساس أنها تضم شعبا
اضطهده وعذبه الطغاة لتمسكه بعقيدته وبكيانه .

القصة

الكاملة

القضية

لافون

أخبار اليوم .. في

٦١ / ٣ / ١٨

وهي تهتم إلى أقصى حد بأن يكون لها رصيد معنوي كبير في العالم الخارجي . وأكبر دليل على ذلك استغلالها لقضية ايخمان مثلا . ان إسرائيل لا تبغى مجرد الانتقام من ايخمان . انها تريد دائما احياء قصص اضطهاد اليهود وابقاءها ماثلة في مخيلة الناس ، ليجد الناس مبررا لتصرفات إسرائيل .

ونحن يجب ان نستغل قضية لافون كما تستخدم إسرائيل قضية ايخمان ان قضية لافون ، وقد انكشف الستار عن أسرارها ، يمكن أن تصيب سمعة إسرائيل في الصميم ، وتنبه جانبا كبيرا من الرأي العام المخدوع إلى حقيقتها ..

بشرط أن نعرف النقط التي نركز عليها الضوء في هذه القضية ، والاسلوب الذي تضيعها به ..

ولكن ما هي أولا قصة لافون كاملة .. بعد ان تواترت عنها الروايات في المصادر العالمية المختلفة ؟

مؤامرة في القاهرة

لقد تأكدت نهائيا حقيقة « الكارثة المتعلقة بالأمن » التي أدت إلى أزمة لافون في إسرائيل ..

فبعد روايات كثيرة انتشرت هنا وهناك .. اتفقت المصادر العالمية كلها على أن « كارثة الأمن » هذه هي المؤامرة التخريبية التي قام بها بعض الجواسيس الصهيونيين في القاهرة والاسكندرية . إذا حاولوا نسف السفارة الأمريكية وبعض المؤسسات الأمريكية الأخرى في مصر ، سنة ١٩٥٤ .. ثم الصاق هذه التهمة بالمصريين . وذلك بقصد إساءة العلاقات بين بلادنا وبين الولايات المتحدة الأمريكية .

ولكن هؤلاء الجواسيس وقعوا في أيدي السلطات المصرية ، وتحطمت المؤامرة الإسرائيلية . وقد كان هذا ضربة عنيفة للذين حركوا هذه العملية من مكاتبهم في وزارة الدفاع الإسرائيلية .

.. وفي ذلك الوقت كان ابن جوريون مبعدا عن رئاسة الوزارة وعن وزارة الحربية . كان وزير الحربية هو بنحاس لافون وكان رئيس الوزارة هو موسى شاريت . ودهش لافون من إجراء هذه العملية الخطيرة دون أن

يحاط بها علما ، وأمر موسى شاريت بالتحقيق ، حين تبين له أنه ، وهو رئيس للوزراء ، لا يسيطر في الواقع على التصرفات الكبرى في إسرائيل ، وأن هناك أيادي أخرى تحرك خيوط الدولة من وراء ظهره .

وقد قال لافون في ذلك التحقيق أنه لا يعرف عن هذه العملية شيئا ، ولكن الجهات التي أجرت التحقيق قالت أنها فحصت الوثائق وثبت لها أنه مسئول عنها . ولأن هذه الجهات تعرف أن هذه التهمة غير صحيحة ، فقد قالوا : ان فشل العملية هو سوء حظ وليس جريمة .. ولذلك أبعدوا لافون من منصب وزير الدفاع . ولكنهم أعطوه أكبر منصب في الدولة كلها بعد منصب رئيس الوزراء وهو منصب رئيس الهستدروت ، أي اتحاد نقابات العمال الإسرائيلي .. الذي سيجيء الكلام عنه بعد قليل . المهم أن هذا كله تم في سرية مطلقة . سرية كان مقدرا لها أن تستمر خمس سنوات كاملة ! وقد اقترن هذا الحادث بخلاف أعمق ..

ففي فترة تولى لافون وزارة الدفاع ، وموسى شاريت رئاسة الوزارة ، اصطدم « المدنيون » بالعسكريين اصطداما عنيفا . اصطدم لافون بالذات بنجوم الجيش اللامعة موشى ديان قائد الجيش وشمعون بيريز سكرتير عام وزارة الدفاع ، والرجل المسئول عن المخابرات العسكرية والمؤامرات السرية ، في جهاز الدولة ..

الحزب العسكري القديم

والفئة العسكرية في إسرائيل هي القوة الحقيقية الكامنة وراء الدولة . وفي الفئة التي تتزعم سياسة المغامرة ضد البلاد العربية ، وهي الفئة التي تؤمن بفرض الصلح على العرب عن طزيق القوة . وهي أخيرا الفئة التي يمثلها ويتزعمها بن جوريون . ذلك أن بن جوريون — قبل مولد إسرائيل — كان الرجل الذي يؤمن بأن « الحل العسكري » هو الذي سوف يوجد إسرائيل وليس الحل السياسي .. وبينما كان غيره من قادة الصهيونية يقومون بأدوارهم السياسية في لندن وواشنطن ونيويورك ، كانت مهمة ابن جوريون تكوين جيش إسرائيل في الداخل . ومنذ تلك الأيام ارتبط بن جوريون بزعماء العصابات المسلحة التي أصبحت جيش إسرائيل ، وارتبطوا به . عن طريقه كانوا يفرضون ارادتهم على البلاد خلف واجهة

من الديموقراطية والبرلمانية .. وعن طريقهم كان بن جوريون يفرض سلطته وسطوته على السياسة الصهيونية .

وقد تصدى لافون ، بسبب هذه الأزمة على الأقل ، لهذه الفئة التي يرأسها بن جوريون . وأراد وهو وزير الدفاع أن يعيد تنظيم الجيش ، بحيث يخضع للسلطة المدنية الشرعية في البلاد وذهب الضباط إلى رجلهم بن جوريون .. وكادت إسرائيل تتعرض لانقلاب عسكري . ولكن استغنى عنه بتولي بن جوريون وزارة الدفاع ، ثم بعد قليل بعودته إلى منصب رئيس الوزراء ووزير الدفاع معا . وانتصر الحزب العسكري .. وأقصى شاريت ، وظل لافون في قلعة الهستدروت ينتظر لحظة الثأر .

ثم جاءت اللحظة

وجاءت تلك اللحظة بعد خمس سنوات .. حين اعترف أحد الضباط بأنه اشترك مع آخرين في تزوير وثائق تثبت - كذبا - ان العصاوية الصهيونية التي قبض عليها في القاهرة كانت تعمل بأمر لافون . ثم ذهب ضابط آخر - لسبب غامض - إلى لافون وسلمه وثيقة أخرى تثبت تزوير توقيعه لهذا الغرض .

وطلب لافون التحقيق . وعهد بالتحقيق إلى لجنة قضائية برئاسة قاض اسمه كوهين . وانتهت اللجنة إلى قرار يبرئ لافون ولكنه يبرئه بلباقة لاتغضب أحدا . إذ قال التقرير انه لا يوجد دليل كاف على أن لافون هو الذي أصدر الأمر بإجراء عمليات النسف في القاهرة ، وإن كان المفروض بوجه عام أن أي وزير يعد مسئولا عن كل مايصدر عن وزارته من أعمال . كان الظن أن هذا « الحل الوسط » سوف ينهي المشكلة . ولكن لافون لم يقبل ، فبعد أن أصبحت براءته مؤكدة .. صمم لافون على أن تعلن براءته الكاملة أولا من مسئولية « كارثة الأمن » هذه ، وأن يعاقب الذين ارتكبوا جريمة التزوير ثانيا .

وهنا برز بن جوريون شخصيا في المعركة ، بعد أن حاول قبل ذلك أن يظهر بمظهر من لا شأن له بالأمر . برز شخصيا ليعارض بحث المسألة على هذا المستوى الواسع . أي انه خرج في الواقع ليدافع عن ضباطه المغامرين ويحميهم من التحقيق .. لأنهم رجاله الذين يحكم بهم ويقدم على

مغامراته بهم من جهة .. ولأن هذا التحقيق ، في أغلب الظن ، ربما قاد إلى ادانته هو شخصيا .. إذ أنه بالتأكيد كان له دور في مثل هذه المؤامرة الواسعة النطاق . انها مؤامرة تستهدف هدفا سياسيا . فهي لا تتم بدون رأى رجل سياسى . والرجل السياسى في هذه الملابسات كلها لا يمكن الا أن يكون بن جوريون نفسه .

ولكن .. لافون بدأ يحرك قوى الهستدروت الهائلة والفئات اليسارية في حزب الماباي ليطالب بإعادة التحقيق .. وبالفعل أحرز النصر في الجولة الأولى حين تقرر تكوين لجنة سياسية عليا للتحقيق ، برئاسة بنحاس روزين وزير العدل وعضوية ليفى اشكول وزير المالية وشيتريت وزير البوليس وبن روزين وزير المواصلات وبرازيلاى وزير الصحة شاميرا وزير الداخلية ، وهم وزراء ينتمون إلى الأحزاب الثلاثة المشتركة في الوزارة. حزب ماباي وحزب مابام وحزب أحدوت أفودا .

وقررت اللجنة براءة لافون التامة وهنا فقد بن جوريون أعصابه تماما. وهاجم اللجنة علنا موجهها لها اتهامات قاسية . وقرر أن يخبر الحزب بينه وبين لافون وأن يطرد لافون من رئاسة الهستدورت ! ثورة غربية لا يفسرها إلا ضيق بن جوريون البالغ لانفجار هذه الفضيحة السياسية الأخلاقية الكبرى . ورغبة القاتل من أن ينكشف تآمر أقدر . وخوفه البالغ من أن يظهر الحزب العسكرى على حقيقته .

واجتمعت سكرتيرية الحزب . لم يحضرها بن جوريون ولم يحضرها لافون ، وقررت اللجنة طرد لافون بأغلبية ٢٨ صوتا ضد ١١ . وغاب عن الجلسة ٢٦ عضوا لم يوافقا على طرد لافون ولكنهم لم يجرؤوا على معارضة بن جوريون والجيش . وانضم ليفى اشكول ، إلى بن جوريون ، بعد أن كان يمثل الموقف الوسط بينهما ..

ولم يقف بجوار لافون من الساسة الكبار إلا موشى شاريت رئيس الوزراء السابق . ثم اجتمعت اللجنة المركزية للحزب في قاعة سينما .. هذا هو ملخص لقصة لافون ..

وليس يهمنا طبعاً فريق بن جوريون أو فريق لافون . ان الذى يهمنا هو مغزى القضية ، وهو المغزى الذى يجب أن نذيعه وننشره ونسلط عليه

الضوء ان بن جوريون .. وأصحاب أكبر الأسماء اللامعة في إسرائيل .. قد ارتكبوا جريمتين أساسيتين .

المغزى !

الأولى — محاول نسف مبانٍ رسمية أمريكية في القاهرة لإحداث أثر معين في علاقاتنا بأمريكا . ولأحداث أثر معين في الرأى العام الأمريكى .. فهو عمل سياسى يعد نموذجاً في قذارته .. هو لجوء إلى الجاسوسية والتخريب والقتل .. وتعريض أرواح الأمريكيين والمواطنين على السواء بشكل اجرامى من أجل احداث هذا الأثر السياسى المعين .. ومن أجل خداع الرأى العام الأمريكى ونحن حين نعادى أمريكا أو نخالفها لانتردد في معاداتها أو مخالفتها علناً . ولاسباب نملكها . ولكن المهم هنا هو ان إسرائيل تزيف الحقائق بالنسبة للرأى العام الأمريكى بأساليب دنيئة وهذا أمر يجب أن يعرفه الرأى العام الأمريكى ، ليعرف حقيقة أولئك الذين يذهبون إليه في ثياب الملائكة الذين يعملون على انقاذ شعب مضطهد !

الجريمة الثانية — أن أكبر الأسماء السياسية والعسكرية في إسرائيل . لا تتورع عن ارتكاب جرائم التزوير حتى في بلادها نفسها ، وعلى أعلى المستويات ، وضمن وزرائها أنفسهم ، كأسلوب من أساليب الصراع السياسى فهى جريمة ، مع زميلاتها السابقة ، تكمل الصورة الأخلاقية السابقة وتكشف الحقيقة المتأمرة للحركة الصهيونية والدولة الصهيونية ..

هذه الفضيحة يجب ألا تمر بسرعة . بل يجب ان تدمغ بها إسرائيل علناً وفي كل مكان وبأعلى صوت ، فإنها في الواقع أحط أخلاقياً من جريمة حرب السويس !

يجب أن يصدر على الفور كتاب بكل اللغات الأجنبية يضم كل الوثائق التى نستطيع أن نجعلها عن هذه الأزمة وكل التفاصيل التى يمكن أن تكمل القصة . ويجب أن يكون كتاب دراسة وتحليل جذاب في نفس الوقت ويجب أن يصدر كتاب أو كتيب آخر تصور فيه كل ما نشرته الصحف العالمية عن وقائع هذه الفضيحة .. لكيلا يكون القول على لساننا فقط . وإذا أمكن أن ندفع هذه المادة ، ولو عن طريق الإعلان ، إلى صفحات

الصحف الكبرى فيجب ألا نتردد . مثل هذا الكتاب يجب أن يوزع في الجامعات الكبرى وفي أمريكا وغرب أوروبا بالذات . وعلى أعضاء الوفود إلى الأمم المتحدة . وعلى أعضاء المكاتب السياسية في الأحزاب الكبرى . وعلى أعضاء البرلمانات . ويجب أن يكون موجودا في دور النشر والمكتبات .

ان أزمة لافون الآن محل حديث الناس في كل مكان . فما ينشر عنها أهم مائة مرة مما يمكن أن ينشر عنها بعد شهور أو سنوات ، حين يصبح الأمر ماضيا مرت عليه الأيام .. والفرصة أمامنا من موعد الانتخابات العامة المقبلة في إسرائيل .. لأن جرح لافون سوف يظل ينزف دمه في إسرائيل طول هذه المدة على الأقل ..

لقد نشرنا محاضرة « توينبى » عن إسرائيل ، وكان هذا عملا ناجحا بارعا . ومن المؤكد أن قضية لافون سوف تكون أعمق بكثير جدا من محاضرة الأستاذ توينبى .. يجب أن نعمل على ادخال قصة لافون في الوجدان السياسى للعالم وللولايات المتحدة الأمريكية بالذات .

وبالمناسبة ! كنيدى والصهيونية

وبمناسبة إسرائيل .. والصهيونية . وأمريكا ..

قال لى أستاذ جامعى أمريكى ، مر بالقاهرة :

— ان الاحصاءات الانتخابية تدل على ان عدد اليهود الذين يعطون أصواتهم لمرشح الحزب الديموقراطى كان عادة سبعة أمثال عدد اليهود الذين يعطون أصواتهم لمرشح الحزب الجمهورى . أما في المرة الأخيرة التى فاز فيها كنيدى ، فقد كان عدد اليهود الذين صوتوا له تسعة أمثال الذين صوتوا لنيكسون ! فإذا ذكرنا النسبة الضئيلة جدا التى فاز بها كنيدى أمكننا أن ندرك إلى أى حد كان هذا التأييد اليهودى هاما بالنسبة لكنيدى .. وإلى أى حد يتمتع اليهود الأمريكيون الآن بقوة ضغط كبيرة على كنيدى !

واستطرد محدثى قائلا :

— لا أخفى عنك أنني من الحزب الجمهورى .. ولكن ما أذكره لك هو الحقيقة ..

في معركة الانتخابات الأخيرة نشر الحزب الجمهورى اعلانا صريحا في

بعض الصحف يقول للناخبين اليهود : ان الحكومة في عهد ايزنهاور أعطت إسرائيل من المساعدات ما مجموعه ٤٦٨,٨٧٥,٠٠٠ دولار !
فيإلى هذا الحد وصل الاعتراف بأن الحكومة تشتري الأصوات بولاء المواطنين لدولة أخرى !

ولكن ٩٠٪ من اليهود مع ذلك أعطوا أصواتهم لكينيدى ولنيكسون .
ومعنى ذلك انهم يرون ماأعطاه لهم إيزنهاور ليس كافيا ، وانهم يريدون المزيد ..

ثم استطرد محدثي قائلاً :
— وهنا نصل إلى أهم نقطة . وهى نقطة تتطلب منكم يقظة بالغة في السنوات الأربع المقبلة بالذات !

أن الحزب الجمهورى فى الواقع - خلال مدة حكمه - لم يصنع لإسرائيل شيئاً مما تطمع فيه ، باستثناء حكاية الفلوس ! انه لم يستطع أن يوسع حدود إسرائيل مثلاً . ولم يستطع أن يفرض الصلح على العرب . ولم يستطع أن يشق لإسرائيل قناة السويس . ولذلك وضع اليهود أملهم على وعود كينيدى ، طامعين فيه طمعهم فى ثرومات الذى خلق لهم دولتهم ..
فإذا فشل الحزب الديموقراطى بدوره فى أن يحقق لهم شيئاً من هذا لا يسبب عدم رغبته ولكن بسبب تغير الظروف ، وعدم قدرته على تعريض مصالح أمريكا لخطر أكبر.. أقول انه إذا عجز الحزب الديموقراطى بدوره خلال هذه السنوات الأربع عن شىء من هذا فقد يؤدى إلى انتهاء سيطرة الناخبين اليهود من المعركة السياسية الداخلية تماماً .. المهم هنا ليس أثر ذلك عليكم أو على إسرائيل بل على يهود أمريكا نفسها . انهم سوف يكتشفون أن الحزبين سواء . ولكن المشكلة فى تغير الظروف وتحول الموج . يومها سوف ينفرط كيان كتلة الأصوات اليهودية . ولن تصبح سلاحاً خطيراً فى المعركة الانتخابية !

وأعود إلى إسرائيل

وأعود إلى إسرائيل نفسها .. ختام حديث أزمة لافون . والأزمة الوزارية القائمة هناك ..

ان هذه الأزمة - فوق كل ما سلف - قد، لمست أكثر من عصب حساس فى إسرائيل .. فجعلت كيانها كله يهتز .

أول عصب لمسته هو الجيش

والجيش في إسرائيل ليس كالجيش في أى بلد . الجيش في إسرائيل تكون من زعماء العصابات المغامرين المستعدين لارتكاب أى شىء . والجيش في إسرائيل يمن على الشعب بأنه هو الذى أوجد إسرائيل وبغيره لا توجد . والجيش في إسرائيل يستخدم كمدرسة عامة ينصهر فيها شتى أنواع المهاجرين المتباينين لغة ومزاجا ومصدرا . والجيش في إسرائيل يضم نسبة كبرى من الناس ، حيث أن أغلب رجال ونساء إسرائيل يعتبرون مجندين تحت الطلب . فكلهم لهم علاقة بالجيش بصورة أو بأخرى ..

وثالث عصب لمسته .. هو الهستدورت

والهستدورت في إسرائيل ليس مجرد اتحاد نقابات عمال . انه يسيطر على مكاتب المتوطنين التى تستقبل المهاجرين وتعمل على توطينهم . ويسيطر على أموال التأمينات الاجتماعية ومشروعاتها ويسيطر على نظام التعاونيات في البلاد كلها . ويسيطر بالذات على مؤسسات بيع المحاصيل الزراعية ، ومؤسسات المقاولات العامة ، ويملك شركات الملاحة الرئيسية في البلاد !

وثالث عصب لمسته .. هو سياسة إسرائيل ازاء العرب

فعندما احتدمت أزمة إسرائيل .. انقسم كل شىء إلى فريقين ، فريق مع بن جوريون ضم الأحزاب اليمينية والعناصر اليمينية في حزب الماباي وضباط الجيش الكبار وكلهم من أنصار فكرة فرض الصلح بالقوة على العرب وفكرة اتخاذ سياسة هجومية عنيفة ضد العرب على أساس أن إسرائيل . في النهاية ، تحميها الدول الغربية ! بينما انضم إلى جانب لافون الأحزاب اليسارية والعناصر اليمينية في حزب الماباي نفسه .. وهى التى تنادى بأن إسرائيل لن تكسب وجودها بقهر العرب بل باقناعهم . وانها يجب أن تسلك سياسية أقل مغامرة وأقل خشونة حتى تحتفظ بتأييد دول الغرب بل وأمريكا نفسها هذه الأعصاب الحساسة كلها اهتزت خلال أزمة لافون .. تماما كالمرض الذى يكشف عن كل نواحي الضعف في الجسم .. ومازالت الأيام تحمل المزيد من التطورات ..

ربما كان أكبر سؤال يواجهه بلادنا الآن - فيما يتعلق بالنظام الاقتصادي فيها - هو : الطريقة التي يجب أن تدار بها المؤسسات العامة والهيئات العامة.

والاهمية التي يعلقها الناس على هذا السؤال لها أكثر من سبب .

منها . أن « القطاع العام » كما نسميه أصبح يسيطر بالفعل على الجانب الأكبر - والاقوى - من حياتنا الاقتصادية .. وبالتالي فإن حياة كل فرد منا تتأثر في الواقع بمدى فشل أو

نجاح هذه المؤسسات . أسعار الحاجات التي نشترىها، جودة السلع التي نستخدمها، حسن الخدمة التي نحصل عليها.. كل هذا أصبح يتأثر بنشاط هذه المؤسسات التي تصنع لنا السلع، وتستوردها وتبيعها، وتساهم في كل الخدمات التي نتلقاها .

ومن هنا .. اننا الآن في فترة انتقال . فعهد الناس بسيادة المؤسسات الفردية، المملوكة للأفراد قريب، إلى جانب اننا نعيش في ظل اقتصاد مختلط توجد فيه المؤسسات التي يملكها الأفراد إلى جانب المؤسسات المملوكة ملكية عامة . ومعنى ذلك أن هناك عملية مقارنة مستمرة في أذهان الناس جميعا

المؤسسات

العامة

عندنا ..

كيف

تدار ؟

أخبار اليوم .. في :

٦١ / ٤ / ٨

بين النوعين من المؤسسات: المؤسسة العامة والمؤسسة الخاصة. الناس دائماً يبحثون ويسألون ويقارنون: هل سيارات الاوتوبيس في عهد الملكية الفردية أحسن أم هي الآن، وقد أصبحت مملوكة ملكية عامة، قد أصبحت أحسن؟ هل مصنع كذا المملوك ملكية عامة ينتج أحسن أم مصنع كيت المملوك ملكية خاصة؟

كل هذه المقارنات، لا تكف عن الدوران في عقول الناس. ومهما كان التبرير العقائدي لهذا الوضع أو ذاك، فالناس آخر الأمر يتأثرون — قبل كل شيء وبعد كل شيء — بالتجربة العملية وبالنتيجة المادية للمؤسسة المحسوبة بالارقام. ومن هنا نجد أن المؤمنين بضرورة وجود القطاع العام، يشعرون بلهفة زائدة على أن يوجد كل ما يثبت صدق نظرتهم.. وذلك بأن يزيد نجاح المؤسسات العامة — ولا يقل — عن المؤسسات الخاصة، إن نجاح هذه المؤسسات في الواقع هو الأساس في «زرع» العقيدة الاشتراكية في هذه الأرض. يضاف إلى ذلك أن الناس يشعرون لا بأن حياتهم الحاضرة قد أصبحت في يد المؤسسات العامة إلى حد بعيد فقط، بل يشعرون أيضاً بأن جزءاً من مستقبلهم أصبح وديعة في يد هذه المؤسسات، فمستقبل التنمية، ومستقبل تحقيق العدالة، وأشياء كثيرة أخرى، أصبحت في الواقع رهن فشل أو نجاح هذه المؤسسات العامة.

وأخيراً، فإن الناس يحاسبون المؤسسة العامة في العادة بأقصى مما يحاسبون المؤسسة الخاصة. فلو أن شركة فردية قامت وأفلست في اليوم التالي لما اهتم بذلك أحد. أما إذا اهتزت مؤسسة عامة مجرد اهتزاز، فحساب الناس لا ينتهي.. وذلك لشعورهم بأن أموالهم هي التي تهتز، وليست أموال زيد أو عبيد..

سؤال خطير إذن.. هذا السؤال الخاص بالطريقة التي تدار بها المؤسسات العامة في بلادنا.

والذي يضاعف من خطورة هذا السؤال.. هو أن فكرة «المؤسسة العامة» في بلادنا تقترن في ذهن الناس وتختلط بفكرة «الجهان الحكومي». كثيرون يظنون أن ظهور المؤسسات العامة هو مجرد «تمدد حكومي». والجهاز الحكومي في بلادنا يحظى، منذ مئات السنين، بسمعة لا يحسد

عليها. الجهاز الحكومى فى الذهن العادى معناه فى أحسن الحالات: البطء والزحلقه وعدم الكفاية وعدم الاهتمام. ومعناه فى أسوأ الحالات الرشوة والمحسوبية واساءة معاملة الجمهور. فى ذهن الناس أن موظف أو مدير المؤسسة الخاصة حريص على أن يكون نشيطا نزيها، لأنه إذا أساء التصرف سوف يطرد من عمله ولأنه إذا تعب واجتهد سوف يتقدم بسرعة. إذ أن المصلحة الخاصة لصاحب العمل تملئ عليه أن يتصرف على هذا النحو القاطع. فى حين أن فى ذهن الناس أن موظف أو مدير المؤسسة العامة ليس وراء هذا «الكرياج» من الدافع الشخصى. انه مهما أهمل لن يطرد، لأن الجهاز الحكومى كبير جدا لدرجة انه لا يلتفت إلى الاهمال. ومهما خسر الجهاز الذى يعمل فيه فلن يضار، لأن الحكومة لا تفلس ولا تعلق أبوابها وتسرح موظفيها. ومهما أجتهد أو تعب فلن يتقدم. لأن السكادر والدرجات، ان لم تكن المحسوبية والمعرفة، تقف عقبة فى طريقه. ومن هنا فلا بأس على موظف الحكومة إذا أهمل أو أخطأ أو عين أقاربه ومحاسبيه على حساب الكفاءة وعلى حساب الاخلاص. هذه هى الصورة القديمة فى ذهن الناس. وهى الصورة التى نعتزف جميعا بأنها أثر اجتماعى لتاريخ طويل من الانحلال والاضمحلال، وبأنها لذلك لا يمكن أن تتغير بين يوم وليلة. ولكن الناس يشفقون دائما أن تنتقل هذه الأمراض كلها إلى المؤسسات الجديدة، بكل ما فى هذه المؤسسات العامة الجديدة من آمال كبيرة !

سؤال خطير إذن.. هذا السؤال الخاص بالطريقة التى تدار بها المؤسسات العامة فى بلادنا..

وموضع يستحق تلك اللفتة التى يشغرها المؤمنون برسالة القطاع العام من أجل نجاح التجربة.. التى هى جزء من الخطوات الاساسية فى الطريق السليم نحو المجتمع الاشتراكى .

أما الذى يثير هذا السؤال فهو القرار الذى اتخذه الرئيس جمال عبدالناصر بفصل عدد من المؤسسات العامة عن ميزانية الدولة . على أن تعتمد هذه المؤسسات العامة على نفسها دون اية اعانة من ميزانية الدولة. فإذا أعوزها المال، فعليها أن تقترض من البنوك، تماما كأنه مؤسسة عامة أو فردية أخرى .

إن هذا القرار معناه أن هذه المؤسسات قد جاوزت مرحلة «الحضانة»
 أنها تستطيع الآن أن تواجه الحياة بمفردها . ناهضة على قدميها !
 والواقع أن هذا القرار يضع هذه المؤسسات تحت ضوء أقوى وحساب
 أشد.. بعد أن أصبحت كل منها قائمة بمسئولية نفسها..
 إن هذا النوع من المؤسسات العامة - في مختلف بلاد العالم - يخضع
 لنوع من القواعد العامة المتعارف عليها.. وهى بالطبع ليست قواعد جامدة
 ولا تنطبق على جميع الظروف .

القاعدة الأولى:

أن المؤسسة العامة هى أداة في يد السياسة العامة

فهى ليست مؤسسة من أجل الربح فقط.. أو كما قال «هربرت موريسون» عندما كان مسئولاً عن سياسة التأمين في حكومة حزب العمال البريطاني: «أن الجو النفسى لاجتماع مجلس إدارة المؤسسة العامة يختلف تماماً عن الجو النفسى لاجتماع الجمعية العمومية لحملة الاسهم في المؤسسة الخاصة»..

والمؤسسة العامة هى أداة في يد السياسة العامة بمعنيين: المعنى الأول
 انها تسير وفق سياسة الدولة العامة في توجيه الانتاج أو في تحقيق العدالة
 أو في إقامة نظام اجتماعى معين كالنظام الاشتراكى. والمعنى الثانى، انها -
 في نطاقها - لا تهتم أساساً بالربح. ولكن بتوفير سلعة معينة أو خدمة
 معينة على أحسن نحو وبأحسن سعر ممكن بالنسبة للمستهلك .

ولكن.. هل معنى هذا أن بند «الإيراد» لا يهم إطلاقاً في المؤسسة العامة ؟
 بالطبع لا . لأن المؤسسة العامة جزء من البناء الاقتصادى العام للبلاد.
 وحاصل جمع المؤسسات العامة التى تخسر هو: إقتصاد قومى يخسر.

إن بعض المؤسسات يفترض فيها ألا تغطى مصاريفها أبداً، فهى تعتمد
 بالتالى اعتماداً صريحاً، ومستمر، على الدولة، لأنها تقوم بأعباء خدمة
 لا يمكن أن تغطى مصاريفها، كمؤسسات الطيران مثلاً، انها حتى في بعض
 الدول الرأسمالية تعتمد على إعانة صريحة مباشرة من الخزنة العامة، لأن
 الطيران يخضع لمنافسة دولية، ولأنه يتأثر في مشروعاته بالكبرياء
 القومية.. إلى آخره .

ولكن هذا ليس شأن كل المؤسسات طبعا، فبعض المؤسسات لا يواجه مثل هذه المنافسة الدولية كالطيران. ولا يواجه مسئولية انشائية ضخمة كتعمير الصحارى. ومثل هذه المؤسسات المفروض فيها أن «تغطي» مصروفاتها «في المدى الطويل». قد تخسر سنة وتكسب سنة أخرى، بشرط أن يكون المنطق السائد في مجموع سنواتها أن تغطي نفسها.

وقد تحقق هذه المؤسسة ربحا. والاقتصادى الانجليزى «وليام دويسون» في بحثه الضخم عن «الصناعات المؤممة والملكية العامة» يقول انه يجب ألا نسمى ايراد المؤسسة العامة ربحا بل يجب أن نسميه «فائضا». والقاعدة أن هذا الفائض أو هذا الربح بخضع في توجيهه للسياسة العامة للدولة. فقد تكون السياسة العامة للدولة هي تحسين الخدمة التى تقدمها المؤسسة وبالتالي يجب اتفاق الربح على هذا التحسين.. كان يقال أن ربح مرفق الكهرباء يجب أن ينفق في تخفيض سعر الكهرباء أو في توسيع الشبكة الكهربائية. وقد تكون السياسة العامة للدولة هي التركيز على إقامة صناعات جديدة. فهنا يذهب الفائض إلى المساهمة في هذه المشروعات الجديدة.

القاعدة الثانية في المؤسسات العامة :

هى أن هذه المؤسسات وان كانت تابعة للدولة ألا أنها يجب أن تكون «مستقلة» عنها

والاقتصاديون يعتبرون هذه القاعدة أصعب القواعد تحديدا، وهى مع ذلك أخطر قاعدة في حياة المؤسسة العامة.

ذلك أن المطلوب هنا هو التوفيق بين أمرين.

الأمر الأول هو التبعية للدولة والخضوع لرقابتها.

والأمر الثانى هو حرية الحركة التى تجعلها أكثر كفاءة على أداء مهمتها وأكثر بعدا عن شلل الأجهزة الحكومية الضخمة.

وأقرب صيغة يتفق عليها الاقتصاديون هى التفريق بين «السياسة» و «الإدارة».

السياسة.. بمعنى وضع السياسة العامة للمؤسسة والخطوات العريضة لها.. من حق الدولة.

والادارة.. بمعنى القرارات التنفيذية. من حق المؤسسة نفسها .
عبر هربرت موريسون عن ذلك بقوله: ان المطلوب من المؤسسة العامة
«ملكية عامة، رقابة عامة، وإدارة تجارية في سبيل الغرض العام».
يقول الاقتصادى «وليام روبسون» في البحث المشار إليه أنه إذا كانت
الهيئة العامة تابعة لوزير أو وزارة مثلا.. فالوزير يرسم السياسة العامة
لها. أما «الإدارة» ، فالوزير ليس خير من يقوم بها انما هى تترك للمؤسسة،
لأنها يجب أن تترك للخبراء . أن هذه المؤسسات التى ترتبط بخدمات معينة
تكون الكلمة العليا فى نجاحها للخبرة والدراية الخاصة بالقطاع الذى
تتخصص فيه. السياسة هنا «أولا» تحدد للخبرة الاتجاه الذى تنطق فيه..
و«ثانيا» تحاسب الخبرة فى آخر الشوط. أما تدخل السلطة الوزارية فى عمل
الخبرة خلال ذلك فهو انما يربكها ويعرقل كفايتها، بادخال عوامل أخرى
غير فنية حيث يجب أن يكون التقدير للعوامل الفنية .

القاعدة الثالثة بالنسبة للمؤسسات العامة هى:

أن موظفيها ليسوا فى عداد موظفى الجهاز الحكومى

والفكرة فى هذه القاعدة التى يسجلها الاقتصاديون أيضا.. هى
استكمال «حرية الحركة» الذى لا بد منه للمؤسسة العامة.. خصوصا إذا
كانت فى نظام «اقتصاد مختلط» تواجه فيه منافسة مؤسسات أخرى .
فمن عناصر حرية الحركة التى لا بد منها للمؤسسة أن تقتنص - مثلا -
الكفاية العالية ولو بأسعار عالية وأحيانا من شتى انحاء العالم.. إذا كانت
هذه الكفاية ينعكس أثرها مباشرة على انتاج المؤسسة أو على نجاحها
وأرباحها مثلا .

وقد كان هذا الموضوع محل دراسة فى بريطانيا أيضا عندما كانوا
يفحصون وضع الذين يعملون فى محطة الإذاعة البريطانية B . B . C وقد
انتهوا إلى أن المحطة يجب - من جهة - أن لا تبعد كثيرا عن قواعد الحكومة
ولكنها من جهة أخرى يجب أن تكون مرنة ماليا بحيث تستطيع أن تحصل
على أحسن المعلقين وأحسن الفنانين بما يكفل نهوضها برسالتها المحلية
والعالمية وهى جذب اذان الناس، فى وجه المنافسة الصحفية والإذاعية من
انحاء العالم.. القاعدة الرابعة بالنسبة للمؤسسات العامة هى : الرقابة .

القاعدة الرابعة

بالنسبة للمؤسسات العامة هي : الرقابة

ان المؤسسة الخاصة - كشركة مساهمة فردية - مسئولة أن تقدم حسابا عن عملها للجمعية العمومية لحملة الاسهم فقط. أما المؤسسة العامة فهي تقدم حسابا عن نفسها إلى «الحكومة، والبرلمان، وعمال وموظفي المؤسسة نفسها، والزبائن، والرأي العام». .
والرقابة العامة على المؤسسة العامة جانب خطير من جوانب الديمقراطية الاقتصادية.

ان المؤسسة الخاصة لا يراقبها إلا اصحابها.. فردا واحدا كان أو آلاف الأفراد. والاقتصاد القومي الذي يقوم كله على المؤسسات الخاصة تراقبه بالتالي تلك الفئات الخاصة من حملة الاسهم فقط .

أما المؤسسة العامة، فالأقتصاديون والمفكرون السياسيون يتفقون على انها تقدم حسابها لكل هذه الجهات السالفة الذكر.. وهذا جزء أساسي من الديمقراطية الاقتصادية. لذلك كان أبرز كشف الحساب الخاص بكل مؤسسة عامة أمام الشعب مسألة جوهرية حقا، بل حاسمة في علاقة الناس بالمؤسسات العامة، وفي شعور هذه المؤسسات العامة بمسئولياتها. لكي يعرف الناس المخطيء والمصيب. والكاسب والخاسر، والاسباب الحقيقية في جميع الأحوال .

ان الخطوة التي تتخذ الآن خطوة خطيرة. انها تضع المؤسسات العامة في مرحلة جديدة. لا بد لها أن تواجهها !!

لم أكن أعرف — ولعل كثيرين
لا يعرفون — ان جان بول سارتر له
مثل هذا الكتاب الهام عن
«اليهود».

صحيح وجان بول سارتر
فيلسوف وأديب وفنان اشتهر
باتخاذ مواقف سياسية كثيرة،
تنطوي عادة على الوقوف إلى جانب
الحق والعدالة والمساواة، والانتصار
للمضطهدين.

ونضاله المشهود من أجل حرية
الجزائر واستقلال الجزائر مازال
ماثلاً. وصموده في وجه العسكرية الرجعية
الفرنسية كان رمزا لبطولة المثقف الذي يشعر
بمسئوليته.

وصحيح أن جان بول سارتر من الفنانين الذين
صمدوا قبل ذلك في وجه الطغيان النازي. وانه طالما
هاجم في مؤلفاته كل ما تنطوي عليه النازية من
عنصرية وتعصب قومي. وصحيح انه من المنطقي
أن يكون لسارتر بعد ذلك موقف قوى ضد «أعداء
السامية» أي أصحاب دعوة التعصب العنصري ضد
اليهود.

من المنطقي أن يكون له هذا الموقف وهو موقف

جان بول

سارتر

ومشكلة

اليهود

أخبار اليوم .. في

٦١ / ٤ / ٨

عادل بالتأكيد. لأن دعوة معاداة السامية والتعصب العنصرى ضد اليهود هى دعوة رجعية مظلمة كدعوة معاداة الزنوج وكنزعة اضطهاد أى أقلية من أى نوع وكأى دعوة عنصرية أخرى.

ولكن هذا كله لا يبرر المبالغة . ولا يبرر الخروج على المنطق السليم والجموح وراء الرغبة فى تبرير كل ما يصدر عن اليهود.. وكل ما هو يهودى ومن هو يهودى.. ولو أدى الأمر إلى اتهام العالم كله والتاريخ الإنسانى كله بأقسى الاتهامات.

ولكن هذا هو ما جمح إليه جان بول سارتر بالضبط.. فى هذا الكتاب الذى سوف أحاول أن أعرض بعض ما جاء فيه بعد استطراد قليل فى هذه المقدمة.

لماذا نهتم بكل كلام عن اليهود ؟

ونحن العرب قد وجدنا أنفسنا - من حيث لا نريد - طرفا فى كل ما له صلة باليهود.. بما فى ذلك حكاية «معاداة السامية». ذلك أن اليهود، الذين واجهوا على يد المجتمعات الأوروبية اضطهادا طويلا، وصل إلى قمته فى غرف الغاز التى أقامها هتلر لاعداء الجنس اليهودى .. هؤلاء اليهود وجدوا أن حل قضيتهم الوحيد هو فى أن ينشئوا مدرسة التعصب العنصرى لاتقل عن الهتلرية، هى الصهيونية، وأن تتبلور هذه النزعة العنصرية فى وطن ودولة لهم ينشئونها على أشلاء مليون عربى !

هكذا - من حيث لا نريد - وجدنا أنفسنا طرفا فى المسألة اليهودية.. ووجدنا أنفسنا محتاجين إلى أن نرهدف السمع لكل ما يقال عن اليهود أو المسألة اليهودية !

لماذا ؟ !

هل لأننا نكره أن يدافع المدافعون عن اليهود فى المجتمعات التى ينتمون إليها.. فرنسية أو إنجليزية أو أمريكية ؟ ..

كلا .. فإننا نؤمن أن اليهودى كالمسلم والمسيحى له حق الحياة فى الوطن الذى ينتمى إليه. بل ان دعوتنا الأساسية ضد إسرائيل تستند إلى أن اليهودى يجب أن يبقى فى الوطن الذى ينتمى إليه.. لا أن يهاجر منه لينشئ دولة عنصرية باغية فوق قطعة من أرضنا.

مصلحتنا في زوال التعصب

نحن إذن نتمنى لليهودى طيب المقام حيث يكون. لا لأن هذه هى العقيدة الانسانية التى تؤمن بها فحسب. بل لأننا - أيضا - أصحاب مصلحة فى هذه العقيدة. نحن أصحاب مصلحة فى أن يندثر - فعلا - التعصب العنصرى بوجه عام، والتعصب العنصرى ضد اليهود بوجه خاص. لأن هذا التعصب العنصرى، ولو بطريق غير مباشر، هو الذى خلق إسرائيل. وهذا التعصب العنصرى هو الذى تعتمد إسرائيل - الآن - إلى اذكائه، أو ايهام الناس بوجوده فى كل مكان، لابقاء الجذوة التى خلقت إسرائيل.

نحن إذن - لهذا كله - لانكره أن يدافع المدافعون عن اليهودى فى فرنسا أو بريطانيا أو بولندا أو أمريكا.

ولكننا نرهب السمع لهذا الدفاع، ونشك فى دوافعه أحيانا، لسبب هو: ان إسرائيل تحاول أن تتخذ سلاخا لها ضدنا وأن تصطنع منه دخانا يخفى جريمتها العنصرية فى فلسطين!

هنا فقط نتنبه ونشك وننتقد! لأنه يكون هنا - على أحسن الفروض - من ذلك النوع الذى يقال عنه انه «حق يراى به باطل!».

وإسرائيل الآن تقوم بحركة التقاف فكرية واسعة فى العالم أجمع!.. انها تحاول بالأفلام الملونة، وبمعدات السينما سكوب، وبالروايات والمسرحيات وبالكتب العلمية والتاريخية، وبالمحاكمات.. ان تثقل ضمير العالم كله بالذنب نحو اليهود! أن تشعر كل فرد وكل دولة وكل دين وكل ملة أنه مسئول عن جزء مما حل باليهود! وفى غمرة هذا «الشعور بالذنب» الذى تغمر إسرائيل به العالم.. تحاول أن تستخلص الضمانات لإسرائيل، والأموال لإسرائيل، والأعداء للعرب بوصفهم الخصوم الجدد لليهود!.. فى غمرة هذا الشعور بالذنب الذى تغمر به إسرائيل العالم تحاول أن تقنع هذا العالم بأن يغفر لها ذنبها.. وان يرد فى طرد مليون عربى نوعا من التعويض المعقول لها..

ويجب أن نعترف بأن إسرائيل قد نجحت - فى أماكن كثيرة من العالم - فى خلق هذا الشعور! وجان بول سارتر نفسه - فى هذا الكتاب الذى أعرض

له - يقول ان بعض المتحررين لا يرون في اليهود إلا مجرد موضوع يثبتون به تحررهم ! فالواحد منهم يتحمس في الدفاع عن اليهود لا لاحساس باطنى قوى بالحاجة إلى هذا الدفاع، ولكن ليقول للعالم انه متحرر !
واننى لأخشى، أن يكون جان بول سارتر نفسه، قد وقع في هذه الغلطة، وفاق كل المتطرفين في الدفاع عن اليهود لهذا السبب.. من حيث يدري أو من حيث لا يدري !.
إن العنوان الكامل لهذا الكتاب - ١٥٣ صفحة - هو «عدو السامية.. واليهودى!».

وسارتر في هذا الكتاب يشرح لنا - أولاً - نظريته الفلسفية في «الانسان» ليقيم على أساسها تبريره المطلق لكل ما يصدر عن اليهود !.
ونظريته في (الانسان) - في محاولة للتبسيط الشديد - هي انه لا يوجد شيء اسمه «الطبيعة الانسانية». أى أن الانسان لا تتحدد صفاته وأخلاقه ونزعاته بمجرد مولده.. ولكن يوجد شيء اسمه «انسان في موقف».. بمعنى أن «الموقف» الذى يوجد فيه الانسان هو الذى يحدد ويصنع طبيعة الانسان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية.. إلى آخره.
فالانسان لا يمكن تمييزه أو فصله عن «الموقف» الذى يوجد فيه.
والناس المتشابهون لا يتشابهون بحكم «طبيعة» واحدة ولدوا بها ولكنهم يتشابهون بحكم تشابه «الموقف» أو «الحال» التى يوجدون فيها. فما يجمع بين فئة من الناس هو وحدة «الموقف» ليس وحدة الطبيعة البشرية.
والنتيجة التى يرتبها سارتر على هذا هي : أنه لا يوجد شيء اسمه «جنس يهودى واحد له «طبيعة» واحدة. فالواقع، كما يقول، ان هناك «أجناسا» يهودية متعددة، فالفرق بين اليهودى الروسى مثلاً واليهودى اليمنى شاسع جداً كالفرق بين أى روسى وأى يمنى !
فوحدة الجنس إذن ليست هى التى تجمع بين يهود العالم.

هل هى وحدة التراث والتاريخ ؟

في رأى سارتر : لا ! فتاريخ وطن إسرائيل القديم قد انقطع واندثر منذ ألفى سنة. فيهود العالم في الواقع لا يجمعهم تاريخ واحد ولا عاطفة قومية واحدة.

إذن .. هل تكون وحدة الدين ؟

كلا أيضا ! فالناس من أديان كثيرة يعيشون متفرقين في أنحاء الأرض دون أن تكون بينهم هذه «الرابطة» أو «الوحدة» التي نراها بين يهود العالم. ثم ان اليهود المشتتين لهم نظرات مختلفة إلى الدين نفسه. وكثير منهم ملحدون في حقيقة الأمر ولكنهم مع ذلك يتمسكون «بطقوس» الدين فقط، لأنه يعطيهم احساسا «بالانتماء» إلى فئة معينة. فالدين بالنسبة لليهود لاقيمة له عندهم «كدين ولكن قيمته عندهم هي «كرمز» فقط. ويخلص سارتر من هذا إلى أن الشيء الحقيقي الذي يربط بين يهود العالم هو «موقفهم»! هو موقف كل المجتمعات منهم.. ونظرة العالم إليهم ! وأمضى خطوة أخرى مع منطق جان بول سارتر.. كي تكتمل فكرته أمام القارئ.

النبؤ !!

إن اليهودي — في رأى سارتر — يولد كما يولد أى مخلوق على سطح الأرض. ولكنه حين يشب يجد نفسه في «موقف» مختلف عن الآخرين : يجد أن الناس ينظرون إليه كيهودى.. وإن الدنيا تعامله كيهودى.. هو وكل يهودى مثله.

انه يولد وحوله جو من الاستبعاد والاشمئزاز والنفور والكرهية ! انه يولد ليجد نفسه في موقف «الملعون». وإذا به يكتسب، بالتالى، الصفات المادية والمعنوية والسياسية والاقتصادية التى تترتب على هذا «الموقف».

انه يولد ولديه القابلية الطبيعية لكى يكون مواطنا مندمجا في الوطن .. فرنسا في فرنسا، وانجليزيا في بريطانيا.. ولكن المواطنين هم الذين يأبون عليه أن يندمج.. فلا يجد مفرا من أن يظل «يهوديا».. وأن تظل اليهودية صفة تميزه وتفصله عن الآخرين .. ويصبح بالتالى «غير قابل» للانتماء إلى الوطن — أى وطن — والاندماج فيه !

ولما كان اليهودى — أيا كان المكان الذى يولد فيه — يواجه هذا «الموقف».. فإن هذا «الموقف».. الواحد بالتالى يوحد بين جميع اليهود في العالم.. ويخلق بينهم هذه الرابطة التى نعرفها.. والتى مصدرها هو هذا الموقف

«المنبوذ» وليس مصدرها لاوحدة الدين ولاوحدة الجنس ولاوحدة التاريخ ! وأقدم تهمة وضعت لليهود في هذا الوضع المنبوذ من العالم المسيحي، هو اتهام المسيحيين لهم بأنهم قتلوا المسيح .. ولذلك فكل مسيحي أوربي يشب وهو ينظر إلى اليهود على أنهم قتلة أحفاد قتلة !..

والفكرة التي يبنى عليها سارتر نظريته - إلى الآن - معقولة إلى حد بعيد ان الذي يجمع اليهود ليس الأصل الواحد ولا الدين الواحد ولا التاريخ الواحد. وهذا أحد الأدلة التي نسوقها لنقول أنه لاحق لهم في الوطن الذي اغتصبوه في فلسطين. انما الذي يجمعهم هو وحدة «الموقف».. موقف «النبذ» و«الابعاد» الذي يواجهونه في أوربا بالذات.

ولكن سارتر بالغ كثيرا في ترتيب النتائج على هذه الفكرة. فذهب إلى أقصى الحدود في إلقاء مسئولية هذا «النبذ» على المجتمعات التي ينشأ فيها اليهود، أي على العالم كله.. في حين لم يفكر لحظة واحدة في أن يكون اليهود أنفسهم مسئولين - ولو إلى حد ما - عن هذا النبذ الذي يعيشون فيه.

ومنذ ذلك الوقت والمجتمعات المسيحية في أوربا ترفض أن ينتمي اليهود إليه أو يذوبوا فيها - قوميا أو اجتماعيا لقد اختارت أوربا لهم مركز «الملعون» فلم يكن أمامهم مفر من أن يسلكوا سلوك الملعون. كان محرما عليهم أن يمتلكوا الأرض أو أن يخدموا في الجيش.. فلم يكن أمامهم مفر من أن يركزوا حياتهم في النقود. وبتركيزهم المطلق على النقود تعززت اللعنة الأولى عليهم بلعنة جديدة اقتصادية.. واليوم يتهم العالم اليهود بأنهم لايعملون أبدا في أعمال انتاجية كالزراعة أو الصناعة أو العمل اليدوي ولكنهم يعملون في مهنة النقود.. فأن السبب في رأي سارتر هو أن أوربا المسيحية أبت عليهم أن ينتموا إلى الوطن انتماء عادي وأبت عليهم ممارسة أي مهنة أخرى.

الفلوس

ويستطرد سارتر استطرادا ذكيا في تحليل حب اليهود المشهور للفلوس، وتفرغهم للعمل في الأوراق المالية والبنوك والمضاربات وما إلى ذلك فيقول : ان الذي يجذب اليهودي إلى الفلوس ليس حب الفضة أو الذهب في حد ذاته، ولكن الذي يجذبه في الفلوس هو : قوتها الشرائية.. أو «قدرتها على

«الشراء» الفلوس لاجنسية لها. ولا قومية ولا تراث. انها لغة عالمية.. قوتها مستقلة عن قوة القيم الأخرى التي يجد اليهودى نفسه محروما منها. «ثمن» أى شىء لا يتوقف على شخصية ولا جنسية ولا دين المشتري. المشتري هو الذى يملك الرقم المكتوب فى خانة السعر. فإذا دفع الثمن فإنه يصبح المالك القانونى للشىء. فالتملك بالشراء لغة عالمية لا يحتاج إلا إلى الفلوس. فى الآداب المحلية نقرأ دائما أن هناك أشياء كثيرة ليس لها ثمن.. لاتباع ولا تشتري كالشرف والحب والفضيلة والذوق.. إلى آخره، وهذا فى رأى سارتر أسلوب لاستبعاد اليهودى وحرمانه من نيل هذه الأشياء.. ولكن هذا فى حد ذاته هو الذى يجعل اليهودى حريصا على أن يثبت أن كل هذه الأشياء يمكن شراؤها، وأن الفلوس بالتالى هى أهم شىء.. إنه لا يؤمن بأن أى شىء له زقيمة» ولكن كل شىء له «ثمن». ان «القيمة» لها معايير كثيرة غير الفلوس.. ترجع إلى التراث مثلا أو الانتماء إلى أصل معين أو حضارة معينة.. أو أو.. إلى آخر هذه الأشياء التى يجد اليهودى نفسه محروما منها، فهو لذلك يحاول إلغاء فكرة «القيمة» التى لا يستطيع أن يشارك فيها لتحل محلها فكرة «الثمن». أى الفلوس.. الشىء الذى يستطيع أن يمتلكه ويشارك فيه «القيمة» شىء اجتماعى. فما ليس له قيمة فى مجتمع قد تكون له قيمة كبيرة فى مجتمع آخر. واليهودى منبوذ من كل مجتمع، لذلك فهو بفضل إلغاء فكرة القيمة» التى لا يستطيع أن يشارك فيها، ويحل محلها فكرة «الثمن».

فلهفة اليهودى على الفلوس.. وعدم اعترافه بأى قيمة إلا بالفلوس وبفكرة الثمن.. ليس مصدرهما خسة طبيعية فيه. ولكنهما «رد فعل» لحرمان المجتمع له من المشاركة فى القيم الخاصة بهذا المجتمع. يضاف إلى ذلك أن اليهودى دائما قلق فى أعماقه. انه لا يطمئن أبدا إلى استمرار ملكيته لأى شىء. انه لا يستطيع أن يثق فى أن مركزه أو ممتلكاته أو قوته فى المجتمع الذى يعيش فيه يمكن أن تستمر غدا.. وهو يشعر بالتحقير العميق الذى تكنه الجماهير له. تاريخه عبارة عن عشرين قرنا من التيه والتجوال.. انه مستعد فى أى لحظة لأن يحمل عصاه على كاهله

ويرجل. انه لا يمكن أن يستشعر فعلا استقرار «الأرى» الذى لا يمكن مناقشة التصاقه بأرضه وانتمائه لوطنه، وكل القيم الاجتماعية المعترف بها فى بلاده.

على هذا النحو يمضى سارتر فى سرد كثير من الصفات التى أصبحت لاصقة بشخصية «اليهودى» فى الذهن العام، مبررا لها جميعا بأنها رد فعل ونتيجة لمعاملة المسيحية الأوروبية، والقوميات الأوروبية لليهود خلال ٢٠٠٠ سنة مستمرة من الزمان حتى حين يقول الواحد «يهودية حسناء» يجد أن للكلمة وقعا يختلف عن وقع قوله «أمريكية حسناء» أو «يونانية حسناء» مثلا. ان كلمة «يهودية حسناء»، فيها نوع من لذة الاستباحة والاغتصاب! اليهودية الحسنة هى تلك التى جرّها فرسان القوزاق من شعرها فى شوارع القرى المحترقة اليهودية الحسنة فى الفولكلور - الأدب الشعبى - الأوروبى هى المقهورة المغتصبة أو الذليلة فى حب أوروبى لاهتم لها كثيرا، وسوف يتزوج آخر الأمر من أوروبية مثله. وفى بعض القصص الشعبية حين تموت اليهودية فى سبيل حبها اليائس لا تقدم القصة موتها على أنه استشهاده، بل على أنه نوع من العدل! «...»

«واليهودى فى فرنسا مثلاً قد يصل إلى أعلى الدرجات، ويحقق أكبر قدر من الثراء، ولكن المجتمع رغم ذلك يأبى عليه أن يلتحق به التحاقاً حقيقياً حتى ولو «قبل وجوده» فى كل مكان أنه قد يصبح وزيرا، ولكن الناس لاذكرونه فيقولون انه وزير» بل انه «وزير يهودى».

وكما يرسم جان بول سارتر صورة اليهودى التى خلقها المجتمع الأوروبى.. بل صورة «عدو السامية».. وهو ليس المواطن الأوروبى العادى، ولا حتى الذى يقف من اليهودى هذا الموقف، بل هو ذلك الذى يتميز بعداء خاص لليهود.

يقول سارتر ان أعداء السامية ودعاة التعصب العنصرى ليسوا عادة من الأذكىاء أو المتفوقين بأى صورة من صور التفوق. أى ليسوا من «النخبة» فى أى مجتمع. ولكنهم من «العاديين تماما» أو الأقل من العاديين! وأغلب الندوات العنيفة ضد السامية نشأت وترعرعت بين أبناء الطبقة

المتوسطة الصغيرة التي لا يملك أفرادها شيئاً.. فبمجرد تعصبهم يشعرون فجأة بأنهم يمتلكون شيئاً. فالطبقة المتوسطة الصغيرة التي لا تملك إلا قليلاً في ألمانيا كانت هي نواة دعوة معاداة السامية. انها عاجزة ازاء «اليونكرز» وكبار الصناعيين الذين يملكون كل شيء في ألمانيا، وهي في نفس الوقت لا تقبل الاعتراف بأنها لا تملك شيئاً كالبروليتاريا، لهذا أقبلت على دعوة معاداة السامية لأنها تعطيها احساساً بالامتلاك وبالتميز ازاء فئة أخرى، هي اليهود تريد أن تسرق منها ما تملك.. وهو الوطن !

ويقول جان بول سارتر، في تحليل طويل لامجال هنا لسرده. ان اليهودي .. ازاء هذا «الموقف» الذي يجد نفسه فيه.. يختار أحد موقفين.. فريق يحاول أن يتنصل من يهوديته وان يتهرب منها.. وأن يتستر عليها.. أى يحاول بوجه عام تخفيف وقع المقاطعة الموجهة ضده.. فهو إنسان في حالة هرب دائماً من نفسه ومن وضعه.

وفريق ثان .. يكون رد فعله عكسياً.. انه يقبل اتهام العالم كله، ويعامل العالم على هذا الاساس، ومن هذا الفريق الثاني خرج - في رأى سارتر - أولئك الذين دعوا إلى إقامة وطن يهودي ودولة يهودية، على أساس أن تأكيد الذات اليهودية والوجود اليهودي، والرد على النفي الاجتماعي في أنحاء العالم لا يكون إلا بإقامة دولة تكون لها أرض وقومية ووجود ينتمي إليه.

ثم يقول : إن إقامة دولة يهودية قد تحل مشكلة اليهود الذين يسكنون في تلك الدولة. ولكنها لا تحل مشكلة اليهود الذين يفضلون البقاء في أوطانهم، بل انها تزيد من تعقيد موقفهم. ذلك أن قيام هذه الدولة هو دليل آخر يبرهن على مايقوله خصومهم من أنهم لا يحبون الانتماء إلى الأوطان التي يعيشون فيها أصلاً.

وهو يتنبأ بأزمة شديدة بين اليهود المهاجرين إلى إسرائيل من جهة.. واليهود الباقين في أرض آبائهم وأجدادهم. فرنسا أو غير فرنسا من جهة أخرى!

إلى هنا .. وأعتقد أنني اعطيت وجهة نظر سارتر في الموضوع فرصة كافية في حدود هذه المساحة ، وقد أن نتأمل كلامه معا في سطور قليلة.

ملاحظات

إن الملاحظة البارزة على هذا الكتاب هي أن سارتر كتبه بلهجة المحامي، فبالرغم من أن فيه أشياء كثيرة صحيحة، وعلى درجة كبيرة من ذكاء التحليل.. فأن الكتاب كله مكتوب بلهجة المحامي الموكل للدفاع عن قضية معينة، فهو يشعر أن من واجبه تبرير كل شيء. والدفاع عن كل شيء. ونفى كل مسئولية - صغيرة أو كبيرة - عن موكله !

ونحن - كما قلت في مقدمة المقال - لسنا أعداء للسامية ولا أعداء لليهود كجنس أو كدين. بل ولا نختلف في هذه الناحية عن أي رأي قال به سارتر ولكن المرء حين يفصل في قضايا نفسية وتاريخية واجتماعية عمرها ٢٠٠٠ سنة، لا يمكن أن يلقي كل المسئولية على طرف واحد دون طرف وهو مطمئن الضمير. ولقد بالغ سارتر في نفى أي مسئولية عن اليهود إلى درجة انه كاد يكون «عنصرياً» بمعنى آخر ! فكما أن كراهية عنصر معين هو اتجاه عنصري، كذلك فإن نسبة فضيلة الصواب المطلق إلى عنصر معين هي أيضاً نزعة عنصرية !

إن سارتر حين يعيد ويزيد ويؤكد أن اليهود يحاولون دائماً الاندماج والذوبان في كل مجتمع يعيشون فيه، ولكن المجتمعات العالمية هي التي ترفض ذلك، وهي التي تصر على إبقائهم منفصلين.. إنما يتجاهل في الواقع محاولات كثيرة جرت لامتصاص اليهود في مجتمعات كثيرة ويتجاهل أن اضطهاد اليهود إذا كان قد حدث في مناسبات كثيرة إلا أنه لم يكن أبداً القاعدة المستمرة في التاريخ .

وفي بلاد كالبلاد الشيوعية، تم فيها إلغاء الدين إلغاء تاماً، وانفتحت بذلك فرصة ضخمة لليهود لكي يصبحوا على الزمن جزءاً لا يتجزأ من البلد الذي يعيشون فيه .. لم يغير هذا من الحقيقة في شيء، وظلت المشكلة اليهودية قائمة بنحو أو بآخر .. بمعنى أنه ظلت الرابطة اليهودية المنفصلة عن الرابطة القومية العامة في تلك البلاد قائمة.

وآية ذلك محاولات اليهود في تلك البلاد من أجل الهجرة إلى إسرائيل. بالرغم من أن كثيرين جداً من هؤلاء الراغبين في الهجرة هم في الواقع ملحدون، كما يقول سارتر نفسه في ملاحظته عن اليهود الأوروبيين.

إنهم هنا يهربون من هذا «الذوبان» الذي يقول سارتر أنهم يطلبونه ! ولا يمكن القول بأنهم يهربون من نظام اقتصادي لا يحبونه مثلاً.. لأنه لا يحدث أبداً أن تهرب «فئة بأكملها» من وطنها، إذا كانت تحس بالانتماء إلى هذا الوطن بالمعنى الذي يفهمه أي مواطن في أي وطن لمجرد اعتراضها على النظام الاقتصادي.

وقد ركز سارتر حديثه خلال صفحات طوال عن اشتراك اليهود الفرنسيين في المقاومة السرية ضد النازي وضد الاحتلال الألماني. وأشاد طويلاً ببطولتهم وقال ما معناه أنهم بهذا دفعوا أعظم ضريبة يمكن أن يدفعها أي فرنسي.

ولكن هذا المثل لا يصلح دليلاً مطلقاً على رغبتهم في الذوبان والانتماء المطلق إلى المجتمع الذي يعيشون فيه. والسبب هو أن العدوان النازي لم يكن موجهاً ضد فرنسا وحدها إنما كان موجهاً أيضاً ضد «اليهود» بالذات. كان هتلر يهدد اليهود أكثر مما يهدد فرنسا. فهم هنا أمام خصم للطائفة لا مجرد خصم للوطن. ولهذا فهم قد حاربوا هتلر كيهود لا كفرنسيين. حاربوا حرب الدفاع عن بقاء اليهود لا حرب الدفاع عن عظمة فرنسا مثلاً !

والدليل على ذلك أن هناك أمثلة كثيرة تدل على أن اليهود في هذا الوطن أو ذاك لم يكونوا يختارون دائماً الانتماء إلى الوطن في ساعات مجد الوطن وساعات ذله على السواء وهو الانتماء الحقيقي. إنما كانوا كثيراً ما يعتبرون أنفسهم كتلة خارج دائرة الوطن. لها حرية اختيار الوطن وتغييره وفق المصلحة التي يرونها.

سارتر نفسه يشير إلى الثورة الوطنية البولندية التي نشبت في القرن التاسع عشر ضد الاحتلال الروسي. وكيف أن يهود وارسو برفضهم الانضمام إلى الثورة كانوا يهدفون إلى تحقيق مركز ممتاز لأنفسهم عن طريق موالة المغتصب الروسي.

وسارتر يقول إن قيصر روسيا كان يضطهد يهود روسيا في نفس الوقت الذي كان يمالئ فيه يهود بولندا ويمنحهم الامتيازات. وأن السبب هو أن القيصر اعتبرهم فئة منفصلة عن الوطن في الحالتين. فالفئة المنفصلة

في وطنه هي خطر على وطنه ولذلك يضطهدهم. والفئة المنفصلة في وطن بولندا تفيد سياسته ضد بولندا فهو لهذا يمالئهم !
ولكن هل دفاع سارتر هذا يبريء اليهود - تماما - من مسئولية الموقف. وإذا فرضنا أن موقف الاضطهاد داخل روسيا كان «مفروضا» عليهم ولا حيلة فيه.. فهو موقف ممالة المستعمر في بولندا أيضا كان مفروضا عليهم ولا حيلة لهم فيه ؟!
بالطبع لا !

مثل آخر أضربه لا لأن له دلالة خاصة، ولكن لأنه كان محل جدل خلال الأسابيع الماضية بالذات هو : اليهود في الجزائر !...
إن اليهود الجزائريين من سكان البلاد الأصليين. ومنذ الاحتلال الفرنسي للجزائر على الأقل يمكن القول أن حظهم وحظ أبناء سائر الأديان كان واحدا. فلا يعقل أن يضطهدهم الجزائريون وهم أنفسهم مضطهدون. ولكن اليهود هناك وجدوا الفرصة المناسبة بعد الاحتلال لكي يختاروا الجنسية الفرنسية وينضموا بكل كيانهم إلى الكيان الطارئ على الجزائر، صاحب الامتيازات ويتخلصوا من جلدتهم الجزائري القديم وكان هذا قبل أن تقرر فرنسا اعطاء الجنسية الفرنسية لكل سكان الجزائر بعشرات من السنين. واليوم، بعد مرور حقبة طويلة، وبعد اشتعال النار تحت بوتقة الثورة الجزائرية، أصبح اليهود الجزائريون من الأوروبيين ومن مشكلة الأوروبيين.

ليس صحيحا إذن هذا الموقف الذي يتخذه سارتر.. من طلب البراءة التامة لكل المجتمعات اليهودية في كل زمان ومكان.. وطلب الادانة الكاملة لكل المجتمعات الانسانية الأخرى في كل زمان ومكان !...

ولا كلمة عن الصهيونية !

وكما أن المحامي الذكي يعتمد عادة إلى إخفاء وإهمال نقط الضعف في موقف موكله، كذلك فإن سارتر يمر مرور الكرام على نقط الضعف الأساسية في موقف اليهود اليوم..

إن الكتاب - مثلا - مشحون بطاقة هائلة ضد أي اتجاه عنصري. فماذا عن الدعوة العنصرية في داخل المجتمع اليهودي.. وهي الدعوة الصهيونية؟

لا شيء !

بالرغم من أن سارتر أشبع كل شيء يتصل بالمسألة اليهودية عرضا وتحليلا فإنه لم يذكر الصهيونية إلا في سطور تعد على أصابع اليد الواحدة!..

رغم أن الصهيونية كدعوة كان عمرها أكثر من نصف قرن عندما كتب هذا الكتاب !

رغم أن الصهيونية - كدعوة عنصرية - أقدم من النازية نفسها بعشرات من السنين!..

لأنه لو وضع الصهيونية في مكانها المناسب من الأهمية، فكأنه وضع اليهود أو فئة كبيرة منهم تحت رحمة كل مدافعه الثقيلة التي يصوبها في كتابه إلى النزاعات العنصرية وإلى كل أنواع التعصب.

ومن المؤكد أن أى دراسة للمسألة اليهودية الآن لا تهتم بالدعوة الصهيونية فكريا وسياسيا وتاريخيا.. تكون دراسة ناقصة إلى حد كبير!..

كثيرا ما يحار المرء كيف يعامل هؤلاء الناس.. هؤلاء الناس هم بعض رجال الدين.. الذين يريدون أن يحتكروا تفسير الدين، وبالتالي يحتكروا تفسير الحياة. الذين يحسبون أن الآيات القرآنية عجينة في أيديهم كيفونها كيفما تشاء لهم عقولهم.. المتحجرة في أغلب الأحيان. أقول إن المرء يحار في طريقة معاملة هؤلاء الناس، فالواحد منا يحترم فيهم أحيانا سنهم الكبيرة.. ويعذرهم فيما بينه وبين نفسه إنهم عاشوا حياتهم العقلية أسرى بين جدران كتب معينة محدودة، لم يعرفوا سواها ولم يدركوا من التجارب الانسانية غيرها، ولهذا يؤثر الانسان حتى إذا ناقشهم ألا يخرج معهم عن حدود الأدب. ولكن بعض رجال الدين هؤلاء.. يبرهنون من الوهلة الأولى على أن الدين لم يترك فيهم أول أثر من آثاره وهو الأدب والمناقشة المهذبة والمجادلة بالتي هي أحسن، ويحار المرء كيف يعاملهم، هل يكيل لهم بنفس الكيل أم يقدر أن التطور يحطم رءوسهم فتثور أعصابهم ويطير صوابهم على هذا النحو الذي نراه أحيانا.

لا

يا شيخ ؟؟

أخبار اليوم .. في

٦١ / ٨ / ١٩

النموذج الذى أثار فى الذهن هذه الخواطر هو الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة.

فقد خرجت مجلة «منبر الاسلام» تحمل مقالا للشيخ أبو زهرة يسبني سببا مقذعا. ويستعدى على الله، ثم الدولة، وأصحاب المؤسسة التى أعمل فيها.. طالبا أن تطردنى المؤسسة من عملى وأن تضعنى الدولة فى سجونها، وأن يسوقنى الله إلى جهنم يوم القيامة !

والأستاذ أبو زهرة لم يذكر اسمى صريحا فى هذا المقام.. أغلب الظن لأنه خشى أن أنال على يديه شهرة لا أستحقها ! ولكنه اكتفى بأن يشير إلى بأوصاف مثل «هذا المنحرف».. الذى اشتهر «بانصراف التفكير وفساد الغايات، والتمرد على الحقائق الدينية». والذى ينادى بآراء هى آثام يحمل وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ! لماذا ؟.

لأن الشيخ لم يعجبه بعض ما كتبت ، محاولا أن أشرح ما أفهمه من المبادئ الاشتراكية، والقيم الاشتراكية، والأخلاق الاشتراكية ! ما الذى لم يعجبه ؟

ما الذى جعله يلبس ثياب قضاة محاكم التفتيش ويطالب بالقائى إلى النار ؟

ما الذى أثاره وجعل الدم يغلى فى عروقه من هذه المحاولات فى الكتابة عن الاشتراكية والقيم الاشتراكية، والأخلاق الاشتراكية ؟ المرأة !

دائما المرأة !

فقرة عابرة كتبتها عن الأسرة وعلاقة الرجل بالمرأة ووضع المرأة فى المجتمع الاشتراكى !

المشايع .. والنساء !

ألا تلاحظون معى أن هؤلاء المشايخ لا يكاد يعنيه شىء فى الوجود إلا المرأة ؟

ألا تلاحظون أنهم أكثر الناس تفكيرا فى المرأة ؟

أليس هذا غريبا حقا ؟

ألا يحتاج هذا إلى محل نفسي.. أكثر مما يحتاج إلى جدل عقلي؟
الأغرب من ذلك أن ما يعنى هؤلاء المشايخ من المرأة ليس «الانسانة»
ولكن «العورة».

المرأة في عقلهم الباطن مخلوقة حقيرة مستعدة أن تبيع عرضها لأول
عابر سبيل.. إذا غفل الرجل لحظة واحدة عن حراستها!..
المرأة في مفهومهم لا تصلح إلا لشيء واحد هو أن تسلم نفسها
للرجال.. ولهذا يجب أن تقام حولها الأسوار، وتتفتح حولها العيون
الحمراء.

حرية المرأة ليس لها معنى إلا الفساد..
مسئولية المرأة عن نفسها لا نتيجة لها إلا الانحلال!
خروج المرأة من بيتها لا يؤدي إلا إلى أن ينقض عليها الرجال!
الجنس.. والجنس وحده يدوى في عقولهم دائماً وباستمرار!
التفسير الجنسي للتاريخ هو التفسير الوحيد الذى يفهمونه ويدورون
حوله دون انقطاع!
قصة الحياة على الأرض هى قصة رجال يقومون بحراسة النساء من
خطر الرجال الآخرين.

تفكير مكبوت محصور منحرف!
وإلا.. فبماذا يمكن أن نفسر هذا الذى يقوله الشيخ؟
لقد تحدثت في المقال الذى يهاجمه الشيخ عن المساواة بين الزوج
والزوجة، والمساواة بين الأخ والأخت.. أى المساواة بين الرجل والمرأة!
فكيف فهم الشيخ هذا الكلام؟
فهمه على اننى أقول بأن لها أن تخرج من البيت كما تشاء وفى أى وقت
تشاء، كما أن للرجل أن يخرج من البيت فى أى وقت يشاء ثم قال عبنى
«ويكاد يقول أن لها أن تصاحب من تشاء»..
هكذا وصل الشيخ فى فهم المساواة إلى أن معناها أن للمرأة أن تصاحب
من تشاء من الرجال!..
وليس لهذا سوى معنى واحد هو أن الرجل فى رأى الشيخ من حقه أن
يصاحب من يشاء من النساء!..

أليس معنى كلامك هذا أن الرجل من حقه أن يصاحب من النساء من يشاء ؟

لماذا ؟.

لأنه رجل !

لأنه سيد

لأنه فحل !

أما أنا فأفهم المساواة على معنى آخر تماما ! لأننى لا أشارك الشيخ فى رأى الذى تورط فيه من حيث لا يدري.. الرأى القائل بأن من حق الرجل أن «يخبص» كما يشاء !!

أنا لا أفهم المساواة على أن كلا من الرجل والمرأة يخرج على هواه وكيفما شاء.. ولكننى أفهمها على أن كلا منهما مقيد فى دخوله وخروجه وتفصيل حياته برأى الآخر ومشورته واقتناعه ! وعلى أن الأخلاق الكريمة مطلوبة من الرجل ومقيدة له كالمرأة سواء بسواء !

وبهذا يكون الرجل والمرأة طبقة واحدة ! ليس فيها سيد غاشم مطلق ومخلوقة خاضعة ذليلة ضائعة !

الشيخ لا يطبق حكاية الطبقة الواحدة !

ولكن الشيخ لا يطبق حكاية الطبقة الواحدة والمجتمع الذى ليس فيه طبقات ! ويقول ان المساواة معناها أن تكون المرأة «من غير عاصم يعصمها ولا راع يرعاها ولا حام يحميها ولا بيت يؤويها !».

ألم أقل لكم ؟

ألم أقل لكم أن الشيخ يعتقد أن المرأة بغير القيود والسدود.. لو تركت لنفسها.. فهى ستتحوّل إلى بهيمة سائبة لا حامى يحميها من الرجال الآخرين ولا عاصم يعصمها من أن تفرط فى نفسها ولا بيت يؤويها لأنها سوف تعرض نفسها فى الشوارع ؟..

ألم أقل لكم أن هذا هو رأى هذا النوع من المشايخ فى المرأة؟.. وانها تنتظر لحظة انكسار القيد والخوف والبطش لكى تسلم نفسها لأول عابر طريق ؟.

هذا هو المرض العميق الذى يمنعهم من فهم المساواة. انهم لا يرون فى

المرأة مخلوقة إنسانية، يمكن أن تكون شريفة عفيفة متوازنة مرتبطة بالبيت باختيارها وبإرادتها!..
على أن هذا كله — بكل بشاعته واهانتته للمرأة — أقل أهمية وخطرا مما
سيجيء.

الشيخ يفضح نفسه

لو كان الأمر في خروج المرأة أن تذهب إلى السينما مع زوجها وصاحباتها، أو ماشابه ذلك لهان الأمر.. ولكن الشيخ يفضح نفسه ويكشف عن مكنون سخطه.. حين يضل بحديثه إلى مربط الفرس وهو عمل المرأة!..

هذا الموضوع الذي نحسب أحيانا أنه انتهى وتقرر وأن الجدل فيه تكرار ممل قات أوانه!..

ولا أظن أن كلام الشيخ — في هذا الموضوع — سوف يمتنع فتاة واحدة من العمل. ولكني أقف عند هذا الكلام لأنه نموذج يكشف لنا حقيقة الفكر الكامن في «تلافيف» مخ هذا الشيخ وأمثاله.. لا ما يقولونه باللسان، يدارون به أمورهم.

يقول الشيخ ان عمل الرجل خارج المنزل وعمل المرأة داخل المنزل فقط. وانه يجب منع المرأة من أن تخرج وتعمل إلا لضرورة ملحة لا مناص منها، كأن تفقد العائل، أو أن يعجز الزوج عجزا مطلقا فأنه في هذه الحالة فقط لها أن تتولى عملا لمصلحة البيت ولسد الخلل فيه، وذلك استثناء، والاستثناء لا يصح أن يكون قاعدة.

هذا هو نص كلام الشيخ بلا زيادة ولا نقصان!..
ومعنى ذلك أن الشيخ يريد لبلادنا أن تعود إلى الوراء بسرعة مخيفة!..

انهيار القوة العاملة

ما معنى ذلك؟..

معناه أن القوة العاملة المستقبلية في هذه البلاد يجب أن تهبط إلى النصف أو إلى الثلث على الأقل! وبينما كل بلاد الدنيا تعمل بقوتها البشرية الكاملة، نعمل نحن بنصف قوتنا.. لأن نساءنا في رأى الشيخ إذا خرجن سوف ينقض عليهن الرجال ويفسد الأمر!

فمن المقرر المعروف أن عجلة الانتاج والتصنيع والتوسع الزراعى حين تندفع إلى الأمام، سوف تستوعب كل الرجال. سوف تمتصهم الأعمال الشاقة فى المصانع والمناجم والأراضى المستصلحة، فتخلو مئات الآلاف من الأعمال الأقل صعوبة. وتصبح فى حاجة ماسة إلى أن تشغلها النساء. وظائف السكرتارية وعاملات المهن الخفيفة كالنسيج وعاملات المحلات.. إلى آخره. هذه الطاقة الانتاجية الضخمة يريد الشيخ الغاءها والحكم عليها بالشلل، ولو أدى الأمر إلى استمرار بقاء الفقر والتخلف. فلا الفقر يهم ولا التخلف يهم ولا الجهل يهم. مادامت كل امرأة معصومة فى بيتها.. معصومة من الخروج.. إلى الخطيئة الحتمية التى تتربص بها فى الشارع والمكتب والمصنع.

ولكن الجنس والخطيئة لا يستبدان بعقول آلاف الرجال والنساء كما يعتقد الشيخ.

إن لدينا الآن عشرات الآلاف من الموظفات والعاملات فى جميع المستويات دون أن تخرب بيوتهن أو يتمردن على أزواجهن. إنما اكتسبت كل منهن فى بيتها نفسه كرامة جديدة واحتراما جديدا.

عشرات الآلاف من الموظفات والعاملات .. وسوف يزداد عددهن بسرعة كبيرة ومن غير المتصور أن يكون انجاز مضاعفة الدخل - مثلا - ممكنا فى عشر سنوات لو اننا طبقنا موعظة الشيخ واستبدت بنا أفكار الخطيئة والجنس، ومنعنا عمل المرأة.

منطق القناعة وبمجرد الفقر!

هذا على المستوى الاجتماعى.. تعالوا ننظر إلى الأمر على مستوى الفرد والبيت والأسرة.

إن السبب الوحيد الذى يبيع عمل المرأة فى رأى الشيخ هو الضرورة الملحة كأن تفقد عائلتها أو يعجز الزوج عجزا مطلقا، مؤكدا أن «هذا استثناء، والاستثناء لا يصح أن يكون قاعدة».

لأبد أن يموت أبوها أو زوجها وأن تصبح مهددة بالجوع، لكنى تعمل. أما إذا كان أبوها أو أخوها أو زوجها موجودا، وإذا كانت تعيش على الكفاف، فلا يصح أن تعمل!

وليبيق البيت كله في مستوى الكفاف ! لأنه لا يصح لها أن تطمح إلى حياة أحسن لبيتها ، فتعمل لكي تضيف إلى دخل زوجها أو أبيها أو أخيها دخلا.

هذا المنطق في القناعة بالكفاف وتمجيد الفقر وتبريره، هو الذى حكم على مجتمعنا بالتأخر مئات السنين المظلمة الطويلة.

المجتمع ينهزم من الداخل فقط

هذا المجتمع العربى والاسلامى لم يتأخر ولم ينحدر ولم يترد في هوة الفاقة والذلة والمهانة بسبب حراب الانجليز أو الفرنسيين أو الأتراك أو التتار ! كلا .. إنما تأخر وتردى وانحدر مئات السنين المظلمة الطويلة بفعل هذه الأفكار المظلمة المتردية. المجتمع ينهزم من الداخل قبل أن ينهزم من الخارج. العفونة الداخلية التى نشرها هذا النوع من التفكير هى التى أوجدت الفراغ .. والفراغ هو الذى استدعى الأجنبى.

لا يلزم أن نتقدم.

لا يلزم أن يرتفع مستوى الفرد والبيت والمجتمع.

يجب ألا نترك سعادة الفقر والاملاق والتخلف.. مادامت النساء في البيوت ومادام الرجال يقومون بمهمتهم الكبرى وهى حراسة النساء حتى لا ينحرفن إلى الرذيلة الكامنة في طبيعتهن والتمرد الذى ينتظر لحظة الانطلاق.

هذا هو منطق الشيخ وأمثاله..

ومنطق الشيخ يصل في نتيجته الحتمية إلى عدم تعليم البنت.

سيقول لكم : كلا .. التعليم شىء آخر .

ولكن أذكروا أن بعض المشايخ أمثاله عارضوا تعليم المرأة في بداياته. وفي تاريخ المشايخ أن الشيخ «القابسى» الفقيه القيراونى القديم أفتى بأن يقتصر تعليم البنت على «مايرجى له سلامة» ويؤمن «من عليها من فتنه، وسلامتها من تعلم الخط انجى لها». فحتى تعلم المرأة الخط فيه خطر عليها.. فقد تجد معه طريقا إلى بيع نفسها.

وحتى إذا أباح الشيخ تعليم المرأة دون علمها فهو لن يكون منطقيا مع نفسه.

فالتعليم بقصد المعرفة فقط.. يكفي فيه أن تتعلم البنت القراءة والكتابة وبعض المعارف العامة. ولكنها إذا كانت لا تعمل فلا مبرر لأن تتعلم حرفة أو مهنة.. كالطب أو الهندسة أو التدريس أو المحاماة أو غيرها. إذ من غير المعقول أن تدرس فتاة الطب مثلاً في سبع سنوات مضيئة. لمجرد الاستعداد للحظة التي قد يموت فيها زوجها أو أبوها وتحل بالبيت كارثة. فتفتح عيادة.

النشرة الجوية حرام والتخطيط حرام!

واننى استأذن القارئ لحظة، أترك فيها الشيخ أبو زهرة إلى شيخ آخر لا يقل عنه طرافة.

ولا أريد أن أسمى الشيخ الآخر، إنه ليس طرفاً في هذا النزاع.. وإنما أردت أن أضرب به المثل وأقدم نموذجاً فذا عجيبي.

هذا الشيخ أستاذ أزهرى ومن العلماء وعندما كنت مسئولاً عن تحرير إحدى الصحف منذ سنوات قليلة، أرسل شكوى ضدى إلى السلطات.. لأننى أنشر فى تلك الصحيفة الانحلال والاحاد والفسق.

وفى جلسة لا أنساها.. شهودها مازالوا أحياء.. ناقشنا الشيخ، الذى أؤمن باخلاصه وصدقه مع نفسه — فى هذا الذى يراه الحاداً وانحلالاً وفسقاً.

وكانت الحقيقة أغرب من الخيال وكانت قائمة الاتهامات لاتخطر على بال.

فى مقدمتها — مثلاً — أن الجريدة تنشر النشرة الجوية كل يوم بجوار مواقيت الصلاة. والنشرة الجوية فى رأى الشيخ تنجيم ورجم بالغيب.. والتنجيم كفر. وقد كذب المنجمون ولو صدقوا. تهمة أخطر..

اننى كنت أكتب بحماسة أكثر من اللازم عن التخطيط وخطة مضاعفة الدخل وكانت فى أول عهدها. والتخطيط هو تدخل فى قدرة الله.. ولذلك فهو رجس من عمل الشيطان.

نعم التخطيط كفر.. هذا مقالته أستاذ الأزهر بالحرف الواحد.. إذ كيف نقول إن الدولة تضع أساساً علمياً للمستقبل. كيف نقول أن الفرد يستطيع

- بناء على ذلك - أن يحدد رزقه وزيادته خلال كذا سنة مقبلة. في حين أن المستقبل علمه عند علام الغيوب والأرزاق من عند الله، يعطى من يشاء ويحرم من يشاء بغير حساب. ولقد يظن القارئ أن هذا الذى أرويه قصة فكاهية. ولكنه حقيقة أليمة..

حقيقة أليمة أن يقف أستاذ شيخ يحمل لقب «عالم» إزاء الطقس كما يقف الانسان البدائي. لا يعرف أن هناك علومًا حديثة وأجهزة حساسة وأساليب محددة لمعرفة تقلبات الجو، وأن بهذه الأجهزة تطير الطائرات وتسترشد السفن.

حقيقة أليمة أن يقف أستاذ شيخ ذاهلاً أمام كلمة «علام الغيوب» لا يفسرها في حدودها المعقولة. بل يفسرها على إنها إلغاء لكل مجهود بشري وكل عمل إنساني وكل محاولة لتغيير الواقع المادى الذى يحيط بنا. ومرة أخرى.. بهذا الاستسلام الجاهل.. بل أقول استسلام الكافر الذى لم يقل به دين فقط.. عرفت الأمة العربية والشعوب الإسلامية قروناً طويلة من أتعس أيام الانحطاط والضعف.

ما رأيك في هذه الحقائق؟

وأعود مرة أخرى إلى الشيخ أبى زهرة اختتم به هذا الحديث.. أعود لأقول له: إنها طريقة هزيلة أن تنتهز فرصة حديث عابر في مقال كاتب مثلى، لكى تنفجر هذا الانفجار، منفساً عن حقدك الدفين على إلغاء الطبقات ونشر المساواة، وتحرير المرأة.

اننى أضحك هنا لا أمام مقال من المقالات.. ولكن أمام عدة حقائق مادية ضخمة في حياة هذا البلد.. لتقول لنا موقفك منها على ضوء هذا الرأى الذى سجلته في مقالك.. لأنها حقائق أولى بسخطك وغضبك وانتحالك صفة التحدث باسم الدين وسلطة تكفير الناس والحكم عليهم بدخول الجنة أو النار.

* إن هذه الدولة تبيع للمرأة حق الخروج والمشاركة في الانتخاب والترشيح وعضوية الهيئات النيابية على جميع المستويات وأن لك في مجلس محافظة القاهرة زميلات أعضاء. فما رأيك في هذا «الخروج»؟

* إن التلفزيون الذى تتصدر فيه المجالس يذيع كل يوم ساعات طويلة من التمثيليات التى تشترك فيها النساء .. والبرامج التى تقدمها النساء، والأغاني التى تغنيها المطربات.. وصورهن ظاهرة للجميع.. فكم ساعة من ساعات الكفر فى رأيك يعرضها التلفزيون كل يوم؟

* إن الدولة ترسل إلى الخارج، وفى جميع أنحاء العالم بعثات من البنات. البنت تذهب بمفردها إلى أوروبا أو أمريكا لتدرس العلوم أو الهندسة أو الذرة .. رغم أن عائلها لم يمت ولم يصب بكارثة. فما رأيك فى هذا الخروج؟

* إن الأندية الرياضية والحفلات الرسمية فيها آلاف من الفتيات يقدمن التمرينات والألعاب والاستعراضات. فما رأيك فى هذا اللاحاد؟

* إن المعامل والمصانع والمتاجر والوزارات والمؤسسات فيها عشرات الآلاف من النساء العاملات.. وأغلبهن يمكنهن ترك العمل دون أن يمتن جوعا ولكنهن يعملن أما مساهمة فى الحياة العامة وأما بحثا عن تعبير إنسانى لوجودهن وأما لرفع مستوى معيشتهن إلى أحسن.. فهل ترى انسحاب الجميع من هذه الحياة أم أنهن جميعا ذاهبات إلى النار؟

أترى أيها الشيخ إلى أى حد أنت معزول عن موج الحياة؟.. أترى إلى أى حد تقف فى مكانك طالبا بموت هذه الأمة لا بحياتها؟ .. أكون هذا هو ما يخرج صدرك ويثير حفيظتك فتنفجر هذه الانفجارات الطائشة.. منفسا عن كربك الشديد؟

إن الذين يعملون على رقى بلادهم، وتحرير مواطنيهم وتطوير مجتمعهم أعرف بروح دينهم من محترفى التلاعب بالنصوص وتلييسها معانى مزورة تلائم عقدهم النفسية لا أكثر ولا أقل!

حول مقال صلاح دسوقي

الفرق بين الدين .. وبين أستاذ يدرس الدين !

كتب الصديق الكبير السيد صلاح دسوقي محافظ القاهرة، مقالا فى الزميلة جريدة الجمهورية، تعليقا على المقال الذى كتبته فى أخبار اليوم بعنوان « لا يا شيخ؟ ».. والذى كنت أرد فيه هجوما شنه ضدى الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة وأعارض فيه رأى الأستاذ الشيخ عن مكان المرأة فى

المجتمع.. إذا قال الشيخ أبو زهرة ان المرأة لا يجب أن تعمل إلا لضرورة قصوى كوفاة عائلها أو إصابة بعجز ، وان هذا الاستثناء لا يقاس عليه.. في حين اننى أرى أن المرأة من حقها أن تعمل، وهى تعمل بالفعل.. وان المجتمع محتاج إلى عملها في داخل البيت وفي خارجه على السواء.

ولست أخالف معنى واحدا من المعانى العامة التى أراد السيد صلاح دسوقى أن يسجلها في مقاله الأخير في زميلتنا «الجمهورية» تعليقا على مقالى. هذه المعانى العامة التى تقول ان التهجم على الدين باسم التحرر خطأ، كما أن معاندة التطور باسم الدين خطأ ، وانه يجب علينا أن نحفظ لرجال الدين كرامتهم. وان من بين رجال الدين من كان لهم فضل على الحركات التحريرية في تاريخنا القومى.

هذه المعانى العامة التى أراد السيد صلاح دسوقى أن يبرزها في مقاله ، أويدها تماما ، وأعتقد أن السيد صلاح دسوقى يعزف عنى شخصيا أننى أويدها بقلب مخلص صادق.

على اننى أريد أن أوضح بعض ما جاء في مقاله خاصا بموقفى بالذات، أو بمقالى عن الشيخ أبى زهرة بالذات .. اننى حتى في هذه النقطة الخاصة أشعر أن السيد صلاح دسوقى قد أنصفنى في الجزء الهام من الموضوع، إذ قال انه يعتقد مخلصا أننى لم أقصد بمقالى هذا أن أهاجم الدين في ذاته ، ولكنه أخذنى على أن الروح العامة لمقالى كانت قاسية ، وأنها في رأيه قد تعدت المباح في حالة الدفاع الشرعى عن النفس.

من الذى يقحم الدين ؟

ولست أنكر أن المقال الذى كتبتة كان عنيفا ، قاسيا ، ثائرا .. ولكننى أعتقد أنه من الانصاف أن نضع في الميزان ما قاله الأستاذ أبو زهرة عنى. لقد علق الأستاذ الشيخ أبو زهرة على مقالى لم أشرفيه إلى الدين بكلمة واحدة . مقالى تحدثت فيه عن موضوع قديم أشبعه الكتاب تحليلًا وتعليقا في كل مناسبة وهو مساواة المرأة بالرجل. وقد كان من الممكن أن يخالفنى الأستاذ أبو زهرة في رأى . وأن يقول ان الدين - في اعتقاده - يخالف ما أذهب إليه.. إلى آخر ما يمكن أن يقال في حدود الجدل المذهب.

ولكن الأستاذ أبو زهرة صنع شيئا آخر. لقد استخدم ضدى أقسى

الكلمات والألفاظ. وجمع كل التهم التي رأى أنها تعرضنى لحكم الأخلاق أو القوانين فآلقاها على رأسى فى خفة غريبة ، من الكفر والالحاد إلى الشيوعية والانحراف.. إلى آخره.. فى لهجة ازدراء وتشهير واستعداد غريبة !.

فلماذا لا يكون الجزاء من جنس العمل ؟
لماذا لا يلام الشيخ أبو زهرة أولاً على أنه بدأ الجدل بهذا الأسلوب. والمفروض أن الناس لهم حق واحد متساوين فى الكرامة ، سواء كان هؤلاء الناس شباباً أو شيوخاً ، صحفيين أو مدرسين للشريعة. أهكذا بهذه السهولة نتهم الناس علناً وعلى صفحات الصحف بالكفر والالحاد ؟

أىكون من أدب المناقشة الموضوعية أن يستعدنى الشيخ على الله ثم الدولة والمؤسسة التى أعمل فيها ، طالبا أن تطردنى المؤسسة من عملى ، وأن تضعنى الدولة فى سجونها وأن يسوقنى الله إلى جهنم يوم القيامة ؟ هل من أدب المناقشة ألا يشير إلى بكلمة «هذا المنحرف» وأن يقول اننى اشتهرت بانحراف التفكير وفساد الغايات والتمرد على الحقائق الدينية ؟ ماذا يمكن أن يقال فى إنسان أكثر تشهيراً واندفاعاً وإساءة من هذا الكلام ؟

وإذا كان الهجوم على أحد رجال الدين له أثر خاص فى الناس.. أليس من الانصاف أيضاً أن نقول أن قيام أحد رجال الدين بالذات بتوجيه تهمة الكفر والالحاد والانحراف له أثر خاص على الناس ؟

ومن الذى يقحم الدين هنا فى المهاترات ؟ .. الكاتب الذى يقول رأيه فى حياتنا الاجتماعية ، صواباً كان هذا الرأى أم خطأ أو الأستاذ الذى يريد أن يكون رأيه الخاص، هو الدين واجتهاده الخاص هو الإسلام ومن يجرح رأيه الخاص هذا فهو إنما يجرح الدين نفسه ؟!

اننى أوافق السيد صلاح دسوقي تماماً على أنه يجب علينا جميعاً أن نحفظ لرجال الدين كرامتهم، ولكننى أعتقد أن الواجب الأول فى هذا يقع على رجال الدين أنفسهم !..

أما أن الشيخ أبو زهرة قد هاجمنى فى مجلة محدودة التوزيع هى مجلة

«منبر الاسلام» وأن «الهجوم المضاد» منى كان في جريدة واسعة الانتشار. هي أخبار اليوم ، فهذا أمر لا حيلة لي فيه . لقد كتب الأستاذ أبو زهرة حيث يكتب عادة . وكتبت أنا حيث أكتب عادة. والمسألة على أى حال مسألة مبدأ ، قبل أن تكون مسألة عدد النسخ التى توزعها هذه الجريدة أو تلك.

قواعد أساسية للمناقشة !

على أننى أحب أن انتهز هذه الفرصة ، لكى أسجل هنا بعض المبادئ الأساسية ، التى أعتقد أن تسجيلها أصبح ضروريا ولازما .

إن رجال الدين — وهذا طبيعى — يشتركون فى مناقشات ومجادلات كثيرة حول أغلب القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تشغل الأذهان ولا بد أن نسجل بعض القواعد الأساسية المتصلة باشتراك رجال الدين فى هذه المناقشات. لأنه بغير هذه القواعد يصبح من المستحيل على أى مخلوق أن يناقش أى رجل من رجال الدين .. ويصبح علينا جميعا بالتالى — كتابا وساسة ومفكرين — أن نختفى من الميدان .

ما هى هذه القواعد ؟

أولا — إن معارضة آراء بعض رجال الدين ليس معناها معارضة الدين ذاته. فهذا الكهنوت لا يعرفه الاسلام بالذات . وعصمة الدين نفسه لا تؤدى إلى عصمة كل أستاذ يقوم بتدريس الدين أو تلقى علوم الدين . أنه قد يكون له فضل التخصص فى مادته. ولكنه بعد ذلك بشر قد يخطئ فى فهم الدين وقد يصيب. وآراؤه وتفسيراته ليست منزلة.

ومعنى ذلك أن هذا السيف المصلت على الرقاب يجب أن يختفى ، وهو سيف الاتهام بالالحاد والمروق عن الدين. أو على الأقل لا يجب استخدامه بهذه الخفة وهذا التسرع.

ثانيا — ان مهاجمة واحد بالذات من رجال الدين — حين يستحق الهجوم — ليس معناها مهاجمة كل رجال الدين . فحين هاجم الشيخ أبو زهرة كاتب هذه السطور لم يقل أحد أن هذا هجوم على كل الكتاب والصحفيين فلماذا يقول البعض أن الهجوم على الشيخ أبو زهرة هو هجوم على كل رجال الدين ، فضلا عن القول بأنه هجوم على الدين فى ذاته ؟!

إن كل فرد يحمل مسئولية آرائه وتفسيراته وتأويلاته ، والمناقشة

المفيدة لا يمكن أن تستقيم مع هذه الطائفية التي لا أساس لها. ورجال الدين أنفسهم يتناقشون ويختلفون في آرائهم ومواقفهم اختلافا شديدا في شتى العصور. وجمال الدين الافغانى ومحمد عبده اللذان ضرب بهما السيد صلاح دسوقى المثل على رجال الدين الذين كانوا من رواد الحرية.. كان بعض رجال الدين فى عصرهما يتهمونهما بالكفر والخروج على الدين !

ثالثا - إن الناس جميعا - كما قلت منذ قليل - لهم كرامة متساوية.. ولهم حق واحد فى ألا يتعرضوا للاهانة والتجنى فليس هناك طبقة أو فئة تعلو فى الكرامة على غيرها من الفئات. انما لكل فرد من الكرامة ما يتساوى مع عمله وجهده وخلقه وإخلاصه ومع كونه إنسانا شريفا. وبعد ...

فأنتنى أضم صوتى مخلصا ، وفى غير تحفظ ، إلى صوت السيد صلاح دسوقى فى قوله أن الدين علاقة بين الانسان وربه.. وفى مطالبته بأن يعمل الجميع على أن يرتفع الدين فوق مستوى المناقشات والمعارك السياسية والاجتماعية.

ظهر في باريس — بين القنابل
والمتفجرات - كتاب اسمه (جميلة
بو باشا).

وعلى الكاب لوحة بريشة الرسام
العالمى بيكاسو لفتاة الجزائر الشابة
التي تعيش الآن في سجن قريب من
باريس...

والكتاب بقلم سيدتين
فرنسيتين.. الأولى هى المؤلفة العالمية
سيمون دى بوفوار زوجة جان بول
سارتر ورفيقته والثانية سيدة
شابة، جيريل حلیمی، عرفتھا في

القاهرة منذ شهور، كمحامية فرنسية جاءت إلى
القاهرة لأعمال قضائية وهى فى نفس الوقت محامية
جميلة بوباشا... والكتاب نفسه لم يصل إلى
القاهرة بعد. ولكن الصحف الفرنسية المختلفة
نشرت مقتطفات طويلة منه وتعليقات كثيرة عليه..

ولن أضيف إلى معلومات القارئ جديدا حيث
أسرد له بعض ما جاء فى الكتاب من قصص تعذيب
الضباط الفرنسيين لجميلة بوباشا.. وقصص
المحاكمة.. وانهيال القضاء والعدالة... ولكننى أسرد
له لقطة خاطفة.. حين ذهبت سيمون دى بوفوار
وجيريل حلیمی وسيدة فرنسية ثالثة، عرفتھا أيضا

باريس :

والكتاب

يا سيدتى

فرنسية !

أخبار اليوم .. فى

٦٣ / ٢ / ١٧

في القاهرة، هي جرمين تيللون سيدة في حوالى الخمسين لها عدة مؤلفات ممتازة عن الجزائر.. ذهبت السيدات الثلاث إلى أحد كبار الدولة في فرنسا لمناقشته في موضوع جميلة بوباشا.. والتفت الفرنسي الكبير إلى سيمون دى بوفوار وقال لها:

— لقد رأيت الضباط الذين تهاجمينهم... لقد كانوا متألمين جدا.. انهم جميعا مهذبون جدا.. ومن عائلات كبيرة! ودهشت سيمون دى بوفوار من هذا المنطق. وقالت له: ان كونهم من عائلات كبيرة ومهذبين في حياتهم العادية لا يمنع من أن يكونوا في الجرب من مرتكبي جرائم التعذيب.. قال لها الرسمى الكبير:

— لقد رأيت جميلة بوباشا «بتاعتك» انها ليست ظريفة أبدا! لقد تحدثت معها.. وتحدثت مع أهلها أيضا.

ثم سكت لحظة وقال كأنه يلقي بالحجة الكامنة:

— انهم لا يحبون فرنسا!

وردت عليه سيمون دى بوفوار..

— بعد ما رأوه من فرنسا.. وبعد ما يصنعه أبناء فرنسا من ادخال الزجاجات الفارغة في بطون البنات.. أيدهشك ألا يحبوا فرنسا؟

وهز الفرنسي الكبير رأسه من جديد في عدم إهتمام وقال:

— إنها لا تستحق كل هذا الاهتمام.. هذه الفتاة!

وقالت سيمون دى بوفوار.. إن المهم هو موضوع التعذيب في حد ذاته.. فقال لها: وهنا كانت قد ثارت أعصاب «جرمين تيللونو، فهبت واقفة لتصرف صائحة فيه:

— كل بنت فينا كانت تحلم بأنها جان دارك حين كانت في الثانية والعشرين مثل جميلة!

ورد عليها الرجل الرد القاطع:

— ولكنك، يا سيدتى، فرنسية!!

وخرجت السيدات الثلاث - كما تروى المؤلفة - مسرعات.. دون كلمة واحدة! لأنك فرنسية.. فمن حقه أن تحلمى بأنك جان دارك.. وأن تحلمى بحرية بلدك.. أما جميلة.. فهي جزائرية!.. ليست فرنسية، فكيف تحلم بأنها جان دارك؟.. وبأن بلادها ستتحرق؟!

هذا الحديث أقرب إلى أن يكون
«دردشة صيام»..

اخترت له أربع قصص عاشها
العالم في أماكن مختلفة : موسكو
وواشنطن وعمان وقرية «سان
هيبوليت» في فرنسا !

ومع ذلك فهي وثيقة الصلة بما
يدور في عالمنا هذا من أحداث كبيرة !

القصة الأولى

القصة الأولى - السياسية - من
قرية فرنسية صغيرة ، غارقة في
حقول العنب ، على سفح جبال

البيرينيه الجنوبية .. قرية لم تعرف السياسة قط ،
لم تعرف سوى زراعة العنب وصنع النبيذ ، اسمها :
سانت هيبوليت !

ولكن السياسة قلبت حياة القرية ، حين دخلتها
في أعقاب شاب هادئ ، وسيم ، رقيق ، جاء إلى
القرية ليعمل مدرسا في مدرستها الابتدائية ، واسمه
«سانشين».

ولم تمض أيام على اشتغال سانشين في المدرسة ،
حتى كان قد أصبح معبود التلاميذ الصغار ،
وأصبح كل أهالي القرية يتحدثون عن ذكائه ،
ووداعته ، وحب أبنائهم وبناتهم له.

ثلاث

قصص

قصيرة

أخبار اليوم .. في

٢٢ / ٢ / ٢

وفجأة ، عرف أن نقابة المعلمين قد فصلت سانشيز من عضويتها. وأن بعض الشبان المشتغلين بالسياسة في المنطقة يطالبون بطرده من المدرسة. لماذا .. ؟

لقد كان سانشيز مجندا في الجيش الفرنسي في الجزائر، ثم جاء إلى القرية بعد أن قضى مدة الخدمة العسكرية في ساحة القتال. وقد اتهم سانشيز في حوادث تعذيب الجزائريين. واقرن اسمه هناك بحادثة معينة ، قام فيها بتعذيب فتاة جزائرية ، تعذبا مروعا بالكهرباء وبغير الكهرباء ، حتى ماتت.

وقد اشتهر هذا الحادث حتى اضطرت السلطات الفرنسية إلى تقديم سانشيز إلى المحاكمة العسكرية. ولكن من هم القضاة ؟ انهم طبعاً من الضباط الذين يأمرّون بالتعذيب.. ومن القضاة الفرنسيين المتحيزين ضد الجزائري. أو الخائفين من غضب الجيش.. فحكم ببراءته.

وعندما أنهى سانشيز مدة الخدمة العسكرية ، وعاد إلى فرنسا ، واشتغل بالتدريس في قرية (سانت هيبوليت) تحرك بعض اليساريين في نقابة المعلمين وطالبوا بفصله.

قالوا : كيف نأتمن على أبنائنا وبناتنا هذا الرجل، الذي قام بتعذيب فتاة جزائرية شابة حتى الموت .. ؟

إن التدريس ليس تلقين معلومات فحسب. التدريس تربية وتأثير. وهذا الرجل الذي سمحت له أخلاقياته ومبادئه ، أن يمارس أبشع ما يمكن أن يمارسه إنسان ، وهو التعذيب ، ولا يمكن أن يصلح مربيا ومعلما. ان القاتل يحرم من العمل. وسانشيز أكثر من قاتل. فالتعذيب يحتاج إلى نفس أكثر اجراما من نفس القاتل.

ولكن التلميذات والتلاميذ أضربوا عن الدراسة بمجرد فصل سانشيز. وامتلات جدران القرية بعبارات مكتوبة بالطباشير تقول : (أعيدوا سانشيز..!) وكان هذا كله بتحريض من أمهات وآباء التلاميذ.

ما هي وجهة نظر أهالي القرية .. ؟

قال بعض الفلاحين والفلاحات : ان هذه سياسة . وامهم لا شأن لهم بالسياسة. كل ما يعرفونه هو أن سانشيز هو أحسن مدرس جاء إلى

القرية ، ولذلك يجب أن يبقى.

وقال آخرون : إن سانشيز كمجند عادي في الحرب لم يكن يفعل سوى تنفيذ الأوامر.. وكل المجندين في كل الحروب ينفذون الأوامر.. وإذا كان ثمة من يجب أن يعاقب، فهم الكبار من الساسة والقواد ، لا سانشيز وأمثاله !

وقال سانشيز نفسه :

— إن مهمتي في هذه الحياة هي التدريس. ولكنهم جندوني وأرسلوني إلى هناك. وهكذا انتهى الأمر هناك لا أستطيع أن اختار لا أستطيع أن أرفض .. انني مجرد مخلب قط.

— ولكنهم استطاعوا حمايتك وبرأوك في المحكمة.

— لو كانت حمايتي تهمهم.. لما قدمت إلى المحاكمة فط.. ولكنني المسكين في اللعبة كلها.

وكان معنى كلام سانشيز : ان الضابط المجرمين الحقيقيين ، يعرضون للمسئولية مجندين بسطاء من أمثاله يستترون خلفهم.. لو كانت حمايتي تهمهم.. لقاموا بحمايتي حقا.. كما يفعلون مع الآخرين .. !

وقال سانشيز أيضا : إن الحرب بالنسبة لي قد انتهت. ولا أريد أن أعود إليها قط.. ولا بالكلام عنها !

وقال آخرون : صحيح أن الجندي مضطر.. وانه لا يستطيع أن يعصى في الحرب أمرا.. ولكن هناك خيطا رقيقا بين الحرب ذاتها وبين جرائم الحرب.. خيط رقيق بين المحارب وبين مجرم الحرب.. مثل سانشيز !

وتعدت هذه المناقشة حدود قرية سانت هيبوليت التي لم تعرف السياسة قبل ذلك قط.. إلى سائر أنحاء فرنسا.. في الصحف.. ومقاهي الشباب.. والندوات الأدبية .. ولم تحسم بعد.

. تذكرت - وأنا أتابع هذه القصة - ما نشر في بعض الصحف الأوربية من أن ديجول اشترط في مباحثات الجزائر : ألا تقوم حكومة الجزائر المستقلة بإقامة محاكمات لمجرمي الحرب على طراز محاكمات نومبرج بعد انهيار النازية في ألمانيا ، وإلا نطبع كتبنا تسجل فيها فظائع الفرنسيين في الحرب..! ذلك أن فرنسا بدأت تعرف أن جرائمها في الجزائر لم تعد جرائم فردية

تلوث أصحابها وحدهم.. بل أصبحت تلوث الأمة بأسرها.. وقد بدأت فرنسا تنظر في اشفاق ، إلى احتمال أن يحمل أبنائها عارا تاريخيا كعار النازية ومعسكرات التعذيب وغرف الغاز.. ولكنها .. كيف تقلت ؟..

القصة الثانية

القصة الثانية، قصة بوليسية، من واشنطن ، عن المخابرات الأمريكية. لقد كانت الجاسوسية دائما حقيقة من حقائق الصراع الدولي منذ نشأت دول متصارعة على هذه الأرض. ولكن هذه الحقيقة قد انتشرت وتأكدت في الزمن الحديث حتى لم يعد ممكنا أن تعيش دولة تحترم مسئوليتها نحو نفسها دون أن يكون لها جهاز يتجسس على خصومها ، وجهاز يقاوم جاسوسية خصومها عليها.

وقد كانت القاعدة دائما أن أى دولة لا يصح أن (تعرف) بأنها تتجسس. حتى إذا ضبط جواسيسها متلبسون معترفون ، فهي تقول ان هذا تلفيق وتزوير.. ولكن ايزنهاور فتح صفحة جديدة في حياة الجاسوسية يوم قال عقب اسقاط طائرة التجسس الأمريكية الشهيرة فوق الاتحاد السوفيتي : نعم نحن نتجسس على الاتحاد السوفيتي وقد تم التجسس بناء على تعليمات مني .. وسوف نظل نتجسس..

ولا شك أنه من قبيل (الفتح الأمريكي الجديد) في هذه الناحية أيضا ، أن يصدر كتاب يدافع عن كفاءة مخابرات أمريكا ، فينشر أخطر أسرار واعترافات يمكن أن تنشرها دولة عن نفسها.

* يقول مثلا : ان ما قاله دالاس من أنه لم يكن يعرف مقدما بالهجوم الانجليزى الفرنسى والاسرائيلى على مصر كان صحيحا من الناحية الرسمية فقط. أى بمعنى أن سفراء هذه الدول لم يخطر به بالهجوم رسميا قبل أن يبدأ.. ولكن دالاس كان يعرف تماما ما سيحدث عن طريق المخابرات. فقد أكدت له المخابرات مقدما أن إسرائيل لن تهاجم الأردن ولكنها ستهاجم مصر بالاشتراك مع فرنسا وانجلترا، وقبل الغزو بيوم واحد أنبأته المخابرات بأن الهجوم على وشك الوقوع. ولكن دالاس هو الذى فضل أن (تغمض أمريكا عينيها ولا ترى شيئا!!).

* ويروي الكتاب أيضا بصراحة ، كيف استطاعت المخابرات الأمريكية أن تسقط مصدق وتعيد الشاه إلى عرشه في إيران.
فقد رفض أيزنهاور في ذلك الوقت أن يقدم إلى مصدق المساعدة التي طلبها. وتقرر اسقاط مصدق لمنع نفوذ الاتحاد السوفيتي من التسلل إلى المنطقة.

وفي يوم ١٠ أغسطس طار «آلن دالاس» مدير المخابرات الأمريكية إلى سويسرا في رحلة بريئة مع زوجته على جبال الالب. وفي نفس الوقت شعر لوى هندرسون سفير أمريكا في طهران، برغم خطورة الموقف هناك. بحاجة إلى اجازة للراحة في سويسرا، وفوق نفس جبال الالب. ولاشك أن المخابرات السوفيتية قد لاحظت في ذلك الوقت أن الأميرة أشرق شقيقة الشاه، أيضا قد طارت فجأة إلى نفس المصيف على جبال الالب.. أما الرابع الذي وصل إلى نفس المصيف فهو رجل اسمه «نورمان شوارتزكوف» ضابط البوليس الأمريكي القديم ، والرجل الذي نظم وقاد بوليس شاه إيران من سنة ١٩٤٢ إلى سنة ١٩٤٨ عاش خلالها في طهران، ممسكا في الخفاء بكل أجهزة الأمن هناك.

وطار شوارتزكوف بعد لقائه بالثلاثة الآخرين إلى طهران. وهناك عثر على زميله القديم الجنرال زاهدي، واتصل بالشاه في الخفاء ، وبعدها وجد الشاه الشجاعة الكافية لكي يعلن إقالة مصدق وتعيين زاهدي رئيسا للوزارة.

وعندما قاوم مصدق وثار الشعب مؤيدا له ، اضطر شوارتزكوف أن ينفق عشرة ملايين دولار من أموال المخابرات لكي (يذيب) بعض مؤيدي مصدق، ثم لكي يحرك مظاهرات غريبة تهتف بحياة الشاه وبسقوط مصدق. وفي وسط الفوضى ذهب جنود إلى مصدق الراقد بالبيجاما في فراشه واعتقلوه. ثم اتصل بعضهم بالشاه وزوجته في روما ليعودوا إلى طهران. فالإيرانيون (لم يسقطوا مصدق بأنفسهم، ولكنها كانت عملية أمريكية من الألف إلى الياء، عملية رأّت أمريكا أنه من الضروري تنفيذها لحماية العالم الحر..!).

* ومن أعجب القصص ، قصة الشماعة.

ففى مطار فيينا ، كان يوجد بين الموظفين من يعمل لحساب المخابرات الأمريكية. وكان هذا الموظف مختصا فى استلام كل (صناديق الزباله) ، والمخلفات التى تتخلص منها الطائرات السوفيتية التى تهبط فى المطار.. وفى أحد صناديق الزباله وجد يوما (شماعة) ثياب ، من التى تستعمل فى الطائرات ، طار بها فرحا ، وأرسلها على الفور إلى مقر المخابرات الأمريكية فى واشنطن.

كانت المخابرات الأمريكية تبحث وراء طائرة حديثة ، قاذفة قنابل بعيدة المدى ، انتجها السوفييت. وقد عرفت المخابرات بعض المعلومات عنها ولكنها لم تتمكن من أن تعرف شيئا عن حمولتها من القنابل أو مداها فى الطيران. ولكنهم عرفوا أن (الخردة) المختلفة من صنع أجنحة الطائرة ، تستخدم فى صنع شماعات الملابس فى الطائرات.

وبتحليل هذه الشماعة كيميائيا ، أمكن معرفة نوع المعدن المصنوعة منه أجنحة الطائرة السرية ، وبالتالي أمكن تحديد حمولتها ومدى طيرانها.

✳ على أن أعجب تلك القصص جميعا ، هى قصة ذلك النفق الذى حفرته المخابرات الأمريكية تحت الأرض ، من برلين الغربية إلى برلين الشرقية. وهناك ، فى نقطة معينة تحت برلين الشرقية ، أقيمت محطة كاملة تم توصيلها بخطوط التليفون التى تصل بين برلين الشرقية وبين موسكو ، وبذلك أمكن التقاط وتسجيل كل الاتصالات التليفونية السرية بين برلين وموسكو خلال فترة طويلة من الزمن.

وعندما تم اكتشاف هذا النفق بالمصادفة وبدأ الشيوعيون يحفرون الأرض ليصلوا إلى المحطة الكامنة تحت أقدامهم ، دقت أجراس التحذير المركبة فى النفق ، وأسرع الرجال الذين يعملون بالفرار إلى خارج النفق ولكنهم تركوا الأجهزة والآلات.. وقد دهش السوفييت من دقة المحطة إلى درجة تزويدها بأجهزة تكييف الهواء وحولوها إلى منطقة يزورها السياح.

الكتاب الذى روى هذه الحقائق بالتفصيل عنوانه (القصة الداخلية لإدارة المخابرات المركزية) ومؤلفه اسمه اندرو تالى.. والكتاب لم يصل إلى مصر بعد.. ولكن الصحف الخارجية نشرت منه هذه المقتطفات التى كانت أهم قصة بوليسية قرأها العالم فى السنوات العشر الماضية على الأقل !..

القصة الثالثة

القصة العاطفية ، من روسيا ، أو بالذات من «سوتشى» ، المضيف الروسى البديع ، الواقع على شاطئ البحر الاسود الذى تعود خروشوف أن يقضى اجازته فيه.

فقد وقعت «فيرا» الفتاة ذات الستة عشر ربيعا ، فى حب «أناتولى» الشاب الذى درهن الموسيقى !..

قصة تحدث فى حدائق سوتشى وعلى شواطئها ألف مرة كل يوم.. ولكن الفتاة أبوها يعمل قائدا لبوليس المدينة !

وأترك مراسل الجريدة الأدبية الروسية فى المدينة يروى القصة. انه يصف الفتاة بأنها جميلة ، جذابة ، مرحة ، مازالت تلبس الجوارب الملونة الطويلة. وقد بدأت المتاعب الحقيقية تواجهها حين اعتدى بعض الناس بالضرب على أناتولى وهو واقف يحدثها فى أحد شوارع البلدة.

«كانا واقفين يتحدثان ، حين اقترب أحد الأغراب وأخذ يهين الفتاة ، فلما تعرض له أناتولى ، تلقى لكمة قاسية على فكه. وتدفق الدم من وجه أناتولى، وقبل أن يرد الضربة للرجل المجهول. كان أربعة من رجال البوليس قد أحاطوا به ، واقتادوه إلى قسم البوليس. وفى قسم البوليس إنهال عليه بعض رجال البوليس ضربا، ثم تركوه.. بينما انصرف الرجل الآخر الذى اعترضه فى الطريق وبدأه بالضرب ، دون أن يتعرض له أحد.

«وبعد خمسة عشر يوما فوجيء أناتولى بالبوليس يقدمه إلى المحاكمة بتهمة أنه قاوم رجال البوليس وحاول الاعتداء عليهم. وباسم هذه التهمة وضع أناتولى فى السجن ثلاثة شهور ينتظر المحاكمة.

كان واضحا أن مدير البوليس يريد أن يدين الشاب الذى يحب ابنته. وتقدمت امرأة للشهادة فى المحاكمة وقالت انها كانت مارة وقت الحادث وأن رجلا مجهولا هاجم أناتولى وضربه وأنها هى شخصا حاولت أن تتدخل ولكنها عجزت. على أن أهم ماحدث فى المحاكمة أن فيرا استدعيت للشهادة وإذا بها تدلى بشهادة باسلة تدافع فيها عن أناتولى، وتروى التفاصيل الكاملة للحادث فاضطرت المحكمة إلى تأجيل نظر القضية لاجراء التحقيق من جديد.

وثار مدير البوليس على ابنته ثورة عارمة بسبب شهادتها أمام المحكمة. فقد هدمت التهمة التي يريد أن يلفقها لصديقها. وقرر أن يمنعها بأي وسيلة من حضور الجلسات المقبلة للمحاكمة.

وضرب مدير البوليس ابنته ضربا مبرحا أياما طويلة متوالية. ولكنه في النهاية أرسلها إلى مصحة الأمراض العصبية في البلدة بالاكراه، بحجة أنها مريضة بمرض عصبى، حتى لاتستطيع الازلاء بأي شهادة جديدة. وفي هذه الاثناء كانت قصة فيرا قد انتشرت في المدينة. وثار كل الشبان والشابات في مجتمع المدينة الصغير. وتجمعوا في حلقات كثيرة وذهبوا إلى سلطات المدينة المحلية وطالبوا بأن يذهب المدعى العام إلى المستشفى ليرى فيرا ويحقق الموضوع.

وبعد أن زارها المدعى العام، أمر بتوقيع الكشف الطبى عليها. وسجل التقرير الطبى أن فيرا قد تعرضت للضرب المبرح أكثر من مرة. ولكن مدير البوليس لم تنفذ حيله.. فقد ظهر على المسرح فجأة طبيب نفسانى قال ان الفتاة مصابة بالشيزوفرانيا ونقلها إلى عيادته لتكون تحت اشرافه. ومن مستشفى الطبيب النفسى كتبت فيرا إلى صديقها أناتولى تقول «عزيزى أناتولى». ها أنت ترى أن ماتوقعته قد تحقق. وانهم استطاعوا أن ينفذوا إرادتهم. ان أبى يملك سلطات واسعة يستطيع أن يصنع بها مايشاء. ولكننى مازلت أؤمن أن العدالة في هذه الدنيا لم تندثر. واننا لابد أن ننتصر في نهاية الأمر».

«وخرجت فيرا من المصحة بعد أسبوعين.. ورغم كل محاولات أبيها، فقد استطاعت أن تذهب إلى المحكمة وتشهد في القضية مرة أخرى. ومع ذلك فقد أصدرت المحكمة حكمها على أناتولى بأن يقضى سنة كاملة في أحد معسكرات العمل البعيدة. ولكن أحد أعضاء المحكمة لم يعجبه الحكم. ولم تعجبه الطريقة التي عرضت بها أقوال الشهود، فكتب إلى خروشوف مباشرة».

ويستطرد مراسل الجريدة الأدبية قائلًا: إن خروشوف، شعر انه في هذه الفترة بالذات، وبعد كل ما تعرض له الشعب خلال الفترة التي انعدمت فيها الشرعية القانونية والتي هاجمها الحزب، لا يمكن أن يسمح لمثل هذا

الظلم أن يحدث من جديد. وهكذا أحييت الشكوى من موسكو إلى المحكمة العليا الاقليمية في كراستودار.

«ولكن هناك أيضاً، كان لمدير بوليس سوتشي أصدقاء. وقال أحد كبار موظفي القسم الجنائي في كراستودار للمراسل : انه لا ينصح له بأن يدافع عن أناتولي ، وفهم منه أنه صديق شخصي لمدير البوليس..

وختمت الجريدة رسالتها قائلة : إن فيرا مازالت في بيت أبيها ، تعيش في جحيم من الاضطهاد ، وتنتظر ساعة الخلاص!».»

هذه رواية «خطيرة» ألفتها فتاة في الثالثة والعشرين من عمرها . الفتاة إسرائيلية صهيونية ، اسمها «يائيل دايان» بنت موشى دايان القائد العسكرى الصهيونى المعروف ، والارهابى العريق ، وأقرب المقربين إلى بن جوريون ، ووزير الزراعة فى وزارته والمرشح الأول لأن يكون خليفته.

وقد ألفت «يائيل دايان» وهى فى التاسعة عشرة من العمر رواية اسمها «وجه جديد فى المرأة» ، كانت

محل تعليقات شتى ، ولكنها لم تستوقفنى كثيرا.. أما هذه الرواية فقد استوقفتنى بشدة لأنها رواية مكتوبة باتقان فنى كبير فحسب ، ولكن لأنها أشبه أن تكون تحقيقا نفسيا عن مجتمع إسرائيل ودولة إسرائيل .. وهو الشئ الذى يجب أن نتابعه باستمرار.

وقد كنت جالسا فى شرفة فندق «سان جورج» فى بيروت حين دخل الشرفة صحفى همدى تعرفت به فى القاهرة منذ سنوات.. حاملا حقايبه ، أتى من سفر.

طوبى

للثلاثين

رواية

«خطيرة»

جديدة

تُرلفها

بنت

موشى

دايان

أخبار اليوم .. فى

٦٢ / ٤ / ١٤

وسألته : من أين أنت قادم ؟

فقال لى : من إسرائيل !

وقبل أن تقفز الدهشة إلى وجهى قال : ليس مباشرة ! فأنا قادم الآن من قبرص . لكننى قبل قبرص كنت فى تل أبيب .

ورأى اننى سوف أنهال عليه بالأسئلة فبادرنى مرة أخرى يقول :
— سفتحدث فيما بعد . فأن على أن أنجز هنا أشياء كثيرة قبل أن أسافر غدا إلى دمشق . ولكنى سأترك لك هذه الرواية التى صدرت منذ أسابيع ..
اقرأها .. وسوف تجد فيها الرد على كثير من الأسئلة .. وليكن حديثنا بعد أن تفرغ من قراءتها .

وقال لى وهو يحمل حقائبه من جديد :

إن كل بلد فيه الآن أكثر من بنت تحاول أن تكون «فرانسواز ساجان» ..
وهذه هى «فرانسواز ساجان إسرائيل» ..

وترك لى الصحفى الهندى رواية اسمها «طوبى للخائفين» .

القصّة تبدأ فى قرية صهيونية قرب الحدود السورية اسمها «بيت عون» .. وفلسطين مازالت فلسطين .. أى قبل إنشاء دولة إسرائيل بقليل .
ومحور القصّة فى صفحاتها الأولى صبى صغير اسمه «نيمروث» أبواه «ايفرى» و«مريام» مهاجران جاءا من روسيا قبل سنوات . الصراع فى هذه الصفحات الأولى يدور حول تربية الصبى الصغير والعوامل التى تتنازعها .
وهى فى نفس الوقت العوامل التى تتنازع المجتمع اليهودى فى تلك القرية .
إن الأولاد الصغار فى القرية يهربون من أهلهم إلى منطقة غير مطروقة .
بالقرب من المقابر ، يلعبون فيها لعبتهم المفضلة وهى «من هو القوى؟» .
وفيهما يحاول كل صبى أن يثبت أنه أقوى من الآخر بأى طريقة يختارها ..
بأن يتسلق مثلا شجرة أعلى من الشجرة التى يتسلقها سواه أو بأن يسبح عبر نهر الأردن فى الماء البارد مدة أطول من سواه .. أو أن يضع يده على النار المشتعلة ويتحمل لسعها أكثر من سواه .

وفى القرية رجل اسمه «جيدىون» يسميه أهل القرية «الصخرة» .. فهو نموذج القوة العضلية .. والشجاعة البدنية .. والاستهانة بالخطر .. وهو كما

يتهاشم أهل القرية مشترك في إحدى العصابات الصهيونية السرية.. ويشترك في أعمال إرهابية مجهولة.. ويعود إلى القرية سالما متكبرا.. إن كل أب في القرية يريد أن يشب ابنه مثل «جديون» هذا. وأن يحمل بدوره يوما لقب «الصخرة».. هذا مايريده أيضا «إيفري» لابنه الصبي «نيمورد» رغم معارضة أمه المسالمة التي لاتبرح المطبخ «ميريام».. ولكن الصبي تربطه علاقة روحية بأسكاف عجوز في القرية اسمه «لاميش» فهو يذهب إلى دكانه حيث يتفرج عليه وهو يصنع الأحذية ويستمتع منه إلى قصص وحكايات عجيبة.

إن الأب لا يحب تأثير لاميش على ابنه.. إن لاميش يحدثه أحاديث يهودية قديمة عن الله. والدين. والكتاب المقدس.. إلى أن كان يوم، رأى فيه جديون «الصخرة» الصبي نيمورد يدخل مع العجوز لاميش إلى المعبد اليهودي.. أو الكنيسة اليهودية.. ودهش جديون وغضب. ورأى في هذا افساد للطفل، فأسرع ونقل الخبر إلى أبيه.

وعندما عاد الصبي من المعبد الذي لا يذهب إليه إلا القليلون ثار أبوه في وجهه بحديث له مغزى عميق:

— أيام زمان، حين كنا يهودا في روسيا وغيرها، كان من الضروري بالنسبة لنا أن نطيع التعليمات.. ونحافظ على ديننا، أما الآن فقد أصبح لدينا شيء أهم! الأرض! أنت الآن إسرائيلي، ولست مجرد يهودي! أتعرف ماذا كان اسمي الحقيقي في روسيا؟

كان اسمي «موتل». هل تتصور ذلك؟! نعم كان اسمي «موتل» ولكنني غيرته حين جئت إلى هنا وسميت نفسي «إيفري». لقد تركت هناك ملابسي ومتاعى وأقاربي.. وعشرت هنا على رب جديد. هذا الرب الجديد هو خصب الأرض وزهر البرتقال، ألا تحس ذلك؟

وأخذ إيفري حفنة من تراب الأرض وسكبها في كف الصبي وقال له: أمسك هذا التراب.. اقبض عليه.. تحسسه.. تذوقه.. هذا هو ربك الوحيد.. إذا أردت أن تصلى للسماء فلا تصلى لها لكي تسكب الفضيلة في أرواحنا.. ولكن قل لها أن تنزل المطر على أرضنا. هذا هو المهم! إياك أن تذهب مرة

أخرى إلى المعبد.. إذا أردت أن تسلي نفسك وتتعلم شيئاً فأذهب وتعلم حليب البقر !

وتحاول الأم أن تخفف من غلواء الأب، تحاول أن تقول له أن الماضي لا يمكن أن يمحي بأكمله حتى بعد الهجرة. ولكن الأب لا يقبل هذا الكلام. ويستطرد قائلاً لها ولابنه : هناك.. كنت أخاف من القسيس.. من أبي وأمي.. من عسكري البوليس.. من الطبيعة.. ومن نفسي.. هناك لم يكن من حق الطفل اليهودي أن يكون قويا أو يتسلق شجرة.. كان عليه فقط أن يبقى في دكان أبيه لا يبرحه.

ولكن الصبي نيمرود يحتفظ بعلاقته «السرية» مع الاسكاف العجوز لاميش الذي يحدثه عن الله.. وعن عواطف الحب والشفقة.. وعن ذكريات أيام قديمة في قرية روسية بعيدة..

حتى يجيء يوم يحتفل فيه أهل نيمرود بعيد ميلاد ابنهم.. ويدعون له كل الأولاد والبنات.

وفي غمرة الضجة والصخب أثناء حفلة عيد الميلاد يظهر الاسكاف العجوز لاميش.. لقد جاء يحمل لفافة في يده قال انها هدية أحضرها لنيمرود في عيد ميلاده. ويفرح نيمرود بحضور لاميش بينما يستقبله أبوه في فتور مهذب ويدعوه لتناول الشاي. ثم يفتح نيمرود الهدية : إنها أرنب من الجلد.. صنعه لاميش من بقايا الجلد التي تملأ دكانه.. وقد ركب للأرنب زرارين صغيرين في مكان العينين. وتصايح الأطفال وضحكوا من نيمرود وبدأوا يقولون أن نيمرود نفسه أرنب لأنه لا يشترك في لعبة «من هو القوي». وانفجر سخط ايفري فأخذه لاميش إلى حجرة بعيدة عن الأولاد وانفجر فيه مهددا متوعدا إذا ظل يتصل بابنه ويثبت فيه المشاعر التي يبثها فيه.

قال له :

— انك لم تتغير عما كنت عليه في قرينتنا الروسية منذ سنوات بعيدة.. الهجرة لم تغير فيك أي شيء.. فأنت لا تهتم بالأرض.. وجلدك مازال أصفر اللون ! لم يكتسب أي سمرة بعد.. انك.. يهودي جدا !

ويرتجف الاسكاف العجوز بالغضب والأسى ، ويقول له :
— كيف تجرؤ يا ايفرى على أن توجه لى هذا الكلام؟ .. بل كيف تجرؤ يا
«موتل» يا ابن القسيس «نمخاس»؟ أن تغير اسمك لا يغير حقيقتك ! انك فى
قرارة نفسك خائف.. خائف مثل موتل ابن القسيس نمخاس تماما ! ان الله
رزقك ابنا بديعا ، ولكن ماذا أنت صانع به ؟.

— ليس هذا شأنك. انك تريد أن تراه يشب مثل أى يهودى آخر فى قرية
أوربية . ولكن ابنى لن يكون هكذا. انه سيكون نوعا جديدا.

— الانسان ليس له نوع جديد وابنك كائن إنسانى حساس. خذ أى
قطعة من الجلد الطرى.. انك تستطيع أن تظل تطرقها وتدبغها حتى تصبح
فى صلابة الحديد.. ولكن .. آه.. ان أى شىء فى هذه الحالة يمكن أن يكسرها
.. انك تخسر الجلد.. ولا تحصل على الحديد !

— اننى أريد أن يكون نيمرود شجاعا - الشجاعة صفة حميدة .. أما
عدم الخوف فهو صفة بشعة ذميمة.. انك تمارس تأثيرك عليه ساعة بعد
ساعة ويوما بعد يوم.. تريد أن تقتلع منه كل خوف.. ولكن يبقى له خوف
رهيب - خوفه من أن يخاف ! هذا ما يسيطر عليه الآن . انه لن يكون شجاعا
إذا مضيت فى تربيته على هذا النحو. ولكنه سيشب عاجزا عن أن يخاف،
وسوف يكرهك لهذا السبب يوما ما !

من لا يخاف لا يحب !

— وما العيب فى ألا يخاف ؟

— من لا يخاف لا يستطيع أن يحب . والله يريد منا أن نحب . ابنك
سيتمنى أن يحب. ولكن عدم الخوف سوف يجعله وحيدا.. معزولا.. عزلة
قاتلة .. انك تريد أن تتخلص من ذاتك القديمة.. ولكنك لست واثقا من ذاتك
الجديدة .. ولهذا تحاول أن تصب ابنك فى هذا القالب الذى تتخيله أنت.

وحين ينصرف لاميش والضيوف، يترقب الصبى المهموم الهدية التى
أعدها له أبوه.. وقض الأب لفافته بعناية وحرص كبيرين ، فبدأ فصل لامع
حاد - خنجر مرهف !

وقال ايفرى : هيه .. ما رأيك ؟ خنجر حقيقى ! تستطيع أن تقطع به أى

شىء !

وقال الصبى لنفسه انه لا يعرف ما إذا كان يريد أن يقطع أى شىء على الإطلاق .. لقد رأى مثل هذا الخنجر مع الأولاد الذين من سنه. إن هذا الخنجر حلم كل صبى فى القرية. أما هو ..
وقال الأب ساخرا : نعم .. تستطيع أن تقطع به أى شىء .. حتى ذيل الأرنب الجلدى.

وسأل الصبى وكأنه قد تذكر فجأة :

— أين أرنبى ؟

— فى حجرتك .. على الرف .. انك طبعا لا تريد أن تلعب بمثل هذه اللعب القافهة.

ودخل الصبى حجرته الصغيرة لينام .. حاول أن يضع الأرنب معه فى الفراش ولكنه كان ضيقا، فوضعه على مقعد مواجه له .. ووضع بجواره السكين.

إن غرفته مليئة بألعاب اشتراها له أبوه .. مدافع ودبابات وبنادق .. ثم تذكر البندقية الحقيقية التى يحتفظ بها أبوه .. وكيف أن أباه يعلمه كل يوم جمعة كيف يستعملها وينظفها .. وتذكر كيف أن أمه لا تستطيع الآن أن تضىء الشموع كل يوم جمعة. لقد قال لها أبوه انه لم تعد هناك حاجة إلى مثل هذا. إن الرب القديم لم يعد موجودا .. وتتردد عيناه بين الأرنب الجلدى بعينيه المصنوعتين من الأزرار وبين السكين المرهف .. حتى ينام.

الجسد والقلب

وفى لمحات سريعة تجتاز المؤلفة فترة الحرب العالمية الثانية ، واشتراك العصابات الصهيونية إلى جانب انجلترا، ثم مابعد الحرب ، ثم حرب فلسطين ، وأخيرا إعلان دولة إسرائيل.

كيف نجد الصبى الصغير «نيمرود» وقرية «بيت عون» بعد هذه الخطوب ؟

لقد مات العجوز «لاميش». مات حزينا لأنه رأى تعاليمه تذبل ، ورأى المجتمع من حوله يتجه إلى عبادة القوة وعدم الإيمان بالله ، وعدم الاعتراف بالحب والخوف.

أما «جيديون» أو «الصخرة» كما كان يسميه أهل القرية ، ورمز القوة والاحاد والتأثر من كل الحياة القديمة التي قاساها اليهود ، فقد عاد من إحدى «مهمات السرية» حطاما. انفجر فيه لغم فمزق له ذراعيه وإحدى ساقيه. عاد جسدا مشوها عاجزا عن الحركة.

وقد حاولوا أول الأمر أن يمنعوا نيمرود من زيارته. ولكنه تسلل يوما إليه. وقد دهش حين دخل البيت فوجد «الصخرة» يبكي. لقد كان جيديون يمثل كل ما هو نقيض لاميش. ولكن ما أشبههما الآن : «لاميش ميت ومدفون تحت قطعة من الحجر، وجيديون ميت حي، مربوط إلى سرير، عاجز عن عم أي شيء.. لا يستطيع أن يسير.. لا يستطيع أن يضم امرأة. — ولكنك تستطيع أن تقرا.. وتستطيع أن تفكر.. وتستطيع أن تتكلم.

— كلا. ان الصخرة لا عقل لها. اننى لم أكن أخاف حين كان لى جسد قوى يستطيع أن يمارس أى شيء، وعضلات أستطيع أن أمرها ، وأطراف تطيعنى. أما الآن، وقد فقدت كل هذا». فماذا بقى لى ..

ودهش نيمرود أكثر حين قال له جيديون : انه الآن يحسد لاميش بعد أن كان يكرهه ويحتقره !!

— أتذكر يوم غضبت منك حين أخذك إلى المعبد ؟ لقد كنت غيورا . ذلك اننى لم أذهب إلى المعبد قط. وطالما اجتاحتني رغبة خفية كي أصلى. ولكن المجتمع هنا لم يكن يقبل من «الصخرة» أن يصلى ، أو يكون له رب. كان على «الصخرة» أن يكون رمز النموذج الجديد ، القوي الذى لا يخاف، ولا يحتاج إلى اله !

على أنه من خلال هذا كله لم يكن هناك مفر من أن ينمو «نيمرود» في القالب الذى «يريده له الجو السائد فى «بيت عون»، وأن تهمل أحلامه الأرنب الجلدى وتتعلق بالسكين ذى النصل المرهف الحاد !

«أصبحت الحياة بالنسبة لنيمرود حياة جسد. ومادة . أفراحه جسدية وآماله جسدية. هدفه هو الاثبات المستمر لقوته الجسدية. أما الجانب الآخر من نيمرود فقد اختفى تماما.. فى حالات قليلة كان يبدو هذا الجانب الآخر كأنه طيف شاحب بعيد ، فيقوم نيمرود برحلة على قدميه فى أنحاء

البلاد ، وقد يقوى على أن يحب منظرا جميلا من مناظر الطبيعية ، بل وتصل به الحساسية أحيانا إلى درجة أن يقطف بعض الأزهار ، وينسى للحظة أنه يجب أن يكون قويا فحسب.. ولكن تلك كانت حالات عابرة سرعان ما تختفى، وبينما كان جيديون الصخرة يتضاءل في فراشه إلى «صخرة صغيرة» ثم إلى «لاميش جديد» كان نيمرود يتحول إلى «صخرة» . كل ما في الأمر أنه لم يثبت صفاته تلك في الحرب إذ أنه كان صغيرا جدا حين قامت الحرب وانتهت. ولكن لا بأس ، فأن أباه يؤكد له دائما أنه لا مفر من الحرب يوما ، لا مفر من الحرب !

المهاجرة الشقراء

ويطرق باب نيمرود شيء جديد.. قصة حب. فقد نزل في قرية «بيت عون» مجموعة من البنات المهاجرات القادمات من بودابست في المجر. ومن بين المجموعة التقت عينا الفتاة الشقراء «ايللى» بعيني الشاب القوى «الصخرة» نيمرود. هل يتزوج نيمرود من فتاة المهجر مختلفة عنه في عاداتها وتقاليدها وأفكارها؟ سؤال تثيره الأم ، ثم تزيحه جانبا .. ولا تعترض. ولكن السؤال الأساسي يبقى بين نيمرود والفتاة. إنه يحبها. يحبها نوعا خاصا من الحب وكأنها مجرد امتداد لجسده أو لقدراته الجسدية المادية البحتة. والفتاة تلاحظ هذا وتتحملة ، وترجعه أول الأمر إلى أنه يمارس تجربته الأولى مع النساء. ولكنها تكتشف في القرية أشياء غريبة .. تكتشف ذات ليلة اللعبة التي يمارسها الأولاد الصغار «من هو القوى» وتصرخ حين ترى صبيا يضع يده في النار لكي يثبت أنه قوى. وتعود إليها كل بشاعات الحرب في أوربا. وتجرى باكية إلى جيديون ، الصخرة سابقا ، الراقد في فراشه أبدا ، يقول شعرا حزينا يائسا !.. إنها لا تتحمل هذا الذي رآته . لأن معناه أنها لو تزوجت فسوف يشيب أولادها على نفس التعاليم.

ويقول لها جيديون «تسأليني عن تفسير لهذا ؟ انظري إلى جيدا! أنا التفسير ! أنا الاجابة على سؤالك ! سخافة شجاعة زائفة! ثم أشار إلى ساقيه المقطوعتين وقال : .

« لا عقل ! لا حكمة ! نتائج عظيمة وخطر عظيم ! ».

وقال فيما قال انه يصاب بغثيان من «نموذج الانسان الجديد» الذى يصنعونه فى البلاد.. وقال لها إن نيمرود يريد أن يكون صخرة والصخرة لا يمكن أن تتحول إلى نبات حتى قادر على التنفس.. «وكان جيديون يلهث» وقلبه يدق فى صوت أشبه بدقات عصا فى يد رجل أعمى، يسير متعثرا، مترددا، فى ظلام مطبق بدون هدف !».

وفى تلك المرحلة تعبر القصة شخصيات أخرى ثانوية وصور جانبية ولكنها ذات دلالة. فهناك اليهودى اليمنى «زكى» الذى ترسم القصة فيه نموذجا لعلاقة اليهود الشرقيين باليهود الأوربيين داخل إسرائيل. فهم تابعون ضعفاء، يعترفون - كما تقول المؤلفة عن زكى - بضعفهم وعجزهم وحاجتهم إلى قيادة وحماية اليهودى الأوربى.. وهناك «رينا» بنت المزرعة التى يمكن أن تعد صورة من «النموذج الجديد» الذى تحاول إسرائيل أن تصنعه فى عالم المرأة. وهناك «يوراو» الشاب ابن المدينة - تل أبيب - الذى جاء مع فرق التدريب العسكرى إلى القرية. وهناك الحديث المتواصل عن حوادث الحدود. والمؤلفة تزعم بالطبع، بشكل غير مباشر، أن العرب دائما هم المعتدون، وأن اليهود يتحدثون دائما عن «الرد» مقابلة العدوان بالعدوان، تلقين العدو درسا. يقولون هذا كله فى لهجة أقرب إلى الغيظ منها إلى الحقد، وأقرب إلى التعب منها إلى التحفزا».

الشباب فى تل أبيب

ويذهب نيمرود وإيللى وبعض الأصحاب يوما إلى المدينة، إلى تل أبيب. وهنا ترسم المؤلفة صورة غريبة للتناقض بين المزارع وبين المدن فى إسرائيل. فهى تقول ان أبناء «بيت عون» شعروا كأنهم سافروا إلى دولة أخرى، وعندما جلس نيمرود، ابن المزرعة، فى المقهى واستمع إلى مناقشات الناس من حوله، دهش وذعر. انهم يقولون عن اصطدامات الحدود انها وحشية وبشعة بدلا من أن يمجدوها ويتحدثون عن السلم، بل ويقترحون إيقاف الهجرة إلى إسرائيل والموافقة على عودة بعض

اللاجئين العرب إلى ديارهم ! وعندما دخل نيمرود في حديث مع بعض الناس سألوه من أين هو فقال «من بيت عون» فسألوه «أين تقع بالضبط؟» فجرح جرحا عميقا حين وجد أن الناس في تل أبيب لم يسمعوها عن اسم بيت عون قط. ولكن الذي أثاره إلى أقصى حد هو أن «رينا» نموذج «الإنسان الجديد» بين البنات. أثرت أن تترك القرية وخطيبها السابق لتتزوج شابا وسيما ناعما من تل أبيب !

وعندما عاد إلى بيت عون سأله أبوه «هل صحيح أننا سنقوم بإجراء عسكري بمناسبة تبادل إطلاق النار على حدود سوريا» فقال نيمرود مستهزئا «لا أظن.. فالناس في تل أبيب يتحدثون عن السلام! كأننا نحن.. نريد الحرب!». وتستطرد المؤلفة قائلة «ولكنه كان يكذب. انه يريد الصدام والآن أكثر من أي وقت مضى. انه يريد أن يقفز إلى القتال أو فليعد إلى رحم أمه وكأنه لم يولد قط !

إن الصخرة تنمو في باطنه حتى أوشكت أن تقتل أي شيء رقيق فيه. إن «الصبار» نبات ضخم وقوي ومليء بالعصير ولكنه ينكمش في بعض المواسم ويفقد ما فيه من عصير ولا يبقى منه إلا الشوك الحاد. والشوك في نيمرود بدأ يجه إلى الداخل ويقتل فيه أي شيء يمكن أن يكون عذبا. ولهذا فعندما نظر إلى الأرنب الجلدي فجأة سخر من نفسه وقرر أن يهديه إلى «إيللي».. ليتخلص منه.

وقد قرر نيمرود أن يحل مشكلة قلقه وأزمته النفسية منذ عاد من تل أبيب بمشروع غريب.. فهناك وراء حدود إسرائيل، في أرض البلاد العربية، يشرف جبل شامخ اسمه «جبل الثلج» حيث تلتقي حدود إسرائيل وسوريا ولبنان.

وتسجل المؤلفة ماتسميه «يوميات نيمرود» في رحلته الغريبة. ارتدى ثيابا عربية للتكر وأخفى خنجره بين طيات ثيابه وعبر الحدود ليلا، صاعدا إلى الجبل.

رحلة غريبة مملوءة بالرمز، جياشة بالكلمات والعبارات التي تحمل أكثر من معناها المباشر. إن فيها حلم الاسرائيلي بالتوسع خارج حدوده

الحالية وأن هذه الجبال عبر الحدود هى ملك له. وفيها احساس الاسرائيلى بالغرور العميق منذ أقام دولته «اننى لا أطلب معركة ، ولكننى أطلب شيئاً اتحداه وأتغلب عليه. وداعاً يا بيت عون. ابنك خارج لكى يغتصب الجبال العذراء!» ثم يتحدث عن شعوره المعقد نحو العربى «اننى لست مسالماً ولا باحثاً عن التهدة. ولكننى أيضاً لا أهتم بالحرب . لا أستطيع أن أقنع بأن هؤلاء الناس أعدائى. ربما لأنهم قريبون جداً ، يمكن لمسهم بأصابع اليد ، لو أننى أستطيع أن أتجنب رؤية (العربى) وأتصوره نوعاً من الوحش ، فلربما استطعت أن أكرهه وأن أقاتله وأحاربه. ولكن هذه ليست الحقيقة. اننى أعبر حدوده لمجرد انه يملك شيئاً جميلاً أريد أن ألمسه!».

وحين يصعد الجبل يعاود تحديه :

«هأنذا على قمة جبل الثلج أصبح كما كنت أفعل وأنا صغير «من هو القوى؟» ولكن أصداء صوتى هذه المرة تتردد فى الأردن ، وعلى ضفاف نهر الليطانى ، وعلى الطريق الصاعد إلى دمشق ، وفى السما!».

هل أقتله أو يقتلنى ؟

ولا نرى «العربى» فى الرواية كلها إلا ونيمرود عائد ، متلصص ، من رحلته الرمزية الغربية إلى جبل الثلج فيلمح ظهر عربى عجوز يحمل بندقية ويكتب فى رمز آخر «كنت أفكر فى بندقيته، ويذى على خنجرى. هل يطلق على النار إذا رآنى؟ أسهل شئ أن أهاجمه من الظهر وأطعنه وأجهز عليه ! ولكن هذه ليست لعبة عادلة . ولكنه - أيضاً - إذا اكتشف وجودى فستكون هذه نهاية أشياء كثيرة. لو رآنى فأئننى ضائع لا محالة.

ويتزوج نيمرود من ايللى . وبينيان بيتاً جديداً فى المزرعة. ويشن الاسرائيليون هجوماً ليلياً على قرية سورية. وتبرر المؤلفة الهجوم طبعاً بتحرش السوريين بحدود إسرائيل. ويشترك نيمرود أخيراً فى القتال الذى كان يتحرق إليه. ويعود وفى ذراعه جرح خفيف. وتقول له زوجته ايللى أنه يفضل أن يتخلل رصاص العدو شعر رأسه على أن تتخلله أصابع زوجته.

وايللى تعيش فى حياتها مع نيمرود لكل الأسباب والصفات التى سبق سردها. وهى حامل ولا تريد أن يشب ابنها مثله. ولكن الحدث الذى جعلها

تنفجر وتثور وتهرب من البيت هو مرض أم نيمرود ثم وفاتها.. لقد زعرت ايللى وهى ترى نيمرود يعبر هذه المرحلة بلا انفعال. لم يجد فى وفاة أمه أكثر من حادث بديهي وطبيعي لامفر منه ولا يحتاج إلى حزن ولا حتى إلى أن يذهب إلى فراش موتها ! وكأن هذه المرأة العجوز ليست أمه ولا تمت إليه بأى شىء !

وهربت ايللى إلى بيت صاحبها التى تزوجت فى تل أبيب «افتحوا النوافذ! افتحوا النوافذ والأبواب والأرحام وإلا اختنقنا جميعا! لقد تزوجت صخرة - شجرة ميتة.. واديا أجرد لا ينبت فيه شىء!.. هل تستطيع الصخرة أن تحب؟ لا أريد طفلا ! لا أريد أن أنجب منه!».

وحين يذهب نيمرود إلى أصحابها ليعيدها إليه يقولون له «ان المسكينة تحبك! تحب ما فيك من قوة تبعث على الغثيان. هذه أرض طيبة. انها لا تأكلنا . ولكننا نحن نأكل أنفسنا».

وبعد أن تهدأ أعصاب ايللى يصلحها زوجها ، وتعود لتلد طفلها فى بيت عون.

ماذا بقى فى القصة من أحداث ؟

بقى حادثان أساسيان.

الصخرة ينتحر!

الأول هو موت «جيدىون». فقد مات منتحرا برصاصة أفرغها فى جوفه بعد أن ترك رسالة طويلة لنيمرود، خليفته فى حمل لقب الصخرة.. رسالة قال له فيها : «اننى أحس بالذنب نحوك. فقد قتلت الجانب الطيب فيك - وهو الخوف. لقد كنت نموذجاً سيئاً لك. لقد قتلتك لأننى نفسى قتلت بنفس الطريقة من قبل.

«لقد كنت فاسدا وقويا فى البداية وهأنذا انتهى فاسدا وضعيفا.. أن المرء يحتاج إلى شجاعة لكى يخاف.. ولم تكن لدى هذه الشجاعة. ولا أنت فأنت مهدد بمصيرى - سوف تجن وتدمر كل ماحولك ، وتدمر نفسك قبل كل شىء. نصيحتى لك أن تترك أولادك يلعبون كالأطفال. لا تدعهم يشبون على هذا الطراز الجديد الذى يزعمون .. لا تصنع منهم صخورا ..

اننى أترك الأرض لالحق ممن هم أحسن منى مثل لاميش!».
الحادث الثانى : أو المشهد الأخير الذى تختتم به (يائيل دايان) قصتها هو أن ابن نيمرود قد أصبح صبيا.

وقد ذهب بدوره إلى حيث يلتقى الأولاد ويلعبون لعبة «من هو القوى» وقد أراد أن يثبت قوته فقفز فى نهر الأردن ليعبره. ولكنه يشرف على الغرق. وفى تلك اللحظة يمر نيمرود صدفة بالمكان فيرى ابنه على وشك الغرق «وفجأة تحطم كل شىء. لقد وقف الصخرة يرتعد. كان نيمرود النموذج الجديد، الصخرة» ويرتجف ذعرا. كان الخوف الساحق يمزقه. كل مخاوفه القديمة التى أخفاها.. وأغرقها.. وقتلها.. قفزت فجأة على السطح تسخر منه وتغزو قلبه وأعصابه.. وقفز بلا وعى فى الماء لينقذ ابنه. فلما أنقذه فوجيء الأولاد بالصخرة يبكى كالأطفال.

وعندما عاد إلى البيت وهو مازال يبكى قال له أبوه «ايفرى» : «ابك يابنى.. لا تخجل ! ابك ! ضع ابنك فى فراشه وحديثه بحكايات لاميش القديمة، وحاول أن تصلى!».

وفى الفراش، أخرج نيمرود من الدولاب أرنباً مضحكا من الجلد له عينان من الأزرار.. أعطاه للطفل!

هكذا قدمت (يائيل دايان) صورة لمجتمع إسرائيل من وجهة نظرها التى تمثل بغير شك وجهة نظر واسعة الانتشار داخل إسرائيل.. كما قال لى الصحفى الهندى الذى أعارنى الرواية.

ومن سطور هذه الرواية وما فيها من خلجات نفهم فى سرعة شديدة وقد امتلأت الصفحة كلاما :

* إن إسرائيل دولة أقامها ناس لا علاقة لهم بالدين ولا يعترفون به. بل انهم هاربون من دينهم قبل أى شىء آخر. رغم أن إسرائيل أقامت دعايتها وحجتها فى احتلال فلسطين على أساس الدين. انهم ناس يشارون لاحتقار المجتمع الأوروبى واضطهاده لهم.

* إن إسرائيل أقامت ضجة كبيرة حول فكرة انها تخلق نوعا جديدا من الناس. اطلقت عليهم اسم نبات «الصبار» ليكون جنسا ممتازا على سائر

البشر فهذه الدعوة — العنصرية في أساسها — تمزقها المؤلفة تمزيقا شديدا وتدفعها بالفشل الذريع. وبأنها تشويه للانسان لا غير.

✽ اننا إذا تأملنا في هذه الفكرة وأثارها ونظرتها فسوف نجد أنها «نازية» مائة في المائة!.. لها نظرة النازية الباردة الوحشية إلى الصفة العنصرية، وإلى الانسان كجسد وإداة لا شفقة في استخدامها أو تدميرها.

✽ وان فكرة القوة.. والغزو والتوسع.. والعدوان.. عملية راسخة الجذور في بناء مجتمع إسرائيل.

✽ وان الجيل الجديد ينتقد كل هذا .. ولكنه مصاب إلى حد كبير بنفس الأمراض.. فهو حائر.. يكاد يرى أن إنشاء دولة إسرائيل بالنسبة له لم يكن حلا للمشكلة ولكنه كان بداية مشكلة هائلة..

مشكلة تتلخص في عبارة : إلى أين ؟!

الفهرس

الصفحة

٥	تقديم
٩	هل هناك مكان للحب...؟
١٦	محاولة لفهم بيكاسو
٢٠	من الملك مينا إلى المستر دالاس
٢٦	من الأرشيف السرى للسفارة البريطانية
٣٣	حكاية اضطهاد اليهود والنازية الجديدة
٤٣	أعجب كتاب في العالم !!
٥٠	الحكومة الفرنسية تبحث في القبض على سارتر
٥٩	رئيس الجمهورية.. وزعيم المعارضة.. والأرملة الطروب
٦٥	أخطر أسرار الحياة بدأ العلم اكتشافها
٦٩	الفن .. لا مكان له
٧٢	نحن لن نقلد الماضي القديم
٧٨	كيف قامت كندا بدور «السمسار الشريف»
٨٥	نظرة أولى.. إلى انتخابات الرئاسة في أمريكا
٩٨	نهر الريش.. وملكة الجبال !
١٠٥	المسرحية الجديدة لتوفيق الحكيم
١١٠	رأيت في أمريكا
١٢٢	مصرع جريدة
١٢٦	عشرة أيام.. بين القديم والجديد في اليابان

الصفحة

١٣٦	رواية جديدة تدور حوادثها في مصر
١٤٧	المزاج العربى
١٥٨	ثورة الآمال الكبيرة
١٦٣	باقة ورد اشترأها انجلمان لزوجته
١٧٠	القصة الكاملة لفضيحة لافون
١٨٠	المؤسسات العامة عندنا.. كيف تدار؟
١٨٧	جان بول سارتر .. ومشكلة اليهود
٢٠٠	لا يا شيخ؟؟
٢١٤	باريس : ولكنك يا سيدتى فرنسية
٢١٦	ثلاث قصص قصيرة

رقم الايداع ٩٧ / ٢١٣٠

الترقيم الدولي I. S. B. N

977 - 08 - 0589 - 0



هذا الكتاب

الكتاب أنواع .. هناك كاتب يستطيع أن
يقنعك بأفكاره وأرائه .. وهو قادر على أن يصل
إلى عقلك بسهولة ويسر .. وأن يعيد تشكيل
فكرك ومعتقداتك ورأيك .

وهناك كاتب يسحرك بأسلوبه وطريقة
عرضه لموضوعاته التي تفتح عينيك على
نواحي في الحياة لا تعرفها .. وهو قادر على
التسلل إلى روحك ووجدانك .

وهناك نوع ثالث من الكتاب وهو الكاتب
الجاد الذي يناقش قضايا ساخنة تجعلك تمعن
الفكر وتجهد عقلك أثناء قراءة مقالاته .. فهو
لا يريحك بأن يطرح إجابات جاهزة .. بل يثير
أسئلة وعلامات استفهام تصل أنت إلى إجابات
شافية ..

وأحمد بهاء الدين من الكتاب القلائل جدا
الذي يجسم بين كل هذه الأنواع .. ولذلك
استطاع أن يعيد تشكيل عقل وفكر ويصغي
وجدان جيل كامل من خلال مقالاته خصوصا
في فترة التحولات الكبيرة في المجتمع المصري
بعد الثورة أواخر الخمسينات وأوائل الستينات .

وقد اخترنا بعض المقالات التي كتبها أحمد
بهاء الدين في أخبار اليوم خلال تلك
ونعيد نشرها بنفس العنوان الذي نشر
وهو « هذه الدنيا » لعل الشباب يستفيد
استفاد به الأجيال السابقة .

نبيل أبو

عدد خاص

٥ جنيهات

طبعت بمطابع أخ

Bibliotheca Alexandrina



0449597